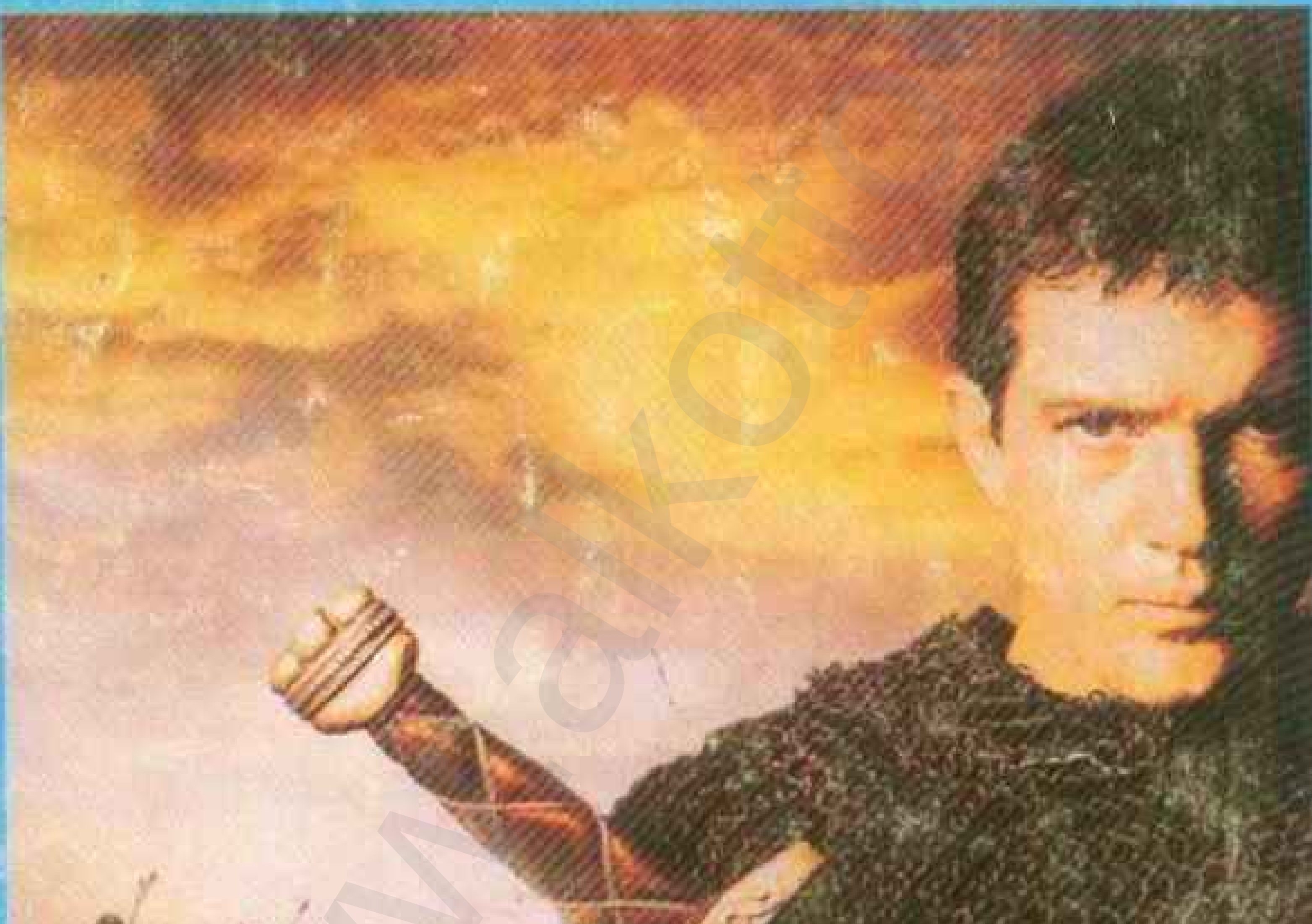
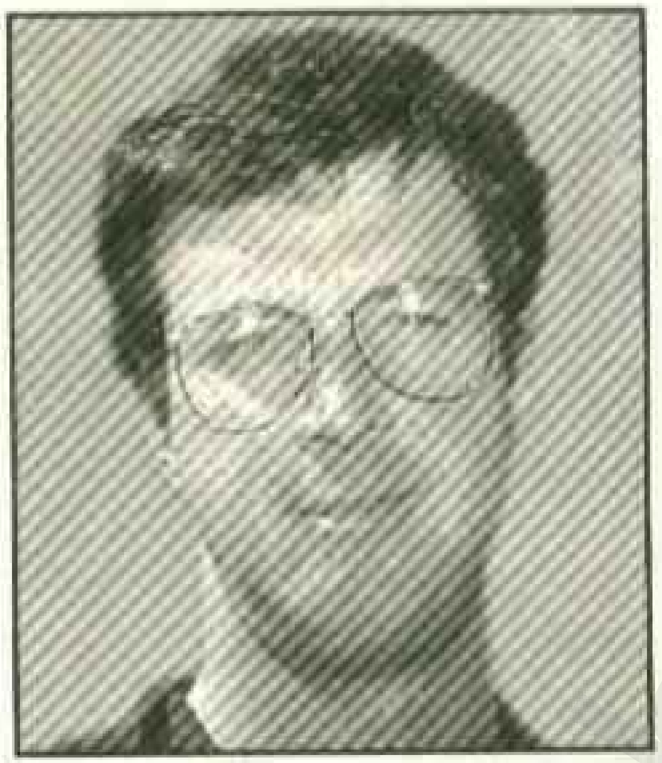
روايات الهلال

أكلة الموتى

مايكل كرايتون





هذه الرواية نشرناها عام ١٩٨٥ ونفدت فى أسابيع قليلة

واليوم في نهاية عام ١٩٩٩ ، هي حديث الناس في كل أنحاء العالم، بعد أن ، تحولت إلي فيلم عالمى باسم «المحارب رقم ١٣»، إخراج جون ماكترنييات ، وبطولة انطونيو باندرياس وعمر الشريف ، وأجمعت كل الاقلام أن الغرب بدأ يغير من صورته عن العربى، فهو هنا رحالة مغامر عاشق للعلم، والمعرفة، مؤمن بالله، ولماح وشديد الذكاء .

مؤلف هذه الرواية هو مايكل كرايتون واحد من أغلى الأدباء المعاصرين، وهو الذى قام بانتاج الفيلم بنفسه، وهو صاحب روايات مشهورة منها «حديقة الديناصورات»، و «عالم الغرب» كما أنه واحد من أكثر خبراء الكومبيوتر مهارة.

إنها رواية عن العرب القدامى، برؤية معاصرة، تناسب ايقاع عام ٢٠٠٠ .

آكلة الموتى

عن مخطوطة ابن فضلان

بقلم

مايكل كرايتون

ترجمة

تيسير كامل

دار الهلال

الطبعة الثانية
(١٩٩٩)

« لا تمدح النهار حتى يأتى المساء ، ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى يجرب ، ولا الصبية حتى تتزوج ، ولا الجليد حتى تعبره ، ولا تمدح شرابا حتى تشرب منه » .

مثل شعبى من امثال الفايكنج

« وجد الشر منذ اقدم العصور »

مثل عربى

تقـديم

تقدم روايات الهلال للقارىء العربى رواية « اكلة الموتى Eaters of [illegible] » ، التى حققت فى اوروبا والولايات المتحدة اعلى ارقام التوزيع ، ويصدق على هذه الرواية القول : « هذه بضاعتنا ردت الينا .. » ، فهى اعادة صياغة مخطوط الرحالة العربى ابن فضلان بأسلوب روائى عصرى ، يحافظ على الوقائع والاحداث التى سجلها فى رسالته ..

وكان الاولى بأولئك الذين لا يملون الحديث عن ذخائر التراث العربى ، أن يقوموا بجهد مشابه لما قام به الكاتب الامريكى مايكل كريشون Michal Critchon ويقدمون التراث فى ثوب جديد وصياغة معاصرة ..

فما زالت كتابة الرحالة العرب تبحث عن من يقدمها ، وهى تكاد تكون المراجع الوحيدة التى تنقل القرون الوسطى ، وما زالت مؤلفات الرحالة العرب عيون العالم المعاصر على هذه المرحلة التاريخية ، عندما كان العلم مزدهرا فى بلادنا ، وهذا ما دفع امام المستشرقين الروس كراتشكوفسكى الى القول : « انه لولا العرب لما قام علم الجغرافيا » ..

وتصف رسالة ابن فضلان بلاد الروس والبلغار والاتراك واصقاع الشمال النائية ، وهى المصدر الرئيسى لتاريخ الشمال المسجل فى وقت لم تكن تعرف فيه هذه الدول القراءة والكتابة ..

وكان ابن فضلان احد افراد البعثة التى اوفدها الخليفة العباسى المقتدر الى بلاد الصقالبة « الروس » لمساعدتهم فى مواجهة تحرشات دولة الخزر اليهودية ، فيذكر ابن فضلان : « أن ملك الصقالبة المش ابن بلطوار طلب بعثة لكى تفقهه فى الدين وتعرفه شرائع الاسلام ، وتبنى له مسجدا وتقيم له حصنا ضد ملوك الخزر الذين يعتدون على قومه ويفرضون عليهم الضرائب ، وكان ملك الخزر يخطب من يشاء من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا ، والخزرى يهودى وابنة الصقلبى مسلمة ! » ..

وقد رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ٣٠٩ هـ (٢١ يونيو ٩٢١ م) ، وعبر نهر جيحون ووصل الى بخارى ثم توغل حتى وصل الى نهر الفولجا ، وهناك اختطفه جماعة من الفايكنج وأخذوه الى الشمال الاسكندنافى ، وعند عودته سجل وصف الرحلة بكل أحداثها فى رسالته الى الخليفة ..

وبقيت أقسام من الرحلة مجهولة ، ولكنها طبعت فى الغرب ، وترجمت ، ولم تصل الى خزائننا العربية ..

حتى نشر وحقق مخطوط ابن فضلان الدكتور سامى الدهان فى دمشق عام ١٩٥٩ ، وحققها فى ذات الوقت الدكتور بير فراوس دولوس ، الاستاذ فى جامعة اوسلو بالنرويج ، واخيرا بعث فيها الحياة الكاتب الامريكى كريشون عندما صاغها باسلوب روائى شيق . وجعل القصة على كل لسان ..

ويقول كريشون : « يعد مخطوط ابن فضلان اقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الاسكندنافى ، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها ، تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت منذ ما يزيد عن الف عام » ..

وقدم المؤلف عملا جذابا بعد ان امسك بالخط الروائى للرحلة وقدم من خلالها العادات والتقاليد التى كان يعيشها مجتمع الشمال .

مقدمة

بقلم : مصطفى نبيل

تقدم مخطوطة ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان حول حياة النايكنج ومجتمعهم . وهذه المخطوطة وثيقة نادرة ، تصف بتفصيل حى حوادث وقعت منذ اكثر من ألف عام . ومن الطبيعى الا تكون قد بقيت كاملة غير منقوصة عبر هذه الحقبة الطويلة جدا من الزمن . فلهذه المخطوطة تاريخها الخاص ، وهو تاريخ ليس اقل شأنا واثارة من النص ذاته .

اصل ومنشا المخطوطة

فى يونية من عام ٩٢١ ميلادية أرسل خليفة بغداد أحد افراد حاشيته ، وهو احمد ابن فضلان سفيرا الى ملك البلغار . وقد أمضى ابن فضلان ثلاثة اعوام فى رحلته دون أن ينجز مهمته ، لانه وهو فى طريقه الى بلاد البلغار التقى بمجموعة من رجال الشمال وكان له بينهم مغامرات عديدة .

وعندما عاد أخيرا الى بغداد ، سجل ابن فضلان تجاربه ومغامراته على شكل تقرير رسمى قدمه الى البلاط . الا أن تلك المخطوطة الاصلية اختفت منذ زمن طويل ، ولكى نعيد تجميعها وبناءها من جديد كان علينا ان نعتمد على مقاطع متفرقة حفظت فى مصادر لاحقة .

وافضل هذه المصادر المعروفة هو معجم جغرافى عربى كتبه ياقوت ابن عبد الله الحموى فى فترة ما من القرن الثالث عشر . يضمن ياقوت معجمه عددا كبيرا من المقاطع المروية من تقرير ابن فضلان ، الذى كان قد مضى عليه آنذاك قرابة الثلاثمائة عام . فلابد من الافتراض ان ياقوت كان يعتمد على نسخة من الاصل . الا ان هذه الفقرات القليلة نسبيا على اى حال قد اعيدت ترجمتها مرات عديدة من قبل علماء كثيرين حدثين .

كما اكتشف مقطع آخر فى روسيا فى عام ١٨١٧ ونشر باللغة الالمانية من قبل اكاديمية القديس بطرسبرج فى عام ١٨٢٣ . ويتضمن هذا المقطع مقاطع معينة نشرت سابقا من قبل ج . ل . راسميوسن فى عام ١٨١٤ . وقد اعتمد راسيموسن على مخطوطة وجدها فى كوبنهاجن ، ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وهى مخطوطة يشك كثيرا فى اصلها ، كما كان هناك ترجمات سويدية وفرنسية وانجليزية ، ايضا فى تلك الفترة ، الا انها جميعا غير صحيحة الى حد الاسفاف الظاهر ، ولا تقدم اى معلومات جديدة .

وفى عام ١٨٧٨ تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين فى المجموعة الاثرية العائدة للسير جون امرسون . والسير جون ، الذى كان سفير بريطانيا فى القسطنطينية ، كان واحدا من اولئك الجامعين الشرهين الذين كانت جماعتهم للاقتناء تتجاوز بكثير اهتمامهم بالاثر المكتسب . وقد اكتشفت المخطوطتان بعد وفاته ، ولا يعرف احد متى حصل عليهما .

احدى هاتين المخطوطتين هى مخطوطة جغرافية بالعربية كتبها احمد الطوسى ، يرجع تاريخها الى عام ١٠٤٧ ميلادية . وهذا ما يجعل مخطوطة الطوسى اقرب زمنيا من كل المخطوطات الاخرى لمخطوطة ابن فضلان الاصلية ، التى يفترض انها كتبت حوالى الفترة بين عامى ٩٢٤ ــ ٩٢٦ ميلادية . الا ان العلماء يعتبرون مخطوطة الطوسى اقل المصادر اهلا للثقة : فالنص ملىء بالاخطاء الفاضحة وانعدام الاتساق الداخلى ، ورغم انها تقتبس بشكل مطول من « ابن الفقيه » الذى زار بلاد الشمال ، فان مراجع كثيرة تتردد فى قبول هذه المخطوطة .

اما المخطوطة الثانية فهى مخطوطة امين الرازى ، المؤرخة تقريبا حوالى الفترة ما بين عامى ١٥٥٨ ــ ١٥٩٥ ميلادية . وهى مكتوبة باللاتينية ، وحسب قول كاتبها فقد ترجمت مباشرة من النص العربى لابن فضلان . وتتضمن مخطوطة الرازى بعض المعلومات عن اتراك الاوغوز ، كما تتضمن فقرات عديدة تتعلق بالمعارك ضد وحوش الضباب ليست موجودة فى المصادر الاخرى .

وفى عام ١٩٣٤ اكتشف مخطوط اخير مكتوب بلاتينية العصور

الوسطى وجد فى دير كسيموس قرب ثيسالونيكا شمالى اليونان . وتحوى مخطوطة كسيموس بعض المعلومات والتعليقات الاضافية عن علاقات ابن فضلان بالخليفة وعن مغامراته مع مخلوقات بلاد الشمال . الا ان كاتب مخطوطة كسيموس وتاريخها كليهما غير مؤكدين .

ان تجميع هذه الترجمات العديدة ، والتى ظهرت عبر فترة تزيد عن الالف عام ، ونشرت بالعربية واللاتينية والالمانية والفرنسية والدنمركية والسويدية والانجليزية ، لهو مهمة ذات ابعاد هائلة . ولا يمكن ان يقدم على مثل هذه المهمة الا واسع المعرفة . فقد جمع بير فراوس دولوس استاذ الادب المقارن فى جامعة اوسلو فى الترويج كل المصادر المعروفة وبدا بتنفيذ مهمة الترجمة الهائلة ، تلك المهمة التى شغلته حتى وفاته عام ١٩٥٧ . وقد نشرت اجزاء من ترجماته فى مجلة وقائع المتحف الوطنى فى اوسلو فى عامى ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ ، لكنها لم تثر الكثير من الاهتمام العلمى ، او من اهتمام العلماء ، ربما لان تلك المجلة محدودة الانتشار .

لقد كانت ترجمة فراوس دولوس ترجمة حرفية فى المقدمة التى كتبها فراوس دولوس شخصيا لترجماته اشار الى انه « من طبيعة اللغات ان لا تكون الترجمات الجميلة (دائما) صحيحة ، وان الترجمة الصحيحة تكتشف جمالها الخاص بها دونما مساعدة » .

فى أثناء اعدادى لهذه النسخة الكاملة والمتقطعة لترجمة فراوس ــ دولوس ، قمت باجراء بعض التغييرات أو التنقيحات . فقد حذفت بعض المقاطع المكررة ، وقد بينت هذا فى سياق النص . كما اننى غيرت بنية الفقرات ، بادئا كلام كل متحدث اقتبس منه مباشرة بفقرة جديدة ، متبعا بذلك الاعراف الحديثة فى الكتابة . كما حذفت شارات اللفظ عن الاسماء العربية واخيرا . غيرت احيانا النص الاصلى غالبا بتغيير مواقع الجمل الثانوية او الوصفية بحيث يصبح المعنى اكثر قربا للفهم والادراك .

الفايكنج

هناك تباين واضح بين الصورة التى يرسمها ابن فضلان للفايكنج وبين النظرة الاوروبية التقليدية لهؤلاء الناس . فأولى أوصاف

الفايكنج الاوروبية سجلها رجال الدين . اذ كانوا الشهود الوحيدين الذين كانوا يستطيعون الكتابة فى تلك الايام ، وقد نظروا الى رجال الشمال الوثنيين نظـــرة رعب خاص . وهذا مقطع مفرط الغلو التقليدى ، اقتبسه « د · م · ولسون » عن كاتب ايرلندى من كتاب القرن الثانى عشر ·

« وبكلمة موجزة ، رغم انه كان هناك مائة راس معمم بحديد الفولاذ فوق كل عنق ، ومائة لسان لاسع ، حاضر البديهية ، بارد ، لا يصدأ ، صفيق وقح فى كل راس ، ومائة صوت ثرثار عال لا يتوقف فى كل لسان فلم تكن تستطيع ان تعيد او تروى ، او تعدد او تخبر · بما عاناه الايرلنديون جميعا ، رجالا ونســاء ، عامة ورجال دين ، شيبا وشبابا ، نبلاء وأشقياء ، من الاذى ومن الايذاء والاضطهاد · وفى كل بيت ، من قبل هؤلاء الناس الاشداء ، الهائجين الغاضبين ، والوثنيين تماما » ·

يميز العلماء المعاصرون ويعترفون بأن مثل هذه الروايات التى تجمد الدم فى العروق عن غزوات الغــايكنج ؟ مبالغ فيها الى حد كبير . ومع ذلك فان الكتاب الاوربيين ما زالوا يميلون الى استبعاد الاسكندنافيين واسقاطهم باعتبارهم برابرة دمويين غير ذوى اهمية بالنسبة الى التيار الرئيسى للثقافة الغـــربية والافكار الغربية ، وغالبا ما كان يحصل هذا على حساب منطق ما . قد نجد تالبوت رايسى يكتب مثلا :

« ربما كان دور الفايكنج ما بين القرنين الثــامن والحــادى عشر أكثر تاثيرا بالفعــل من أى مجمـــوعة بشرية مفـــردة فى اوروبا الغربية » .

وهكذا كان الفايكنج رحالة عظاما ، كما انجزوا مغامرات بارزة فى عالم الملاحة وكانت مدنهم مراكز عظيمة للتجـــارة ، وكان فنهم أصيلا مبدعا ومؤثرا · وقد تباهوا بأدبهم الرفيع وبتقنياتهم المتطورة .. هل كانت حقا حضارة ؟ . اعتقد انه لابد من الاعتراف بانها لم تكن كذلك .

فلمسة الانسانية ، والتى هى علامة الحضارة كانت غائبة تماما ..
وكلما زاد انتباهنا حين قراءة هــذه الافكار ازداد وضــوح عدم

منطقيتها . وفى الواقع لابد وأن يتساءل واحد منا : لماذا يشعر العلماء الاوربيون عالو الثقـــافة الاذكياء بأنهم احرار فى اسقاط الفايكنج من حسابهم وبما لا يتجاوز الايماءة العابرة ؟ ولماذا الانشغال بالقضية اللغوية حول ما اذا كان للفايكنج حضارة أم لا ؟ فالوضع واضح سهل الفهم بمجرد ان يعترف الواحد منا وبميز الانحيـاز الاوربى طويل الامد والنابع من الآراء التقليدية عن فترات ما قبل التاريخ الاوربى !

فكل طفل غربى يذهب الى المدرسة يلقن باســهاب أن الشرق الادنى هو مهد الحضارة ، وان اولى الحضارات قد برزت ونهضت فى مصر وفيما بين النهرين ، يغذيها نهر النيل واحواض نهرى دجلة والفرات . ومن هنا انتشرت الحضارة الى كريت واليونان ، ومن ثم الى روما واخيرا الى برابرة شمالى اوربا .

اما ما الذى كان هؤلاء البرابرة يفعلونه بينمـــا كانوا ينتظرون وصول الحضارة اليهم فغير معروف ، ولم يكن هــذا الســؤال يثار غالبا . فالتاكيد كان على عملية امتصاص هذه الحضارات وتمثلها وهى العملية التى لخصها الكاتب « كوردن تشايلدن » بأنهــا طمس البربرية الاوربية بواسطة الحضارة الشرقية . ولقد تبنى العلماء المعاصرون هذا الراى كما فعل العلمــاء الرومان واليونان قبلهم . يقول جفرى بيبى : ينظر الى تاريخ اوربا الشمالية والشرقية ويقيم من الغرب والجنوب مع كل المفاهيم المسبقة لرجال اعتبروا انفسهم متحضرين ينظرون من عل الى رجال اعتبروهم برابرة .

من وجهة النظر هذه يكون الاسكندنافيون فعلا وبكل وضوح ابعد الناس عن منبع الحضارة ومنطقيا آخر من يكتسبها ، وبناء على ذلك ربما كانوا يعتبرون آخر البرابرة ، أو شوكة مزعجة فى خاصرة تلك المناطق الاوربية الاخرى ، التى تحــاول ان تستوعب حضارة الشرق وحكمته .

وتكمن المشكلة فى ان هذا الراى عن فترة ما قبل التاريخ الاوربى قد تم اسقاطه خلال الخمسة عشر سنة الماضية اذ ان تطور تقنيات تحديد التاريخ الصحيح بواسطة الكربون قد ادى الى فوضى كبيرة فى الترتيب الزمنى المــاضى ، ذلك الترتيب الذى كان يدعم الآراء القديمة القائمة على اساس الانتشار « انتشار الضوء » . ويبدو

الان انه مما لا شـــك فيه أن الاوربيين كانوا يبنون قبورا هائلة (ميغالينية) قبل أن يبنى المصريون أهراماتهم ، و « استون هينج » Stone Henge أقدم من حضارة اليونان (الميسينية) ، كما أن دراسة المعادن واستعمالها فى أوربا ربما سبق تطور مهارات تصنيع المعادن فى اليونان وطراودة .

لم يميز بعد معنى هذه الاكتشافات ولكنه قطعا من المستحيل الان أن نعتبر أوربى ما قبل التاريخ متوحشين ينتظرون بخمول بركات الحضارة الشرقية . بل على العكس من ذلك فانه يبدو أن الاوربيين قد نموا مهارات تنظيمية من المكانة بما يكفى لتصنيع احجار هائلة الحجم ، كما يبدو انه كان لهم معرفة فلكية كافية لبناء « استون هينج » الذى هو أول مرصد فى العالم .

وهكذا فان الانحياز الاوربى نحو الشرق المتحضر لابد وأن تثار حوله الاسئلة . وفى الحقيقة فان مفهوم البربرية الاوربية يجد ذاته يحتاج الى اعادة نظر فيه . فاذا اخذنا كل هذا بعين الاعتبار نجد أن هذه البقايا البربرية ، الى الفايكنج ، يكتسبون أهمية جديدة ، وعندها نستطيع أن نعيد دراسة ما هو معروف عن اسكندنافيين القرن العاشر .

أولا يجب أن نميز أو نعترف بان الفايكنج لم يكونوا ابدا مجموعة موحدة بشكل واضح ، فما رآه الاوربيون لم يكن سوى مجموعات متناثرة ومتفلتة من جوالى البحار أتوا من منطقة جغرافية واسعة ــ فاسكندنافيا اكبر من البرتغال وأسبانيا وفرنسا مجتمعة ــ وكانوا يبحرون من دويلاتهم الاقطاعية المنفلقة بغرض التجارة أو القرصنة أو كليهما ، فقلما كان الفايكنج يميزوا بين هذه وتلك . لكن ذلك ميل مشترك بين كثير من جوالى البحار بدءا من اليونانيين الى الاليزابثيين .

وفى الواقع فانه بالنسبة لشعب كان يفتقر الى الحضارة ولم يكن يشعر بالحاجة الى أن ينظر الى ما وراء المعركة القادمة فان الفايكنج يظهرون سلوكا هادفا ومنضبطا الى ابعد حدود الانضباط ، وكبرهان على تجارتهم واسعة الانتشار فان مقاطع اللغة العربية تبدا بالظهور فى اسكندنافيا بدءا من عام ٦٩٢ . وفى خلال الـ ٤٠٠ عام التالية امتدت رقعة انتشار القراصنة التجار من الفايكنج حتى وصلت

الى الارض الجديدة غربا (نيو فاوند لاند) وامتدت جنوبا حتى وصلت الى صقلية واليونان حيث ترك الفايكنج نحو منهم على أسود (دلوس) ، وشرقا حتى جبال الاورال فى روسيا ، حيث تم اتصال تجارهم بالقوافل القادمة من طريق الحرير الى الصين . لم يكن الفايكنج بناة امبراطوريات ، ومن المألوف القول ان تأثيرهم غير هذه المنطقة الواسعة لم يكن دائما او لم يترك أثرا دائما ، ولكنه دام بما فيه الكفاية ليورث أسماء أماكن لكثير من المناطق فى انجلترا ، بينما اعطوا لروسيا اسم الامة نفسها . وذلك من اسم القبيلة الشمالية (روس) ، اما بالنسبة للأثر الاكثر وضوحا لفهم الوثنى ، ولطاقتهم التى لا تعرف الملل ولنظام القيم عندهم فان مخطوطة ابن فضلان تبين لنا كم من القيم الشمالية التقليدية قد تم الاحتفاظ بها حتى يومنا هذا . وفى الحقيقة فان هناك شيئا مألوفا الى حد كبير وشبيها بالرؤية المعاصرة لطريقة حياة الفايكنج كما أن فيها شيئا يحببها الى نفس القارىء بعمق .

لمحة عن المؤلف

لابد من كلمة عن ابن فضلان ، ذلك الرجل الذى يتحدث الينا بصوت متميز واضح ، رغم مضى اكثر من الف عام ، ورغم مصافى الناقلين والمترجمين المنتمين الى عدد كبير من التقاليد الثقافية واللغوية .

لا تكاد نعرف عنه شخصيا اى شيء . من الواضح انه كان متعلما مثقفا ، ومن تجاربه يبدو انه لم يكن متقدما فى السن . وهو يكتب بشكل لا لبس فيه مبينا انه من معارف الخليفة الذى لم يكن يحبه كثيرا . (لم يكن وحيدا فى هذا المجال ، لان هذا الخليفة ــ المقتدر ــ قد اطيح به مرتين ثم قتله واحد من ضباطه) .

اما عن مجتمعه فاننا نعرف اكثر من ذلك . فقد كانت بغداد ، مدينة السلام ، فى القرن العاشر الميلادى ، اكثر مدن الدنيا حضارة . وكان يعيش اكثر من مليون مواطن ضمن اسوارها الدائرة المشهورة . وكانت بغداد مركز الاستقطاب والاثارة الفكرى والسياسى ، يحيط بكل ذلك جو من الرشاقة والاناقة والبهاء

الخارقة للعادة . فكانت هناك حدائق معطرة ، وغابات ظليلة باردة ، كما كانت هناك الثروات المكدسة لامبراطورية مترامية الاطراف .

كان عرب بغداد مسلمين شديدى الايمان وكانوا على صلة بالشعوب تنظر وتتصرف وتفكر بطرق تختلف عن طرقهم . وكان العرب فى الواقع اقل شعوب ذلك الزمان اقليمية ، وهذا ما جعلهم مراقبين متفوقين للثقافات الاجنبية .

وواضح ان ابن فضلان ذكي دقيق الملاحظة فهو مهتم بكلا الحياة اليومية ومعتقدات الشعب الذى يلتقى به . وكثير ما شاهده قد صدمه على انه سوقى ، بذىء وبربرى ، ولكنه لا يهدر وقته فى اظهار اشمئزازه ، فما ان يعبر عن اعتراضه حتى يعود الى ملاحظاته التى لا تغفل شيئا . وهو يدون ما يراه بحد من العجرفة تثير الاعجاب .

قد يبدو اسلوبه فى تدوين مشاهداته ذاتيا بالنسبة للمقاييس الغربية ، فهو لا يروى لنا قصة كما تعودنا أن نسمع القصص . ونحن ميالون لان ننسى ان حسنا الدرامى يرجع فى اصوله الى تقاليد شفهية ـ وهو عرض حيّ مباشر يقدمه شاعر امام جمهور غالبا ما كان قلقا نافد الصبر ، أو ربما خاملا يغلبه النعاس بعد وجبة دسمة . فاقدم حكاياتنا ، كالالياذة وملحمة بيولف واغنية رولاند ، كانت جميعها مهيأة لتغنى من بين مغنيين كانت مهمتهم الاساسية والتزامهم الاول التسلية والترفيه .

لكن ابن فضلان كان كاتبا ، ولم يكن هدفه الرئيسى التسلية ، كما لم يكن تمجيد راع يصغى اليه أو تاكيد اساطير المجتمع الذى يعيش فيه . بل على العكس من ذلك ، كان ابن فضلان سفيرا يقدم تقريرا ، فلهجته هى لهجة محاسب ضرائبى ، لا لهجة شاعر ، ولهجة عالم مهتم بالاصول الانسانية ، لا لهجة كاتب مسرحى . وهو فى الواقع يستخف غالبا باكثر العناصر اثارة فى روايته بدلا من أن يدعها تتداخل بسرده الواضح المسطح .

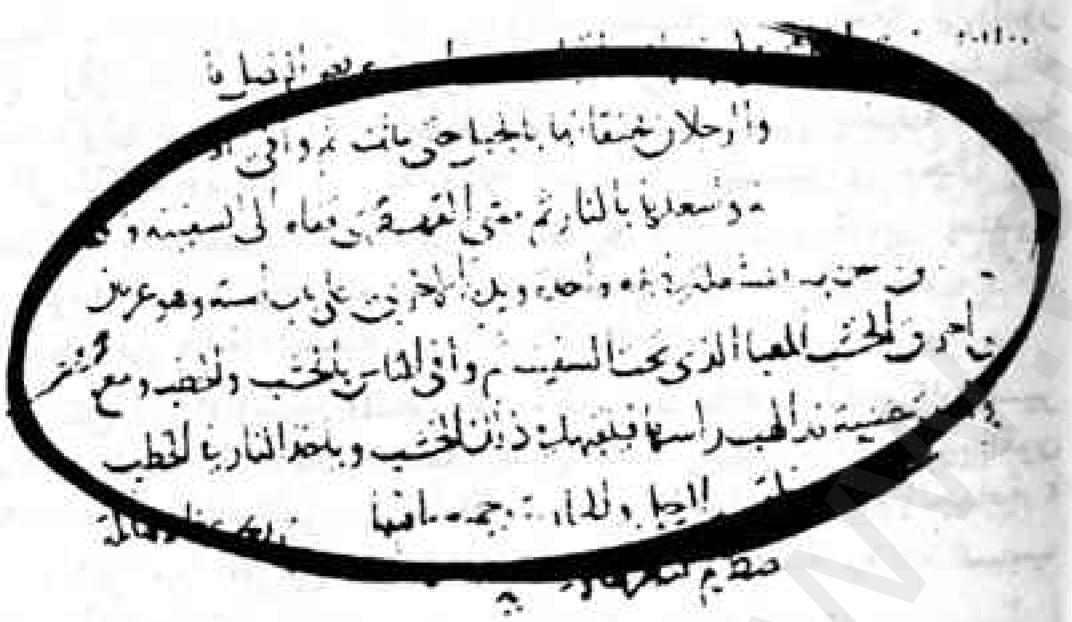
ويبدو ان هذه المزية ، مزية المراقبة البعيدة عن الذاتية ، تصبح احيانا مزعجة الى حد نعجز معه فى التعرف على اى نوع من الملاحظين الخارقين للعادة كان ابن فضلان . فلمئات السنين تلت ابن فضلان كان العرف بين الرحالة أن يكتبوا احداثا خيالية عن

اعاجيب الاعاجم ـ كالحيوانات الناطقة والرجال المجنحين الذين يطيرون ، ولقاءات بافراس البحر واحادى القرن . وحتى مائتى عام مضت ، كان الاوربيون ، والذين كانوا فى غير هذه الاحوال اناسا واعين ، يملأون صحفهم ومجلاتهم بكلام هراء عن القردة الافريقية التى كانت تشن الحرب على المزارعين وغير ذلك .

اما ابن فضلان فانه لا يترك العنان لخياله . فكل كلمة تردد صدى صدق ، وحتى حين يدون ما سمع به سمعا فانه حريص على ان يبين ذلك . وهو حريص بنفس القوة أن يحدد متى يكون شاهد عيان : ولهذا يستعمل جملة « رايت بعينى الاثنتين .. رايت بام عينى » مرارا وتكرارا .

وفى النهاية ، فان خاصية الصدق المطلق هى التى تجعل روايته مرعبة الى هذا الحد . اما فيما يتعلق بلقائه بوحوش الضباب ، أو « باكلة الموتى » كما يسميهم ، فان قصته مروية بنفس تلك العناية بالتفاصيل ، ونفس ذلك الشك الواعى الذى يميز كل أجزاء المخطوطة الاخرى .

وعلى اية حال ، فالقارىء قادر على أن يصدر حكمه بنفسه .



نموذج من المخطوطة الوحيدة

الفصل الاول

يوم ان غادرنا مدينة السلام

الحمد لله الرحمن الرحيم ، سيد العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه فى سلام دائم مقيم وصلى عليه الى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب احمد بن فضلان بن العباس بن الرشيد بن الحمد ، وهو وكيل لمحمد بن سليمان سفير المقتدر الى ملك الصقالبة ، يروى فيه ما كان قد رآه فى بلاد الاتراك وبلاد الهوزار وبلاد الصقالبة وبلاد الباسكر وبلاد الروس وبلاد اهل الشمال ، وما عرفه من تاريخ ملوكهم والطرق التى يتعرفون حسبها فى الكثير من شئون حياتهم .

وصلت رسالة المش بن بلطوار ملك الصقالبة ، الى امير المؤمنين المقتدر . وقد طلب فيها أن يرسل من يستطيع ان يثقفه فى امور الدين وأن يفقهه فى الدين ويعرفه شعائر الاسلام ، وأن يبنى له مسجدا وأن يشيد له منبرا يحمل رسالة الاسلام حتى يعتنقها شعبه فى كل ارجاء المملكة ، وليقدم له النصيحة ايضا فى مجال بناء الحصون والتحصينات ضد ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه . وقد رجا الخليفة أن يقدم له هذه الاشياء ، وكان الوسيط فى هذه القضية هو دادر الحرامى .

لم يكن امير المؤمنين المقتدر ، خليفة قويا عادلا ، لكنه كان أسير ملذاته وخطب ضباطه المتملقة الذين كانوا يسخرون منه ويطلقون النكات عليه خلف ظهره . اما انا فلم اكن واحدا من هذه الجماعة ، كما لم اكن من المقربين الى الخليفة بصورة خاصة وذلك للسبب الذى ساذكره :

كان يعيش فى مدينة السلام تاجر متقدم السن اسمه ابن قارن وكان رغم غناه فى كل شىء يفتقر الى قلب كريم والى حب الانسان .

كان يخزن ذهبه وايضا وبنفس الطريقة زوجته الشابة ، التى لم يكن قد رآها أحد ، ولكن الكل تحدث عن جمالها الذى كان يفوق كل وصف . وفى احد الايام ارسلنى الخليفة لاسلم رسالة لابن قارن ، فحضرت الى بيت التاجر واستاذنت بالدخول اليه ومعى رسالتى مختومة . وحتى هذا اليوم لا اعرف شيئا عن محتوى هذه الرسالة ، ولكن ليس هذا هو المهم .

كان التاجر خارج البيت يقضى بعض الاعمال . أوضحت للحاجب اننى يجب على ان انتظر عودته لان الخليفة قد امرنى بأن اسلم الرسالة باليد . وهكذا سمح لى البواب بالدخول الى البيت ، وهو الامر الذى استغرق بعض الوقت ، فباب البيت محصن بعدد كبير من الاقفال والقضبان والاعمدة كما هو مألوف فى منازل البخلاء . وبعد طول انتظار ادخلت البيت وانتظرت طيلة النهار ، حيث اشتد على الجوع والعطش ، ولكن لم يقدم لى اية مرطبات من قبل خدم التاجر العفن .

وفى خر الظهيرة ، وبينما كل شىء حولى فى البيت ساكن والخدم نيام ، غالبنى النعاس انا ايضا . وفجأة رأيت امامى شبحا ملفعا بالبياض ، امراة شابة جميلة عرفت فيها الزوجة التى لم يرها رجل أبدا . لم تنطق ببنت شفة الا انها قادتنى بايماءة منها الى غرفة أخرى وهناك اقفلت على الباب . واستمتعت بها حالا وبلا انتظار ، وهى فى ذلك المجال لم تكن بحاجة الى اى تشجيع ، فقد كان زوجها عجوزا ، ولا شك مهملا ايضا . وهكذا مضى الظهر وبعد الظهر بسرعة كبيرة حتى سمعنا رب البيت يعود اليه . وفى الحال نهضت الزوجة وغادرت الغرفة ، ولم تكن قد نطقت بكلمة واحدة فى حضورى ، بينما تركت انا لأرتب ثيابى بسرعة وقلق .

كان يمكن ان اصاب بالهلع والخوف والجزع بالتأكيد لولا تلك الاقفال الكثيرة التى اعاقت دخول البخيل الى داره . ووجدنى التاجر ابن قارن فى الغرفة المجاورة ورمانى بنظرة اشتباه وريبة متسائلا لم لبثت فى باحة الدار حيث ينتظر الرسل عادة . اجبته باننى كنت جائعا واننى قد اغمى على فقمت ابحث عن الطعام والظل . كانت تلك كذبة مفضوحة ولم يصدقها ابدا ، فاشتكى الى الخليفة الذى كما علمت سر للأمر فى سريرته ولكنه اضطر لان

يلبس وجهه العبوس امام النـــاس . وهكذا فحينما طلب حاكم الصقالبة بعثة من الخليفة ، اصر هذا الحاقد ابن قارن على ان ارسل انا الى هذه المهمة ، وهكذا كان .

كان من ضمن جمـــاعتنا سفير ملك الصقالبة الذى كان يدعى عبد الله بن بســـطو الهزارى ، والذى كان رجلا متعبا صاخبا ثرثارا . وكان هنـــاك ايضا تاقن التركى وبارس الصقلبى . كان كلاهما مرشدا فى رحلتنا ، وفى الجماعة كنت انا واحد منها ايضا . وكنا نحمل الهدايا للحاكم ولزوجته واطفاله ولقادته . كما كنا نحمل بعض العقاقير التى وضعت تحت رعاية سوسق الراسى . فكانت مجموعتنا اذن مشكلة على هذا النحو .

وهكذا انطلقنا يوم الخميس الحادى عشر من صفر سنة ٣٠٩ (٢١ يونية ٩٢١) انطلقنا من مدينة السلام (بغداد) . توقفنا يوما واحدا فى نهروان ، ومن هنـــاك انطلقنا بسرعة حتى وصلنـــا الدسكرة حيث توقفنا لمدة ثلاثة ايام . ثم تحركنا قدما ودون اى التفاتات حتى وصلنا حلوان . وهناك بقينا يومين انطلقنا بعدها الى قرمسين حيث مكثنا يومين ايضا . ثم انطلقنـــا فى رحلتنا حتى وصلنا همدان حيث بقينا ثلاثة ايام . ومن هناك انطلقنا الى صوى حيث بقينا يومين ومنها الى رى حيث بقينا احد عشر يوما بانتظار احمد ابن على شقيق الراسى لانه كان فى « حوار الرى » . ثم ذهبنا الى « حوار الرى » وبقينا هناك ثلاثة ايام .

(هذا المقطع يقدم لنا صـــورة عن وصف ابن فضـــلان للرحلة والاسفار . وربما كان ربع المخطوطة او يزيد مكتوبا بهذه الطريقة ، ساردا ببساطة اسماء المناطق واقامته فيها وعدد الايام التى قضاها فى كل منها . لهذا فان معظم هذه المادة قد تم حذفها) .

(وواضح ان رفاق ابن فضـــلان كانوا مسافرين صوب الشمال وانهم فى آخر المطاف اضطروا ان يتوقفوا بسبب الشتاء .)

كانت اقامتنا فى الجرجانية طويلة ، فقد مكثنا هناك بعض ايام شهر رجب (نوفمبر) وطيلة شهر شعبان ورمضان وشوال . وكان سبب اقامتنا الطويلة هذه البرد وقساوته . وقد قيل لى ان رجلين اخذا الجمال الى الغابات ليأتيا بالحطب . وبـ‍ـو [illegible] نسـ‍ـيا ان ياخذا قادحة وفتيلا معهمـــا ، ولهذا ناما طيلة الليل بدون نار .

وعندما اصـــبحا فى اليوم التالى وجدا أن الجمال قد تجمدت وتصلبت بسبب البرد .

والحق انى رايت سوق وشـــوارع الجرجانية مهجورة بسبب البرد ، فكان الواحد يستطيع ان يذرع الشوارع دون ان يلتقى باى انسان . ومرة ، وبينما كنت خارجا من الحمام ، دخلت الى بيتى ونظرت الى لحيتى رايتها كتلة من الجليد وكان على ان افركها قريبا من النار . ولقد امضيته ليلى ونهارى فى بيت كان ضمن بيت آخر حيث اقيمت خيمة تركية مصنوعة من اللباد ، كما لففت انا نفسى بثياب كثيرة وسجاجيد ايضا . ولكن رغم كل هذا كان خداى غالبا مايلتصقان بالوسادة ليلا .

فى هذا البرد القـــارس كنت ارى الارض تشكل احيانا بعض الشقوق الهائلة ، وربما كنت تقع على شـــجرة هائلة قديمة وقد انشطرت نصفين بسبب هذه الشقوق .

فى حوالى منتصف شوال من عام ٣٠٩ (فبراير ٩٢٢) بدأ الطقس يتغير كما بدأ النهر يذوب وبدأنا نجمع الاشياء الضرورية لرحلتنا ، فاشترينا جمالا تركية وقوارب جلدية مصنوعة من جلد الجمال وذلك استعدادا لعبور الانهار التى كان علينا أن نعبرها فى بلاد الاتراك .

كما جمعنا زادا ومؤونة من الخبز والدخن (او الجاروس) واللحم المقدد يكفينا لثلاثة اشهر . ولقد نصحنا معارفنا فى المدينة الى لبس الكثير من الثياب وخزن الحاجيات قدر حاجتنا اليها . كما وصفوا لنا المشاق المقبلة علينا بتعابير مخيفة ، وكنا نعتقد بانهم كانوا يبالغون فى قصتهم ، الا اننا حين جابهنا هذه المشاق وجدناها اعظم بكثير مما وصفوا .

ارتدى كل منا معطفا وفوق ذلك المعطف معطفا وفوق ذلك المعطف قفطانا وفوق القفطان عباءة وفوق هذا وذاك ارتدى كل منا خوذة من اللباد لم يكن يطل منها الا العينان . كما ارتدى كل منا تحت كل ذلك زوجا من الثياب الداخلية فوقها سروال كما ارتدى خفين يعلوهما حذاءان . فعنـــدما كان الواحد منا يريد أن يعتلى جمله لم يكن يستطيع حراكا لكثرة ثيابه .

كان الفقيه والمعلم والرهط الذين سافروا معنا من بغداد قد تركونا الان خشية دخول هذا البلد الجديد وهكذا فقد انطلقنا انا والسفير وصهره وحاجباه تاقن وبارس لوحدنا(١) .

اصبحت القافلة الان جاهزة للانطلاق استاجرنا مرشدا لنا من سكان المدينة كان اسمه قلاووظ . ثم ، معتمدين على الله القوى العزيز ، انطلقنا يوم الاثنين الثالث من ذى القعدة عام ٣٠٩ (الثالث من آذار ٩٢٢) من بلدة الجرجانية .

وفى نفس ذلك اليوم توقفنا فى البلدة المسماة زامكان اى بوابة بلاد الترك . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى تقدمنا الى جت ، وهناك تساقط علينا من الثلج ما جعل الجمال تغوض فيه حتى الركب ، فتوقفنا هناك يومين .

ثم اسرعنا الخطا باتجاه مباشر صوب ارض الاتراك دون أن نلتقى بأحد فوق هذا الجرف المستوى الاجرد . وغذينا الرجال طيلة عشرة ايام من البرد القارس والعواصف الثلجية التى لم تنقطع والتى اذا ما قورن برد خوارزم بها بدا وكانه ايام صيف جميلة ، الى حد اننا نسينا كل مشاقنا السابقة وكنا على وشك أن نتخلى عن مهمتنا كلها .

وفى احد الايام حينما كنا نتعرض لطقس من اشد ما عرفناه برودة كان الحاجب تاقن يركب بمحاذاتى ، وبجانبه احد الاتراك الذى كان يحدثه بالتركية . ضحك تاقن وقال لى : « هذا التركى يسال : ماذا سيفعل الله بنا ؟ فهو يقتلنا من البرد . لو عرفنا ماذا يريد لقدمناه له » .

وعندها قلت : « قل له ان الله يريده ان يقول « لا اله الا الله » ضحك وقال : « لو كنت اعرف ذلك لقلته » .

---

(١) خلال المخطوطة لا يبدو ابن فضلان دقيقا فى وصف حجم وتشكيل مجموعته . وسواء كان هذا الاهمال يعكس افتراض ابن فضلان أن القارئ يعرف تشكيلة القافلة او انه كان نتيجة فقدان بعض فقرات النص ، فانه لا احد يستطيع أن يكون متاكدا من السبب وقد تكون الاعراف الاجتماعية عاملا فى هذا ، لان ابن فضلان لا يبين ابدا أن مجموعته كانت تتجاوز عددا ، من الافراد قليلا ، بينما كانت فى الواقع تعد مئة رجل او تزيد ، كما كانت تعد ضعف ذلك العدد من الخيول والجمال ، لكن ابن فضلان لا يعد – حرفيا – العبيد والخدم واعضاء القافلة الاقل قيمة كاعضاء حقيقيين – فى هذه البعثة .

ثم دخلنا فى غابة فوجدنا كميات كبيرة من الخشب الجاف فتوقفنا واشعل افراد القافلة النار وتدفأنا ثم خلعنا ثيابنا ونشرناها لتجف .

(من الواضح أن جماعة ابن فضلان قد بدات تدخل الان فى منطقة دافئة لانه لا يشير من الان فصاعدا الى البرد القارس) .

انطلقنا ثانية واستمرينا فى الرحيل كل يوم بدءا من منتصف الليل وحتى وقت صلاة الظهر ، حين كنا نبطىء المسير ثم نتوقف نهائيا . بعد أن مضى علينا خمس عشرة ليلة على هذه الوتيرة من الترحال وصلنا الى جبل كبير عليه صخور كثيرة ضخمة هائلة ، كما وجدنا ينابيع ماء تنطلق من الصخور ويستقر ماؤها فى برك . ومن هذا المكان عبرنا الارض حتى وصلنا الى قبيلة تركية تسمى قبيلة اللاوغوز .

الفصل الثانى

تقاليد وطرق حياة الاتراك الاوغوز

الاوغوز قبائل رحل لهم بيوت من الشعر واللباد . يقيمون لفترة من الزمن فى مكان ما ثم يرحلون عنه الى مكان آخر . وبيوتهم موضعة هنا وهناك طبقا لعادات القبائل الرحل . ومع أنهم يعيشون حياة قاسية فانهم يشبهون الحمر التى ضلت . فليس بينهم وبين الله اية روابط دينية . وهم لا يصلون ابدا ولكنهم بدلا من ذلك يدعون رؤساء قبائلهم آلهة ، وحين يستشير أحدهم رئيس قبيلته حول امر من الامور فانه يخاطبه قائلا « الهى ماذا افعل بهذا الامر او ذاك ؟ » .

وتصرفاتهم وممارساتهم ترتكز على المشورة فيما بين بعضهم البعض وحسب . ولقد سمعتهم يقولون « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » ولكنهم يقولون هذا ليتقربوا من المسلمين لا لانهم يعتقدون به .

ويدعى حاكم الاتراك الاوغوز « يابغو » . وهو الاسم الذى يطلق على الحاكم كما ان كل شخص يحكم هذه القبيلة يحمل هذا الاسم .

ولا يغتسل الاوغوز ابدا ، لا بعد التبرز ولا بعد التبول ، كما انهم لا يستحمون بعد الجنابة ولا فى اى مناسبة من المناسبات . فهم لا يستعملون الماء ابدا وخاصة فى الشتاء ولا يستطيع التجار او اتباع محمد ان يتوضئوا بحضورهم الا ليلا حين لا يراهم الاتراك ، لانهم كانوا يغضبون ويقولون « هذا الرجل يرغب فى ان يسحرنا لانه يغمر نفسه بالماء » ، وكانوا يجبرونه على دفع غرامة .

ولا يستطيع اى من اتباع محمد ان يدخل بلاد الاتراك الا اذا وافق احد الاوغوز ان يستضيفه ، حيث يمكث معه ويقدم له الثياب والحلى من بلاد الاسلام ، ويجلب لزوجته بعض التوابل والدخن والزبيب والجوز . وعندما يصل المسلم الى بيت مضيفه ، يقيم له هذا الاخير خيمة ويقدم له الاغنام لكى يذبحها المسلم بنفسه . فالاتراك لا يذبحون ابدا ولكنهم يضربون الغنم على راسها حتى تموت .

ونساء الاوغوز لا يتحجبن ابدا بحضور رجالهن او الرجال الاخرين . كما لا تغطى المراة ايا من اجزاء جسدها فى حضور اى شخص . فقد توقفنا فى احد الايام عند تركى وكنا جالسين فى خيمته . وكانت زوجة الرجل حاضرة . وبينما كنا نتبادل اطراف الحديث كشفت المراة عن فرجها وحكته ، وقد رايناها تفعل ذلك فغطينا اعيننا وقلنا « استغفر الله العظيم » . عند ذلك ضحك زوجها وقال للمترجم « قل لهم اننا تكشفه بحضوركم فأفضل ان ترونه علنا من ان تنالوه سرا » .

والزنا غير معروف بينهم ابدا فكل من يكتشفونه زانيا يقتلونه فيقربون غصنى شجرتين ثم يربطونه بالغصنين ويتركون الشجرتين تستقيمان مرة ثانية بحيث يشطر الرجل الذى ربط الى الشجرتين الى شطرين .

كما ان الاتراك يعتبرون عادة ممارسة اللواط خطيئة رهيبة . فقد حدث مرة ان تاجرا اتى ليقيم مع عشيرة كوداركن . وقد اقام مع مضيفه بعض الوقت ليشترى الغنم . وكان للمضيف ابن امرد

يحاول الضيف دون يأس ان يغوى الصبى حتى جعله يخضع لمشيئته . وفى تلك اللحظة دخل المضيف التركى وضبطهما بالجرم المشهود .

اراد الاتراك ان يقتلوا التاجر ومن ثم الصبى لهذا الجرم ، ولكن بعد توسلات كثيرة سمح للتاجر ان يفتدى نفسه . فدفع لمضيفه اربعمائة راس من الغنم لقاء ما فعله بابنه ثم غادر التاجر بلاد الاتراك على جناح السرعة .

وينتف الاتراك لحاهم باستثناء الشوارب .

وعادات الزواج عندهم هى كالتالى : يطلب احدهم يد انثى من عائلة اخرى مقابل (مهر) قدره كذا وغالبا ما يتضمن المهر هذا جمالا ودوابا واشياء اخرى . ولا يستطيع احد ان يتخذ لنفسه زوجة حتى يكون قد وفى بالتزامه الذى التزم به وتفاهم مع رجال تلك العائلة . فاذا ما وفى بهذا الالتزام فانه يأتى اليهم بدون رفاق دونما ضجيج او لغط ويدخل المنزل الذى تقيم فيه العروس ويضاجعها (يأخذها) بحضور والدها وامها واخوتها فلا يمنعونه من ذلك .

واذا مات رجل له زوجة واطفال فان اكبر ابنائه يتخذها زوجة له ان لم تكن امه .

واذا مرض احد الاتراك وكان له عبيد ، فانهم يعتنون به ولا يقترب اى من افراد عائلته منه طيلة فترة مرضه . اذ تقام له خيمة منفصلة عن بيوت الاخرين ولا يغادرها حتى يموت او يشفى اما ان كان عبدا او رجلا فقيرا فانهم يتركونه فى الصحراء ويتابعون طريقهم .

وحين يموت احد الوجهاء يحفرون له حفرة كبيرة على شكل بيت ويذهبون اليه ويلبسونه قرطقا كما يلبسونه حزامه وقوسه ويضعون كاس شرب خشبية فيها مشروب مسكر فى يده . ثم يأخذون كل ممتلكاته ويضعونها فى ذلك البيت . ثم يضعونه هو نفسه فيه ايضا ثم يبنون بيتا آخر فوقه وينشئون فوقه قبة مصنوعة من الطين .

ثم يقتلون الخيول . يقتلون مئة او مئتين ، حسب ما كان يملك منها ، وفى موقع القبر . ثم يأكلون لحمها ما عدا الراس والحوافر والجلد والذيل التى يعلقونها على اعمدة خشبية ويقولون « هذه مراكبه التى سيركبها فى طريقه الى الفردوس » .

اما ان كان بطلا وقتل الكثير من الاعداء ، فانهم ينحتون تماثيل خشبية بعدد اولئك الذين قتلهم ويضعونهـا على قبره ، ويقولون « هؤلاء هم حجابه الذين يقومون على خدمته فى الجنة » .

وهم احيانا يؤجلون قتل خيوله ليوم او يومين ، الى ان يحضهم احد شيوخهم قائلا « لقد رايت الميت فى نومى وقال لى : اصغ الى : انت ترانى ها هنا وقد تجاوزنى رفاقى حين دهنت قدماى عن ان تلحق بهم . اننى لا استطيع اللحاق بهم فبقيت وحيدا » . فى هذه الحالة يذبح الناس خيوله ويعلقونها فوق قبره ، وبعد يوم او يومين ياتى اليهم نفس ذلك الشيخ ويقول « لقد رايت الميت فى حلمه وقال لى : « قل لاهلى اننى قد نجوت من ماساتى » .

وهكذا يحافظ الشيخ على تقاليد الاوغوز ، اذ بغير هذه الوسيلة قد تنشأ الرغبة عند الاحياء بابقاء خيول الميت (١) .

وبعد طول انتظــــــار عاودنا الرحيل عبر المملكة التركية . وفى صبيحة احد الايام التقينا بتركى . كان قبيح الشكل قذر المظهر وقح الخلق وضيع الطبع . قال « قفوا » . فتوقفت القافلة اجمعها اطاعة لامره . ثم قال « لا يتقدم اى منكم » . قلنا له « نحن اصدقاء الكوداركن » . فبدأ يضحك ســــاخرا وهو يقـــول « ومن هو الكوداركن ؟ اننى اخرى على لحيته » .

لم يدر اى منا ماذا يفعل حيال هذه الكلمات ، ثم صاح التركى قائلا « بكند » اى « خبز » فى لغة خوارزم . قدمت له بضع ارغفة من الخبز . فاخذها وقال « يمكنكم استئناف رحلتكم الان ! اننى اشفق عليكم » . وصلنا الى مقاطعة القائد العسكرى الذى كان اسمه اترك ابن القاطحان ، الذى بنى لنا خياما تركية لنقيم بها . وكان له نفسه مؤسسة ضخمة فيها الكثير من المنازل والخدم .

وقد ساق لنا الغنم لنذبحها كما وضع الخيول تحت تصرفنا

(١) يعتقد فارزان احد المعجبين بابن فضلان بان هذه الفقرة الاخيرة تكشف عن حس عالم انسانى حديث لا يسجل عادات شعب من الشعوب فحسب وانما يسجل ايضـــا آلية الفعل والية التصرف ليثبت هذه العادات . فالمعنى الاقتصادى لقتل خيـــول قائد قبل رحال هو المعادل القريب من ضريبة الموت الحديثة . اى ان هذا المعنى يميل لتعطيل تراكم الثروة الموروثة فى عائلة ما . ورغم انه مطلب دينى فان ما كان يمكن لهـــذا التصرف أن يكون ممارسة جماهيرية اكثر مما هو فى الوقت الراهن ويبين ابن فضلان بمهارة بالغة كيف كانت تفرض هذه الممارسة على المترددين .

لتركبها . ويتحدث الاتراك عنه كافضل فرسانهم ، وفى الحقيقة رايته فى يوم من الايام ، عندما كان يتسابق معنا على فرسته ، وحين طارت اوزة فوق رءوسنا ، رايته يشد قوسه ثم يوجه فرسه الى ما تحت الاوزة ويطلق عليها سهمه ويصيبها ويقتلها .

قدمت له بزة من « الميرف » كما قدمت له زوجا من النعال من الجلد الاحمر ، ومعطفا من البروكار . وخمس معاطف من الحرير تقبلها بفيض من تعابير المديح الحارة ، ورفع طرف معطفه البروكار الذى ارتداه لكى يعرض ثيابه الشرف (التكريم) التى قدمتها له لتوى . عندها رايت ان القرطق الـذى كان يرتديه تحت معطف البروكان كان ممزقا قذرا ولكن علمت ان من عاداتهم ان لا يخلع الرداء الذى يرتديه ملامسا جسده حتى يفنى ذلك الرداء من تلقاء ذاته . وفى الحقيقة كان قد نتف كل لحيته وحتى شاربيه بدا لنا على صورة الخصى . ومع ذلك ، فكما لاحظت ، كان فى الواقع افضل فرسانهم .

كنت اعتقد ان هذه الهدايا الجميلة لابد وان تكسبنا صداقته ، الا ان الامر لم يكن كذلك ، فقد كان رجلا خداعا ماكرا .

ففى احد الايام ارسل فى طلب القادة المقربين اليه ، واعنى بذلك ترهان وينال وكلنر . كان ترهان الاكثر تاثيرا بينهم ، كان كسيحا اعمى وذا يد مشوهة . استدعاهم ثم قال لهم « هؤلاء هم رسل ملك العرب لزعيم البلغار ، وارى انه لا يجوز لى ان اتركهم يعبرون دون استشارتكم » .

عندها تحدث ترهان فقال « هذه قضية لم نر لها مثيلا من قبل . فلم يحدث ان اجتاز سفير السلطان بلادنا منذ ان كنا نحن واجدادنا هنا . وانه (استشم) مكيدة يدبرها لنا السلطان . فقد ارسل هؤلاء الرجال فى الواقع الى قبائل الهوزار ليحركها ضدنا . فالافضل ان نشطر اجساد هؤلاء السفراء الى شطرين وناخذ كل ما معهم » .

واضاف مستشار آخر : « كلا فالافضل ان ناخذ كل ما معهم ونتركهم عراة ثم يعودوا من حيث اتوا » .

وقال آخر : « كلا فنحن لنا اسرى عند ملك الهوزار فواجبنا ان نرسل هؤلاء لنفتديهم بهم » .

واستمروا فى نقاش هذه الامور بينهم سبعة ايام بلياليها ، بينما نحن فى حالة شبيهة بحالة الاموات حتى وافقوا اخيرا على فتح الطريق والسماح لنا بالمرور . قدمنا لترهان حلة شرف أو تكريم مؤلفا من (جبتين) من « الميرف » وبعض التوابل والدخن وبعض ارغفة الخبز ..

ثم استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا الى نهر باجند . وهناك استقلينا قواربنا الجلدية التى صنعت من جلد الجمال بعد ان نشرناها وحملنا عليها بضائعنا التى انزلناها عن الجمال التركية . وعندما كان يمتلىء القارب كانت تجلس فيه مجموعة من خمسة أو ستة اشخاص ، يحملون بايديهم اغصان اشجار يستعملونها كمجاذيف ثم ياخذون بالتجذيف بينما الماء تحمل القارب وتعزله فى دوائر لولبية . واخيرا عبرنا . اما فيما يتعلق بالخيول والجمال فقد عبرت النهر سابحة لوحدها .

من الضرورى جدا حين عبور نهر من الانهار ان تنقل اول الامر مجموعة من المحاربين مع اسلحتهم عبر النهر قبل كل القافلة حتى تقام نقطة حراسة وحماية لصد هجوم الباسكر بينما تقوم باقى القافلة بعبور النهر .

وهكذا عبرنا نهر باجندى ثم نهرا آخر يسمى غام بنفس الطريقة التى عبرنا بها النهر الاول . ثم عبرنا نهر اوديل وادرن وورازز واحتى وربنا ، وكلها انهار كبيرة .

حتى وصلنا قبائل البسكنز . كان هؤلاء ينصبون خيامهم قرب بحيرة هادئة وكأنها البحر . وهم قوم سمر غامقو السمرة . كما انهم شعب قوى يحلق رجاله لحاهم . وهم فقراء بالمقارنة مع قبائل الاوغوز ، لانى رأيت بين الاوغوز من كان يمتلك عشرة آلاف من الخيول ومائة الف من الغنم . لكن قبائل البسكنز كانوا فقراء ولم نمكث بينهم غير يوم واحد .

ثم انطلقنا حتى وصلنا نهر جيحون . وهو اكبر واعرض واسرع نهر رأيناه . وفى الحقيقة رأيت بنفسى كيف كانت القوارب الجلدية تنقلب فيه رأسا على عقب ويغرق كل من كان فيها . كثير من افراد جماعتنا ماتوا كما ان كثيرا من الجمال والخيول نفقت غرقا . عبرنا هذا النهر بصعوبة فائقة ثم غذينا الترحال لعدة ايام أخر وعبرنا

نهر سيحون ، ثم نهر آزن ثم نهر باجاج ثم نهر سمر ثم نهر كنالَ ثم نهر سوح ثم نهر كيغلو . وفيها النهاية وصلنا الى بلاد الباسكر .

(تتضمن مخطوطة ياقوت وصفا قصيرا لمكوث ابن فضلان بين الباسكر ، الا أن العديد من العلماء يشكون فى صدق هذه المقاطع . اما الوصف الحقيقى فهو غامض الى حد الغرابة قدر ماهو ممل ، وهو يتضمن بشكل رئيسى قوائم باسماء الاسياد والنبلاء الذين التقى بهم . ويرى ابن فضلان نفسه أن الباسكر لايستحقون أن يهتم بهم ، وهى بحد ذاتها جملة لايمكن ان تصدر عن هذا الرحالة الذى لايشبع فضوله) .

واخيرا تركنا ارض الباسكر وعبرنا نهر جرمسان ثم نهر أورن ثم نهر أورم ثم نهر تج ثم نهر امباش ثم نهر غاوش . وبين الانهار التى ذكرنا كان هناك بين كل نهر ونهر رحلة يوم او يومين او ثلاثة او اربعة ايام فى كل حالة .

ثم وصلنا الى بلاد البلغار ، التى تبدأ عند شواطىء نهر الفولجا .

الفصـــل الثالث

اول اللقاءات مع اهل بلاد الشمال

لقد رأيت بأم عينى كيف وصل رجال الشـــمال مع عتادهم ، واقاموا خيامهم على شاطىء نهر الفولجا(١) . لم ار فى حياتى قط اناسا مردة كهؤلاء : فكلهم طوال كأشجار النخيل ، محمرو الوجنات موردوها . ولا يرتدون الشلحات ولا القفطان لكن الرجال منهم يرتدون ثوبا من القماش الخشن مردود الى احد الجانبين بحيث تبقى احدى اليدين حرة .

(١) فى الواقع كانت الكلمة التى عبر بها ابن فضلان عن هؤلاء هى (الروس) . وهو اسم قبيلة معينة من اهل الشمال . خلال النص يسمى احيانا الاسكندنافيين بالاشارة الى اسمائهم القبلية الخاصة ، ويسميهم احيانا الفرنجة كتعبير عن الاصل (أو العرق) . ويحصر المؤرخون الآن استعمال تعبير الفرنجة بالاشارة الى المرتزقة الاسكندنافيين الذين استخدمتهم الامبراطورية البيزنطية . ومنعا لكل اختلاط ، تم فى هذه الترجمة استعمال تعبيرى «أهل الشمال» و « رجال النورس » فى كل مكان منها .

ويحمل كل من اهل الشمال فاسا وخنجرا وسيفا ، ولا تراهم ابدا بغير هذه الاسلحة . وسيوفهم عريضة ذات خيوط مموجة وفرنجية الصنع . ومن رءوس اظافرهم حتى اعناقهم ترى الرجال منهم موشمين بصور الاشجار ، والاحياء والاشياء الاخرى .

اما النساء منهم فيحملن على صدورهن صندوقا صغيرا من الحديد والنحاس او الفضة او الذهب حسب غنى وثروات ازواجهن . كما يحملن خاتما مثبتا على هذه الصناديق وفوق الخاتم خنجرا ، والكل مثبت الى صدورهن . وحول اعناقهن يلبسن الاطواق الذهبية والفضية .

انهم اقذر خلق الله . فهم لاينظفون انفسهم بعد الذهاب الى المرحاض ، ولا يغسلون انفسهم بعد الجنابة اكثر مما تفعل الحمر الشاردة .

وهم يأتون من بلادهم ويرسون سفنهم فى الفولجا ، وهو نهر عظيم ، ثم يبنون على ضفتيه بيوتا خشبية . وفى كل من هذه البيوت يعيش عشرة او عشرون او اقل او اكثر من ذلك . ولكل رجل مصطبة يجلس عليها برفقة البنات الجميلات اللواتى يعرضهن للبيع . واحيانا يقوم بالاستمتاع باحداهن بينما صديق له يمتع النظر . واحيانا يقوم عدد منهم بالقيام بنفس المتعة فى وقت واحد وكل على مراى من جميع الاخرين .

وبين وقت وآخر يلجأ تاجر الى احد هذه البيوت ليشترى فتاة فيجد سيدها مشغولا بعناقها ولا يكف عن ذلك حتى يقضى وطره . وهم لايرون فى هذا امرا مثيرا للاستغراب .

وفى كل صباح تأتى جارية وتحضر معها طشتا من الماء وتضعه امام سيدها . ويبدا السيد بغسل وجهه ويديه ثم شعره الذى يمشطه فوق الوعاء . وبعدها ينظف انفه ثم يبصق فى الطشت ، ينقل كل ذلك الى الماء امامه . وعندما ينتهى تحمل الفتاة الطشت الى الرجل الذى يليه والذى يقوم بنفس العمل . وهكذا تستمر بنقل الطشت من رجل الى آخر حتى يكون كل من فى البيت قد مخط وبصق فى الطشت وغسل وجهه وشعره .

هذه هى طبيعة الامور بين اهل الشمال كما رايتها بام عينى . ومع ذلك فحين حللنا بينهم كان هناك بعض الشعور بعدم الرضى بين هؤلاء المردة ، والسبب يعود لما يلى :

كان رئيسهم الكبير وهو رجل اسمه وغلف قد وقع مريضا ، فاقيمت له خيمة مرض على مسافة من المعسكر وترك معه الخبز والماء . لم يقترب منه او يكلمه احد ، كما لم يزره احد طيلة الفترة، ولم تعده عبيده ، لان اهل الشمال يعتقدون ان الانسان يجب ان يشفى من اى مرض يصيبه بقوته وقدرته . وكان الكثيرون بينهم يعتقدون ان وغلف لن يعود للانضمام اليهم فى معسكرهم وانه سوف يموت .

ولهذا تم اختيار واحد منهم ، وهو نبيل شاب يدعى بيولف ، اختير ليكون زعيمهم الجديد ، ولكنه لم يقبل طالما ان الزعيم المريض مازال حيا . كان هذا هو سبب الاضطراب حين حلولنا بينهم . الا انه مع ذلك لم تكن هناك اى من مظاهر الاسى او البكاء بين الناس المعسكرين على نهر الفولجا .

ويعلق اهل الشمال اهمية كبيرة على واجبات المضيف . فهم يحيبون كل زائر بحرارة وكرم ويقدمون له الماء واللباس ، كما يتبارى الكبار والنبلاء بينهم لكسب شرف اعظم التكريم . وقد احضر اعضاء قافلتنا امام بيولف واقيمت على شرفنا وليمة كبيرة تراسها بيولف نفسه . وكان رجلا طويلا قويا ذا جلد وشعر ولحية بيضاء ناصعة البياض . وكانت له هيبة الزعيم .

واعترافا بكرم الوليمة اكل رجالنا بشكل مثير للنظر ، ومع ذلك فقد كان الطعام كريها كما ان تقاليد الوليمة كانت تتضمن الكثير من التراشق بالطعام والشراب ، والكثير من الضحك والمرح . وكان مالوفا فى وسط هذه الوليمة الوقحة ان نبيلا من نبلائهم يلهو بجارية على مراى من جميع اتباعه .

حين رايت كل ذلك ادرت وجهى وقلت « استغفر الله رب العالمين » فضحك رجال الشمال طويلا لحرجى . وقد ترجم لى احدهم بما معناه انهم يعتقدون بأن الله ينظر بكثير من العطف الى مثل هذه الملذات المكشوفة . وقد قال لى « انتم العرب مثل عجائز النساء ، انكم ترتجفون لمنظر الحياة » .

فقلت مجيبا « انما انا ضيف بينكم وارجو من الله ان يقودنى الى طريق الصواب » .

وكان هذا سببا لضحك تلا ضحكهم الاول ولكننى لم اجد سببا جعلهم يكتشفون نكتة فيما اقول .

تحمل عادات اهل الشمال عميق الاحترام لحياة الحرب . وفى الحقيقة فان هؤلاء الرجال الضخام يحاربون باستمرار ، ولا يعرفون السلام ابدا لا بين بعضهم ولا بينهم وبين كل القبائل من كل الانواع . وهم يتفننون باغانى حروبهم وشجاعتهم ، ويعتقدون بأن موت المحارب وهو يقاتل هو اعظم الشرف .

واثناء وليمة بيولف غنى جماعة منهم اغنية عن الشجاعة والمعارك فلاقت اعجابا كبيرا رغم ان القليلين فقط اصغوا اليها . اذ ان خمر اهل الشمال القوية سرعان ماتحيلهم الى حيوانات وحمر شاردة . ففى وسط الاغنية كان هناك هتافات عالية ومبارزات مميتة بسبب خناقة بين محاربين . لم يتوقف المغنى عن غنائه رغم هذه الاحداث ، وفى الحقيقة رايت الدم المتطاير يرشم وجهه لكنه مسحه دون ان يتوقف عن الغناء .

لقد ترك فى ذلك اعظم الاثر .

وحدث الان ان امر بيولف الذى كان مخمورا كالاخرين ، بأن اغنى لهم اغنية . وقد اصر على ذلك اصرارا كبيرا . ورغبة فى الا اغضبهم رتلت بعضا من القرآن الكريم بينما المترجم يكرر كلماتى بلسانهم . لكنهم لم يجدوا فيما رتلت شيئا افضل مما فى اغانى مغنيهم الجوال ، وقد استغفرت بعد ذلك ربى على الطريقة التى استقبلت بها كلماته المقدسة واستغفرته ايضا على الترجمة ، التى احسست بانها كانت عقيمة ، لان المترجم نفسه كان فى الحقيقة سكرانا .

بقينا بين اهل الشمال يومين ، وفى صبيحة اليوم الثالث بدانا نهيىء انفسنا للرحيل ولكن اخبرنا المترجم بأن الزعيم وغلف قد مات فآثرت ان ابقى لاشهد ماسيحدث بعده .

فى بادىء الامر مددوه فى قبره الذى اقيم فوقه سقف ، وعلى مدى عشرة ايام حتى اتموا تفصيل وخياطة ثيابه(١) . ثم اتوا ايضا

كان هذا وحده كافيا ليذهل مشاهدا اعربيا قادما من طقس دافىء ، فالتقاليد الاسلامية تامر بالدفن السريع ، غالبا ما يكون فى نفس يوم الوفاة بعد مراسيم قصيرة من الغسل والصلاة عليه .

بأمتعته وممتلكاته الشخصية وقسموها الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول لعائلته ، والثانى ينفق على الثياب التى صنعوها له ، اما بقيمة القسم الثالث فيشترون به مشروبات قومية استعدادا لليوم الذى تسلم فيه احدى الفتيات نفسها للموت وتحرق مع سيدها .

ويسلمون انفسهم كلية لشرب الخمرة بشكل جنونى يشربونها ليلا ونهارا كما ذكرت سابقا . وليس من النادر ان يموت احدهم وكاسه فى يده .

توجهت عائلة وغلف بالسؤال الى جميع فتياته ووصيفاته : من منكن ستموت معه ؟ وعندها اجابت احداهن : انا . منذ اللحظة التى نطقت فيها بهذه الكلمة لم تعد حرة ابدا . حتى لو رغبت بالتراجع فانه لا يسمح لها بذلك .

تسلم الفتاة التى رضيت بذلك الى فتاتين اخريين تقومان بمراقبتها ومرافقتها حيثما ذهبت كما تغسلان احيانا قدميها . وينهمك الجميع باعداد الميت ــ يفصلون الثياب له ويهيئون كل ماهو ضرورى . وخلال كل تلك الفترة تسلم الفتاة نفسها كلية للشرب والغناء وتبقى مرحة فرحة .

الفصل الرابع

فى هذه الاثناء اكتشف بيولف ، وهو النبيل الذى سيلى فى الزعامة ، اكتشف منافسا كان يدعى ثورر كل . لم اعرفه من قبل ، لكنه كان قبيحا قذرا وكان اسمر غامقا بالمقارنة بهذا العرق المتورد الاشقر . وقد تآمر ليصبح هو الزعيم . علمت كل هذا من المترجم لانه لم تكن هناك اى اعراض ظاهرة فى استعدادات الدفن يظهر بأن اى شيء كان يجرى خلافا للعادة .

لم يشرف بيولف بنفسه على استعدادات الدفن ، لانه لم يكن من عائلة وغلف ، والعرف يقضى بأن تهيىء عائلة الميت امور جنازته. وهكذا انضم بيولف الى جموع المحتفلين والمبتهجين كما لم يمارس اى تصرف ملكى ، اللهم الا اثناء وليمة المساء ، حين جلس على المجلس العالى الذى كان مخصصا للملك .

كان يجلس على النحو التالى : عندما يكون أحد رجال الشمال ملكا حقا ، فانه يجلس على رأس الطاولة وعلى كرسى حجرى كبير له ذراعان حجريان . هكذا كان كرسى وغلف ، لكن بيولف لم يجلس فى هذا الكرسى كما قد يجلس اى انسان عادى ، بل جلس على احد الذراعين ، وهو وضع أذى به الى السقوط حينما شرب كثيرا او حين كان يفرط فى الضحك . وكانت العادة انه لايستطيع الجلوس على الكرسى حتى يتم دفن وغلف .

خلال كل هذا الوقت كان ثوركل يتآمر ويعقد الاجتماعات مع النبلاء الاخرين . وقد علمت انه كان يشتبه بى كمشعوذ او ساحر مما ازعجنى كثيرا . وقد اخبرنى المترجم الذى لم يكن يصدق ايا من هذه القصص بأن ثوركل قال باننى كنت السبب فى وفاة وغلف كما انى كنت السبب فى ان يصبح بيولف الزعيم الجديد ، ولكن والحق اقول ، لم يكن لى دور فى اى من هذه الامور .

بعد بضعة ايام ، طلبت اذنا بالرحيل برفقة ابن باسطو وتاقن وبارس ، ولكن رجال الشمال لم يسمحوا لنا بالمغادرة قائلين انه يجب علينا ان نبقى حتى يوم الجنازة ، ومهددين بطعننا بالخناجر التى كانوا يحملونها دائما وهكذا بقينا .

وحين حل اليوم الذى ستلتهم فيه السنة اللهب وغلف والفتاة قربت سفينته من شاطىء النهر ، ثم اقيمت حولها اربعة اكوام من الحطب والاخشاب الاخرى كما وضعت حولها تماثيل خشبية كبيرة على شكل مخلوقات بشرية .

وفى هذه الاثناء بدا الناس بالمشى جيئة وذهابا مرددين كلمات لم افهمها . فلغة اهل الشمال ثقيلة على السمع يصعب فهمها . فى حين مدد الزعيم الميت فى قبره على مسافة من السفينة والذى لم يكونوا قد نقلوه منه بعد . ثم اتوا بما يشبه السرير ووضعوه فى السفينة ثم غطوه بالقماش اليونانى المذهب ووسائد من نفس القماش ثم جاءت حيزبون شمطاء كانوا يدعونها « ملاك الموت » فنشرت الحاجيات الشخصية على السرير . كانت هى التى اشرفت على خياطة الثياب وكل التجهيزات الاخرى ، كما كانت هى ايضا التى ستذبح الفتاة . لقد رايت الحيزبون بعينى كانت سمراء داكنة غليظة البنية ولها ملامح تدخل الهلع الى القلب .

حين اتوا الى القبر أزاحوا السقف واخرجوا الميت ، عندها رايت بانه قد اصبح اسود حالكا بفعل برودة تلك البلاد . وبقربه فى القبر وضعوا المشروبات القومية والفواكه كما وضعوا عودا ، وهذه اشياء اخرجوها كلها الان . اما وغلف الميت فانه لم يتغير فيه شىء الا لونه .

والان رايت بيولف وثوركل يقفان جنبا الى جنب يتبادلان تعابير الصداقة القوية اثناء مراسيم الدفن ، ومع ذلك كان واضحا انه لم يكن ثمة اى صدق فى مظهريهما .

جلل الملك الميت وغلف بالثياب ، بدءا من الثياب الداخلية الى الجرابات والحذاء والقفطان المصنوع من القماش المذهب كما وضع على راسه عمامة مصنوعة من القماش المذهب . ومزركشة بجلد السمور الاسود . ثم حمل الى خيمة فى السفينة ، وهناك اجلسوه على سرير منجد وسندوه بوسائد ثم احضروا شرابا قويا وفواكه وريحانا وضعوها كلها بجانبه .

ثم احضروا كلبا قطعوه نصفين والقوا به فى السفينة . ووضعوا كل اسلحة وغلف بجانبه ثم جاءوا بحصانين جعلوهما يعدوان حتى صارا ينضحان عرقا . بعدها قتل بيولف احدهما بسيفه وقتل ثوركل الاخر ثم قطعوهما قطعا صغيرة بسيفهما ورموا القطع فى السفينة . كان بيولف اقل سرعة فى قتل الحصان وقد بدا وكان هذا كان ذا مغزى بالنسبة للمراقبين ولكننى لم افهم مغزاه .

ثم اتي بثورين قطعا قطعا والقيا فى السفينة . واخيرا اتوا بديك ودجاجة فقتلوهما والقوا بهما فى السفينة ايضا .

فى هذه الاثناء كانت الفتاة التى نذرت نفسها للموت تتمشى جيئة وذهابا ، وتلج الخيمة بعد الاخرى من الخيام التى بنوها هناك. وكان كل من فى هذه الخيام يضاجعها وهو يقول « خبرى سيدك اننى ما فعلت هذا الا حبا به » .

وفى وقت متاخر من مساء ذلك اليوم قادوا الفتاة الى شىء كانوا قد اقاموه على شكل اطار الباب . وضعوا قدميها على سواعد الرجال المدودة فرفعها هؤلاء فوق الاطار . هناك نطقت بكلمات بلغتها وانزلوها بعدها . ثم رفعوها مرة ثانية ففعلت ما فعلته من

قبل . ومرة اخرى انزلوها ثم رفعوها مرة ثالثة . ثم اعطوها دجاجة قطعت رقبتها ورمتها بعيدا .

استفسرت من المترجم عما كانت تفعل فأجاب : « فى المرة الاولى قالت : الله ! انى ارى هنا ابى وامى ، وفى المرة الثانية : الله ! الان ارى كل اقاربى الموتى جالسين ، وفى المرة الثالثة : الله ! هو ذا سيدى يجلس فى الفردوس . ما اجمل الفردوس ما اروع خضرتها . ومعه ارى رجاله وغلمانه . انه يدعونى فخذونى اليه » .

ثم قادوها الى السفينة . وهنا خلعت سواريها واعطتهما الى الحيزبون الشمطاء التى كانت تدعى ملاك الموت والتى ستقتلها فيما بعد . ثم خلعت خلخاليها وقدمتهما الى الوصيفتين اللتين كانتا تقومان على خدمتها ، واللتين كانتا ابنتى ملاك الموت . ثم رفعوها الى السفينة دون ان يدخلوها الى الخيمة .

والان جاء رجال بتروسهم وبلطاتهم وقدموا لها كأسا من الشراب القوى . أخذت الكأس وغنت فوقه ثم افرغته فى جوفها واخبرنى المترجم انها قالت « بهذا ارحل عن هؤلاء الاعزاء لدى » ثم قدم لها كأس آخر شربته ايضا وبدأت بغناء طويل . وامرتها الحيزبون بأن تشرب الكأس حتى الجفاف ودون تباطؤ وان تدخل الخيمة حين كان سيدها .

فى هذا الوقت بدا لى وكأن الفتاة قد داخت وبدت وكأنها تريد دخول الخيمة حين امسكت الشمطاء بها فجأة من رأسها وجرتها الى داخل الخيمة . فى هذه اللحظة بدأ الرجال بالضرب على تروسهم بعصيهم ليغيبوا ضجيج صيحاتها التى قد ترعب الفتيات الاخريات فتردعهن عن طلب الموت مع اسيادهن فى المستقبل . تبعها ستة رجال الى داخل الخيمة كان كل منهم يغتصبها بالدور . ثم القوا بها بجانب سيدها بينما امسك رجلان بقدميها وآخران بيديها . اما الحيزبون الشمطاء المعروفة بملاك الموت فقد عقدت الان حبلا حول عنقها واعطت طرفيه الى اثنين من الرجال ليشدوا العقدة ثم وبخنجر عريض الشفرة طعنت الحيزبون الفتاة بين اضلعها وسحبت الخنجر بينما استمر الرجلان بخنقها فى الحبل حتى ماتت .

اقترب أقارب الميت « وغلف » الان واخذ احدهم قطعة من الخشب الملتهب ومشى عاريا الى الخلف باتجاه السفينة واشعلها بما فيها دون ان ينظر اليها . وسرعان ما كانت الجنازة العائمة شعلة من اللهب بينما اصبحت السفينة والخيمة والرجل والفتاة وكل شيء آخر عاصفة من النيران الملتهبة .

كان احد الرجال يقف بجانبى ينطق ببعض التعليقات موجها كلامه للمترجم . سألت المترجم عما قيل فجاءنى الجواب هكذا : « انتم العرب لابد وان تكونوا قوما اغبياء . فانتم تأخذون أحب رجالكم اليكم واكثرهم احتراما وتلقون بهم تحت الارض لتلتهمهم الزواحف والديدان ، بينما نحن نحرقهم فى رمشة عين بحيث يدخلون الجنة مباشرة ودون تأخير » .

وفى الحقيقة وقبل ان تمضى ساعة من الزمن كانت السفينة والخشب والفتاة قد تحولت جميعا مع الرجل الميت الى رماد .

الفصل الخامس

ما بعد جنازة اهل الشمال

لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سببا للحزن فى موت اي انسان فالفقير والعبد ليسا شيئا ذا بال بالنسبة اليهم ، وحتى زعيمهم لا يثير اى حزن او دموع ، ففى مساء نفس يوم جنازة الزعيم « وغلف » اقيمت وليمة كبرى فى قاعات معسكر الشماليين .

الا اننى لاحظت أنه لم يكن كل شيء على ما يرام بين هؤلاء البرابرة . تحدثت عن هذا مع مترجمى فأجاب على النحو التالى : « هى خطة ثوركل ان يراك تموت ، ومن ثم يقضى على بيولف . وقد حصل على دعم بعض النبلاء له ، ولكن هناك جدلا وخصاما فى كل بيت وفى كل حى » .

فقلت بكثير من القلق « ليس لى اى شأن فى هذه القضية فكيف اتصرف ؟ » .

اجاب المترجم بان على ان اهرب ان استطعت ، ولكن ان قبض على فسيكون ذلك برهانا او دليلا على ذنبي وسوف اعاقب كلص .
ويعاقب اللص على النحو التالي : يقوده الشماليون الى شجرة ضخمة . ويشدون حبلا قويا حوله ثم يعلقونه ويتركونه هناك معلقا حتى يتعفن ويسقط قطعا متناثرة بفعل الريح والمطر عندها تذكرت انني لم انج من الموت الا بصعوبة على يدى ابن القاطجان ففضلت ان اتصرف كما تصرفت من قبل ، اى بقيت بين الشماليين حتى يسمح لى بمغادرتهم وباتمام رحلتى .

استفسرت من المترجم عما اذا كان من واجبى ان احمل الهدايا الى بيولف والى ثوركل ايضا لكى يحبذا رحيلى . فأجاب بأننى لا استطيع ان أقدم الهدايا الى اى منهما ، وانه لم يتقرر بعد من سيكون الزعيم الجديد . ثم اضاف بأن هذا سيتضح خلال يوم وليلة على ابعد تقدير .

صحيح ليس عند هؤلاء الشماليين طريقة ثابتة لاختيار زعيم جديد حين يموت القائد القديم . فقوة السلاح لها اعظم الحسب . ولكن ولاءات المحاربين ايضا والنبلاء والوجهاء لها قيمتها . وفى بعض الاحيان لا يكون هناك خليفة واضح للحاكم ، وكانت هذه الحالة احدى تلك الحالات . وقد قال مترجمى انه على ان اصبر وان اصلى ايضا . وهذا ما فعلت .

ثم هبت عاصفة هوجاء على ضفتى نهر الفولجا ، عاصفة استمرت يومين من المطر الجارف والرياح العاتية ، وبعد هذه العاصفة حط ضباب بارد على الارض . كان سميكا ابيض ولم يكن باستطاعة اى انسان ان يرى على بعد اكثر من عشر خطوات .

الا ان نفس هؤلاء المحاربين الشماليين المردة ، والذين بفضل ضخامتهم وقوة سواعدهم وتصرفاتهم القاسية كانوا لا يهابون شيئا فى هذا العالم كله فانهم يخافون الضباب او الصقيع الاتى مع العواصف .

ويعانى رجال ذلك العرق الكثير لاخفاء خوفهم ، حتى بين بعضهم البعض . فالمحاربون يضحكون ويمرحون كثيرا ويحاولون التظاهر غير المبرر بعاطفة الهدوء . وبهذا يبرهنون على العكس . وفى الواقع

فان محاولاتهم لاخفاء خوفهم محاولات طفولية ، اذ ببساطة يدعون انهم لا يرون الحقيقة ، ومع ذلك فكل واحد منهم وفى جميع انحاء المعسكر يقوم بالصلاة ويقدم الاضحيات من الدجاج والديكة واذا سأل احد عن سبب الاضحيات ، يجيبه « انى اقدم الاضحيات من اجل سلامة عائلتى البعيدة » او يقول « اى اقدم الاضحيات من اجل نجاح تجارتى » او يقول « اقدم الاضحيات اكراما لهذا الفرد او ذاك من اموات عائلتى » او قد يقول اسبابا كثيرة اخرى ثم يضيف ! « وايضا من اجل زوال الضباب » .

ولقد حسبته من الغرائب بالنسبة لهؤلاء الناس الاقوياء المحاربين ان يخافوا الى هذا الحد من اى شىء حتى يتظاهروا بعدم الخوف . ومن بين كل اسباب الخوف المعقولة بدا الصقيع والضباب لفكرى غير مفهوم على الاطلاق .

قلت لمترجمى ربما يخاف الرجل من الريح او من عاصفة رملية هوجاء او من فيضان الماء او من اهتزاز الارض او من البرق والرعد فى السماء ، فكل هذه قادرة على ان تؤذى انسانا او تقتله او تهدم منزله ، ولكن الضباب او الصقيع ليس فيه تهديد او ايذاء . وفى الحقيقة كان هذا اقل شكل من اشكال عناصر الطبيعة المتغيرة .

اجابنى المترجم بأننى كنت احتاج الى عقيدة البحار . وقال ان كثيرا من البحارة العرب يتفقون مع اهل الشمال فيما يتعلق بالقلق بسبب الضباب الملتف ، وكذلك بسبب الضباب او الصقيع لجوالى البحار الكثير من القلق لان مثل هذه الحال تزيد من مخاطر السفر فى المياه .

قلت هذا معقول ولكن حين يسقط الضباب على الارض وليس على الماء فاننى لم افهم معنى اى خوف . جوابا على ذلك قال مترجمى الضباب دائما مخيف فى اى وقت اتى . واضاف بانه ليس هناك من فرق سواء على اليابسة او فى الماء ، من وجهة نظر اهل الشمال .

ثم قال لى ، ان الشماليين لا يخافون الضباب كثيرا حقا . وقال المترجم ايضا انه هو كرجل لم يكن يخاف الضباب . وقال انها قضية ثانوية ليست ذى بال . واضاف « انها ليست سوى

الم بسيط داخل مفصل من مفاصل الاطراف قد يأتي مع الضباب لكنه ليس اكثر اهمية من ذلك » .

بهذا احسست بأن مترجمي كالاخرين ينكر كل شكل من اشكال القلق بسبب الضباب ويتظاهر بالامبالاة .

وحدث في هذه الاثناء ان الضباب لم ينقشع مع انه تبخر واصبح رقيقا في اواخر النهار ، كما بدت الشمس كدائرة في السماء لكنها هي ايضا كانت من الضعف بدرجة استطعت معها ان انظر في قلب ضوئها مباشرة .

في نفس هذا اليوم وصل قارب شمالي فيه نبيل من قومهم . كان رجلا شابا ذو لحية خفيفة ولم يكن يرافقه في رحلته الا عدد قليل من الخدم والعبيد ولم يكن بينهم نساء . ولهذا اعتقدت انه لم يكن تاجرا اذ ان هذه المناطق يأتي الشماليون خاصة لبيع النساء .

ارسى هذا الزائر قاربه بنفسه وبقي واقفا عنده حتى هبط الليل . ولم يقترب منه او يحييه اى انسان مع انه كان قريبا وعلى مرأى بصر الجميع . وقد قال مترجمي : « انه احد اقرباء بيولف وسوف يستقبل ضيفا في وليمة المساء » .

وسألت « ولماذا يبقى عند سفينته ؟ » .

« بسبب الضباب » اجاب المترجم واضاف « يقضي العرف ان يبقى واقفا على مرمى البصر لعدة ساعات حتى يراه الجميع ويوقنوا انه ليس عدوا قادما من الضباب » . قال لي هذا بشيء من التردد .

في وليمة المساء رأيت الشاب يدخل القاعة . وهنا حيي بحرارة وبكثير من الدهشة خاصة من قبل بيولف الذي بدا يتصرف كما لو ان الشاب قد وصل لتوه ولم يكن قد مضى عليه ساعات واقفا بجانب السفينة . وبعد تحيات كثيرة القى الشاب خطابا عاطفيا اصغى اليه بيولف باهتمام غير عادي . لم يشرب ولم يداعب الجواري ، ولكنه بدلا من ذلك اصغى الى الشاب بصمت بينما كان الشاب يتكلم بصوت عال جهير . وحين انتهى من قصته بدا وكأن الدموع تنساب من عينيه فقدمت له كأس من الشراب .

سألت مترجمي عما قاله الشاب . وكان هذا الجواب : « انه وولف غار ، ابن روث غار ، وهو احد ملوك الشمال العظام . وهو

قريب لبيولف ويطلب مساعدته ودعمه في مهمة بطولية . يقول وولف ان البلد البعيد يعاني الخوف ومن رعب لا يسمى وهو رعب يعجز كل الناس وكل الاقوام عن مقاومته . وهو يطلب من بيولف أن يسرع بالعودة الى البلد البعيد لينقذ شعبه ومملكة ابيه روث غار » .

سألت المترجم عن طبيعة هذا الرعب ، فقال لي « لا اسم له استطيع ان اخبرك به » . وبدا المترجم شديد الاضطراب بسبب كلمات وولف غار ، كما اضطرب لها كثيرا من أهل الشمال الاخرين.

ولقد رأيت على ملامح بيولف تعابير داكنة حزينة ، فاستفسرت من المترجم عن تفاصيل هذا المصاب . قال المترجم : « لا يمكن لفظ الاسم فالنطق به محرم كي لا يستدعي الشياطين » . وبينما كان يتكلم كنت ارى انه كان يخاف حتى من التفكير في هذه الامور ، وكان هلعه واضحا ولهذا توقفت عن السؤال .

كان بيولف يجلس صامتا فوق الكرسي الحجري . والحقيقة ان جميع النبلاء والرجال والعبيد والخدم الحاضرين كانوا صامتين أيضا . لم ينطق اى رجل في القاعة بحرف واحد . اما الرسول وولف غار فقد وقف امام الجمع حاني الرأس . لم أر في حياتي قط قوم الشمال المرحين صعبي المراس بمثل هذا الاسى والحزن .

ثم دخلت الى القاعة الحيزبون الشمطاء الملقبة بملاك الموت ، وجلست بقرب بيولف ، ومن حقيبة مخبأة اخرجت بضع عظمات لم ادر ان كانت عظاما بشرية أم حيوانية والقت بهذه العظمات على الارض وهي تتمتم بكلمات مبهمة وتمرر يدها فوق العظمات .

ثم جمعت العظمات والقيت ثانية واعيدت الكرة بكثير من الالحان والدمدمة . ومرة اخرى القيت العظمات ثم خاطبت بيولف . استفسرت من المترجم عن معنى ما قالته لكنه لم يعرني اى انتباه .

ثم ان بيولف وقف ورفع كأس شرابه القوي وخاطب النبلاء والمقاتلين المجتمعين بخطاب طويل . وشيئا فشيئا وقف عدد من المحاربين في اماكنهم ليواجهوه . لم يقف الجميع . عددت الواقفين فكانوا أحد عشر فعبر بيولف عن رضاه بهذا .

ورأيت الان ايضا ان توركل كان بادي السرور بسبب ما جرى

واتخذ وضعا اكثر ملوكية بينما لم يعره بيولف اى اهتمام كما لم يبد اى كراهية نحوه ولا حتى اى اكتراث ، مع انهما كانا قبل قليل عدوين .

ثم ان ملاك الموت ، نفس تلك الحيزبون ، اشارت اليه ونطقت ببعض الكلمات ثم غادرت القاعة . واخيرا تكلم مترجمى فقال : « ان بيولف مدعو من قبل الالهة ان يغادر هذا المكان وبسرعة تاركا خلفه كل قضاياه ومشاغله ليتصرف كبطل ويدفع مصاب الشمال. هذا مناسب وسوف يأخذ معه احد عشر مقاتلا ، كما سياخذك انت ايضا معه » . قلت انى فى مهمة الى البلغار ، ولابد لى من اتباع اوامر خليفتى دون تاخير .

« لقد تكلمت ملاك الموت ! » هكذا اجاب مترجمى ثم اضاف « يجب ان تكون مجموعة بيولف ثلاثة عشر ، ويجب ان يكون احد هؤلاء من غير اهل الشمال ، وهكذا فلابد ان تكون انت الثالث عشر » . فاحتججت على ذلك بانى لست محاربا . وفى الحقيقة قدمت كل الاعتذارات والتوسلات التى خ رت على بالى والتى يكون لها اى تاثير على هذه الجماعة الوقحة من المخلوقات . وطلبت من المترجم ان ينقل كلماتى الى بيولف ، الا انه اشاح بوجهه وترك القاعة وهو يقول لى هذه الكلمات الاخيرة « اعد نفسك كاحسن ما يكون الاعداد . سنغادر معهم مع اول ضوء الصباح » .

الفصل السادس

الرحلة الى البلد البعيد

بهذه الطريقة منعت من اتمام رحلتى الى مملكة بلطوار ملك الصقالبة ولم اتمكن من حمل امانة المقتدر امير المؤمنين وخليفة مدينة السلام . اعطيت كل ما استطعت من معلومات وتعليمات الى دادر الحرامى والى السفير ايضا عبد الله بن بسطو الحزارى ، والى الخادمين : تاقن وبارس . ثم ودعتهم ولم اعد ادرى بما جرى لهم بعد ذلك .

اما بالنسبة لى فقد اعتبرت نفسى فى حال ليست افضل من حال رجل ميت . وسرعان ما اصبحت على ظهر احدى السفن الشمالية المبحرة شمالا فى الفالجا مع اثنى عشر من جماعتهم اما اسماء الاخرين فكانت كالتالى : بيولف الزعيم وضابطه المرافق اكثغو ثم نبلاؤه ورجالاته هغلغ ، اسكلز ، وث ، رونث ، هلغا ، ثم مقاتلوه ومحاربوه الشجعان : هلفدان ، ادغثه ، رثل ، هلتف ، وهرغر(١) . وكنت انا بينهم ، غير قادر على التكلم بلغتهم او فهم طرقهم ، لان مترجمى كان قد ترك ايضا فلم يكن لى سوى الصدفة ورحمة الله التى جعلت من احد مقاتليهم ، وهو هرغر رجلا ذا معرفة ومحيطا ببعض اللغة اللاتينية .

وهكذا كنت استطيع ان افهم من هرغر معنى الحوادث التى تلت . كان هرغر محاربا شابا مرحا شديد المرح ، وكان يبدو وكانه يجد نكتة فى كل شىء ، وخاصة فى اساى وحزنى عند الرحيل .

هؤلاء الشماليون هم حسب تقديرهم افضل بحارة الدنيا ، ولقد رايت مدى حبهم للمحيطات والمياه يشع من ملامحهم . اما عن السفينة فهاكم وصفها : كان طولها قدر خمسة وعشرين خطوة وعرضها ثمانية واكثر من ذلك قليلا . كانت ممتازة البناء ومصنوعة من خشب البلوط . ربما كان لونها اسود من كل ناحية وفى كل جبهة . وكانت مجهزة بشراع مربع الشكل من القماش المزركش بحبال مصنوعة من جلد الفقمة(٢) . وكان موجه الاشرعة يقف على مصطبة صغيرة بجانب مؤخرة السفينة ويشد دفة متصلة بجانب

(١) يلاحظ هنا ان وولف غار قد بقى مع اهل الشمال ولم يعد مع بيولف . يعلق جنسن على ذلك قائلا بان اهل الشمال كانوا عادة ياخذون الرسول رهينة . ولهذا كان الرسل المناسبون ابناء ملوك او نبلاء عالى المقام او اشخاصا ذوى قيمة فى مجتمعهم ، مما كان يجعلهم رهائن مناسبين » . اما اولاف جركنسون فيدعى بان وولف غار ما بقى هناك الا خوفا من العودة معهم .

(٢) كان بعض المؤلفين القدامى يعتقدون بان هذا كان يعنى ان الشراع كان مزودا بحبل يدخل فى الشراع ويخرج منه على شكل الخياطة ، وهناك رسوم ولوحات من القرن الثانى عشر تظهر اشرعة الفايكنج وعليها زركشة من الحبال . ليس هناك من دليل على ان الحالة كانت كذلك . ما عناه ابن فضلان ان هذه الاشرعة كانت مطرزة بالمفهوم التوتى ، اى انها موجهة فى افضل زاوية لالتقاط الريح وذلك باستعمال حبال جلد الفقمة كروابط .

السفينة على الطريقة الرومانية . كانت هذه السفينة مزودة بالمجاذيف لكنها لم تستعمل ابدا ، ولكن كنا نتقدم بواسطة الاشرعة لوحدها . وعند مقدمة السفينة كان هناك نحت خشبي يمثل راس وحش بحرى رهيب ، كتلك التى نراها عادة على بعض سفن اهل الشمال . وكان هناك ايضا ذيل فى المؤخرة . وفى الماء كانت هذه السفينة قوية ثابتة والرحلة فيها ممتعة ، كما ان ثقة المحاربين بانفسهم قد رفعت من معنوياتى الى حد كبير .

وعند موجه السفينة كان هناك فراش من الجلود مرتبة فوق شبكة من الحبال وفوقه غطاء من الجلد ايضا . كان ذلك هو فراش بيولف ، اما المحاربون الاخرون فقد كانوا ينامون هنا وهناك على ظهر السفينة بعد أن كانوا يتلفعون بالجلود ، وقد فعلت انا مثلهم .

ابحرنا لمدة ثلاثة ايام فى النهر وقد اجتزنا الكثير من البلدان والمستوطنات الصغيرة على ضفتيه . لكننا لم نتوقف فى اى منها . ثم وصلنا الى معسكر كبير فى منعطف من نهر الفولجا . وهنا كان مئات من الناس ، كما كانت هناك مدينة كبيرة الحجم ، وفى مركزها كان هناك كنيسة (كرملن) وقلعة لها جدار من الطين وذات ابعاد كبيرة . سألت هرغر عن هذا المكان فقال لى : « هذه هى مدينة البلغار فى مملكة الصقالبة وذلك هو قصر يلطوار ملك الصقالبة » . اجبته « هذا هو الملك ذاته الذى أرسلت لاقابله كممثل لخليفتى » وبكثير من التوسلات طلبت ان انزل الى الشاطىء لاقوم بالمهمة التى كلفنى بها خليفتى ، كما طلبت ذلك ايضا وبكثير من مظاهر الغضب حتى درجة الوقاحة .

لكن رجال الشمال لم يعيرونى اى انتباه ، ولم يتنازل هرغر حتى للاجابة على تساؤلاتى ومطالبى ، واخيرا نظر الى ضاحكا بسخرية ثم عاد ووجه انتباهه الى اشرعة السفينة . وهكذا ابحرت سفينة الشماليين بجانب مدينة البلغار وقريبة من الشاطىء الى حد كنت اسمع فيه صياح التجار وثغاء الغنم ، ومع ذلك كنت بلا حول ولا قوة سوى مشاهدة ذلك المنظر بعينى . وبعد مرور ساعة حاولت مرة ثانية ولكن طلبى رفض ايضا ، اذ ان مدينة البلغار كانت على

منعطف من النهر كما قلت سابقا . وسرعان ما غابت عن ناظرى . وهكذا دخلت ثم غادرت بلغاريا (ربما اصبح القارىء الان مشوشا الى حد كبير حول جغرافية المنطقة . فبلغاريا الحديثة هى احدى دول البلقان ، تحدها اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا . ولكن من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك بلغاريا اخرى على ضفتى الفولجا وعلى بعد حوالى ستمائة ميل شرقى موسكو الحديثة . وذلك هو المكان الذى كان يقصده ابن فضلان . اما بلغاريا التى كانت على الفولجا فكانت مملكة مهلهلة رغم بعض الاهمية ، كما ان عاصمتها بلغار كانت شهيرة وغنية عندما احتلها المغول فى عام ١٢٣٧ م ويعتقد بأن بلغاريا الفولجا وبلغاريا البلقان كانتا مأهولتين بمجموعات عرقية متشابهة من المهاجرين الذين انطلقوا من مناطق حول البحر الاسود خلال الفترة ما بين ٤٠٠ - ٦٠٠ م . ولكن المعلومات عن هذا الموضوع قليلة نادرة . وتقع مدينة البلغار القديمة فى منطقة قازان الحديثة) .

مضى ثمانية ايام اخرى ونحن فى السفينة ومازلنا فى نهر الفولجا وكانت اليابسة اصبحت اكثر جبلية ووعورة حوالى حوض النهر . والان وصلنا الى رافد آخر من روافد النهر يسميه الشماليون نهر اوكر ، وهنا اتجهنا الى الرافد الواقع على اقصى اليسار ثم استمرينا فى رحلتنا عشرة ايام اخرى . كان الهواء باردا جدا وكانت الريح قوية وكان الكثير من الثلج ما يزال يغطى الارض. وكانت هناك غابات كثيرة هائلة الحجم فى هذه المنطقة التى يسميها الشماليون فادا .

وصلنا الى معسكر لاهل الشمال اسمه ماسبورنج . كان هذا اقل مما يمكن تسميته بلدة ولكنه معسكر من مجموعة قليلة من البيوت الخشبية مبنية بحجوم كبيرة على طريقة اهل الشمال . وتعيش هذه المدينة على بيع المواد الغذائية للتجار الذين يقصدونها عبر هذا الطريق . وفى ماسبورنج غادرنا سفينتنا وسافرنا برا على ظهر الخيول لمدة ثمانية عشر يوما . كانت هذه منطقة جبلية وعرة شديدة البرودة وكنت مرهقا بسبب طول الرحلة . وهؤلاء الشماليون لا يسافرون ليلا ابدا ، كما انهم نادرا ما يبحرون ليلا ؛ لكنهم يفضلون

ان يرسوا سفنهم فى كل مساء وينتظرون بزوغ فجر اليوم التالى قبل استئناف الرحيل .

الا انه رغم ذلك وقعت الواقعة التالية : خلال فترة ترحالنا تلاشت فترة الليل الى حد لم يعد يكفى لطبخ اكلة من اللحم خلاله . وقد كان يبدو لى اننى ما اكاد استلقى لانام حتى يوقظنى الشماليون قائلين « انهض لقد طلع النهار يجب ان نستأنف رحلتنا » . كما لم يكن النوم منشطا للقوى فى هذه الاماكن الباردة .

اوضح لى هرغر ان النهار فى بلاد الشمال يكون طويلا فى الصيف ويكون الليل طويلا فى الشتاء ، وانه نادرا ما يكونان متساويين . ثم قال لى انه على ان اراقب السماء ليلا لارى ستارة السماء اضواء شاحبة متراقصة خضراء وصفراء واحيانا زرقاء وهى معلقة وكانها ستارة فى اعالى الجو . وقد دهشت اعظم الدهشة لمنظر ستارة السماء ولكن اهل الشمال لا يعدونها شيئا غريبا .

ثم تابعنا السير لمدة خمسة ايام اخرى ونحن نهبط الجبال حتى وصلنا منطقة من الغابات . وغابات بلاد الشمال باردة كثيفة فيها اشجار ضخمة هائلة . كما انها ارض رطبة باردة . وفى بعض المناطق هى من الخضرة بحيث تتألم العينان من بهر الالوان ، اما فى مناطقها الاخرى فهى سوداء مظلمة مرعبة .

تابعنا السير لسبعة ايام اخرى خلال الغابات وقد واجهنا الكثير من المطر . وغالبا ماتكون طبيعة هذا المطر ان يسقط بغزارة تسبب الشعور بالخوف . وبين مرة واخرى كنت اظن اننى ساغرق ، فقد كان المطر غزيرا لحد كان فيه الهواء نفسه مملوءا بالمطر . وفى فترات اخرى ، حينما كانت الرياح تقذف المطر كان يبدو وكانه عاصفة رملية يقرص لحومنا ويحرق عيوننا ويعمى ابصارنا . (اما وان ابن فضلان قادم من منطقة صحراوية فلا عجب ان تبهره الوان الخضرة الساطعة والمطر الغزير)

الفصل السابع

لم يكن هؤلاء الشماليون يخافون اللصوص ابدا فى الغابات وسواء كان ذلك بسبب قوتهم الهائلة او ندرة عصابات اللصوص فاننى فى الواقع لم اشاهد احدا فى هذه الغابات . فسكان بلاد الشمال قليلون

من كل صنف او هكذا بدا لى خلال ترحالى هناك . وكنا غالبا ما نسافر لمدة سبعة ايام او عشرة دون ان نرى مستوطنة واحدة او مزرعة او منزلا .

استمرت رحلتنا على الوجه التالى : كنا نستيقظ فى الصباح ودون وضوء او غسل كنا نمتطى جيادنا ونستمر فى السفر حتى منتصف النهار . ثم كان بعض المحاربين يصطادون لنا صيدا حيوانا كان او طيرا . اذا كان الوقت ممطرا كان هذا الطعام يؤكل دون طبخ ... ولقد هطل المطر غزيرا لعدة ايام ، وفى اول الامر رضيت باكل اللحم نيئا ، والذى لم يكن ذبحا حلالا ، ولكننى بعد فترة اكلته ايضا وانا اقول « باسم الله » بصوت هامس ، وانا ادعو الله ان يتفهم مصابى . وعندما لم تكن تمطر ، كانوا يوقدون نارا فى منقل كانوا يحملونه معهم ثم يطبخون الطعام عليه . ولقد اكلنا انواع التوت والاعشاب التى لا اعرف اسمها . ثم استأنفنا رحيلنا فى الجزء الاخير من النهار والذى كان لا بأس بطوله ، وحتى هبوط الليل حين كنا نقف لنرتاح وناكل .

وكثيرا ما كانت تمطر فى الليل ، فكنا نبحث عن ملجأ تحت الاشجار الباسقة ، ومع ذلك فقد كنا ننهض مبللين وجلود نومنا مبللة ايضا . ولم يتشكك اهل الشمال من كل هذا بل كانوا مرحين مبتهجين طوال الوقت . كنت انا الوحيد الذى اشكو وبغضب . لكنهم لم يعيرونى اى اهتمام .

واخيرا قلت لهرغر : « المطر بارد » فضحك ثم قال : « كيف يمكن ان يكون المطر باردا ؟ انت البارد وانت التعيس . اما المطر فليس باردا ولا تعيسا » .

كان واضحا لى انه كان يؤمن بهذه الحماقة ، وكان يظننى حقا احمقا ان افكر بغير تفكيره ، ومع ذلك بقيت على تفكيرى .

ثم حدث فى ليلة من الليالى وبينما كنا ناكل ان قلت بادئا طعامى « باسم الله » ، فسأل بيولف هرغر عما قلت . اخبرت هرغر اننى اعتقد بانه يجب ذكر اسم الله على الطعام ، واننى فعلت ذلك انسجاما مع معتقداتى . فقال لى بيولف « اهذا هو اسلوب العرب ؟ » وكان هرغر هو المترجم .

فاجبت بما يلى : « كلا . فى الحقيقة ان الذى يذبح الذبيحة هو

الذي يجب ان يذكر اسم الله . ولكنني اقول هذه الكلمات لئلا انسى » .

وقد وجد الشماليون في هذا سببا للضحك فضحكوا من اعماق قلوبهم . ثم التفت الى بيولف قائلا « هل تستطيع ان ترسم الاصوات ؟ » لم افهم قصده اولا فاستفسرت من هرغر ، ثم كان هناك حديث تداوله الاثنان ، واخيرا فهمت انه كان يعني الكتابة . فاهل الشمال يسمون حديث العرب ضجيجا او اصواتا . اجبت بيولف انني استطيع الكتابة كما استطيع القراءة . قال انه علي ان اكتب له على الارض . وعلى ضوء نار المساء ، اخذت عصا وكتبت « الحمد لله » . نظر جميع الشماليين الى الكتابة ثم امرت ان اقول ما تعنيه ففعلت . وفجاة حدق بيولف في الكتابة لمدة طويلة وراسه غارق في صدره .

قال لي هرغر ، « اي اله هذا الذي تحمده ؟ » فاجبت بانني احمد الاله الذي اسمه الله .

فقال هرغر « اله واحد لا يكفي » .

استانفنا الرحيل ليوم آخر وقضينا ليلة اخرى ثم يوما آخر ، وفي مساء اليوم التالي تناول بيولف عصا ورسم على الارض ماكنت قد رسمته له وطلب الى ان اقراها . فقلت بصوت عال « الحمد لله » . ظهرت ملامح الرضا على وجه بيولف لهذا ، وقد وجدت انه كان يمتحنني وقد احتفظ في ذاكرته بالرموز التي رسمتها لكي يريني اياها مرة اخرى .

اما اكثغو وهو مرافق بيولف ، ولكنه محارب اقل مرحا من الاخرين شديد المراس ، فقد خاطبني بواسطة المترجم هرغر . قال هرغر « ان اكثغو يرغب ان يعرف ان كنت تستطيع أن ترسم صوت اسمه » .

فقلت انني استطيع ذلك ، واخذت عصا وبدات ارسم على القذارات . وفجاة قفز اكثغو واطاح بالعصا وداس على كتابتي وهو يردد كلمات غاضبة .

قال لي هرغر « لا يرغب اكثغو ان تكتب اسمه في اي ظرف كان . يجب ان تعد بذلك » .

وهنا انتابتني الحيرة . وقد رايت ان اكثغو كان غاضبا مني اشد الغضب . كما كان الاخرون يحدقون بي بقلق وغضب وعدت هرغر الا ارسم اسم اكثغو او اسم اي من الاخرين . عند هذا بدا الارتياح على وجوه الجميع .

لم يناقش بعد هذا موضوع كتابتي ابدا ، لكن بيولف ، وكلما كانت تمطر ، كان يأمر ان اساق الى شجرة كبيرة كما صار يقدم لي المزيد من الطعام عما كان قبلا .

لم تكن ننام دائما في الغابات كما لم تكن دائما نركب خيولنا عبرها . فعند اطراف بعض هذه الغابات كان بيولف ورفاقه المحاربون يندفعون الى الامام وجيادهم تعدو خلال الاشجار الكثيفة، دون اهتمام او احساس بالخوف . ومع ذلك فعند غابات اخرى كان يشد اللجام ويتوقف ، وكان المحاربون يترجلون ثم يحرقون نارا ويقدمون قرابين من الطعام وبعض ارغفة الخبز القاسي ، أو ربما يقدمون منديلا من القماش كقربان قبل ان يستانفوا السفر . ثم يمتطون جيادهم دائرين حول طرف الغابة دون ان يدخلوا الى اعماقها .

استفسرت من هرغر عن هذا ، فاجاب بان بعض هذه الغابات كانت آمنة وان بعضها لم يكن كذلك ، ولكن ايضاحه لم يتجاوز هذا الحد . فسالته « ما هو الذي غير امين في الغابات التي تعتبر كذلك ؟ » فاجابني بما يلي : « هناك اشياء لا يستطيع انسان ان يقهرها ولا يستطيع بسيف ان يقتلها ، ولا تستطيع نار ان تحرقها ، ومثل هذه الاشياء تعيش في الغابات » . قلت « وكيف تتم معرفة ذلك ؟ » . هنا ضحك وقال « انتم العرب ترغبون دائما ان تكون عندكم الاسباب لكل شيء . وقلوبكم كيس كبير مملوء بالاسباب » . فقلت « وانتم الا تهتمون بالاسباب ؟ » فقال « انها لا تجدي شيئا . نحن نقول يجب ان يكون الانسان حكيما باعتدال ولكن ليس مفرط الحكمة حتى لا يعرف قدره مسبقا . فالانسان الذي يكون عقله متحررا من الاهتمام والحرص لا يعرف قدره مسبقا » .

هنا قلت انه لابد لي من ان ارضى بجوابه . ففي الواقع في بعض المناسبات كنت اثير بعض التساؤلات وكان هرغر يجيب عليها .

وحين لم اكن افهم جوابه كنت الح فى الســـؤال وكان هو يفصل الجواب . ولكن فى بعض الاحيان حينما كنت اثير بعض التساؤلات كان يجيب باقتضاب كما لو كان سؤالى بلا معنى . وعندها لم اكن الح فى سؤالى ، اذ لم اكن اتلقى من جواب سوى هزة من راسه .

واستأنفنا الرحيل . واستطيع ان اقول بحق ان بعض الغابات فى بلاد الشمال العذراء كانت تثير احساسا بالخوف لم اكن ادرى له سببا . ففى الليل وبينما الشماليون متحلقون حول النار كانوا يقصون قصصا عن التنين والوحوش القاتلة ، ويحكون الحكايا ايضا عن اجدادهم الذين قتلوا هذه المخلوقات وكانوا يقولون ان هذه هى مصادر خوفى انا . ولكنهم كانوا يروون القصص دون اى مظاهر الخوف ، اما هذه الوحوش فلم ار اثرا لها بعينى .

فى احدى الليالى سمعت دمدمة حسبتها رعدا ولكنهم قالوا انها صوت عويل التنين فى الغابة . لست اعلم حقيقة هذا ولكنى ادون ماقيل لى .

بلاد الشمال باردة رطبة ، وقلما ترى الشمس فيها ، فالسماء رمادية تغطيها السحب الكثيفة طيلة النهار . والناس فى هذه المناطق شاحبو الوجوه وكأنها قماش قطنى ، اما شعورهم فشقراء شديدة الشقرة . بعد ايام عديدة من السفر لم اعد اشاهد اناسا سمرا على الاطلاق ، وفى الحقيقة كان سكان هذه المناطق يستغربون لون جلدى وشعرى الاسود . وكثيرا مااقترب منى مزارع او زوجته او ابنته ليلمسونى بشىء من الحذر والخوف . وكان هرغر يضحك ويقول انهم كانوا يحاولون ازالة لونى اعتقادا منهم باننى طليته على لحمى . انهم قوم جهلاء لا علم لهم بسعة هـذا العالم . وكثيرا ما خافونى وتحاشوا الاقتراب منى . وفى احد الاماكن الذى لا اذكر اسمه صاح طفل فى رعب قاتل وجرى ليتعلق بامه عندما رآنى .

عندها ضحك محاربو بيولف بفرحة طاغية . ولكنى لاحظت الان انه مع مرور الايام توقف محاربو بيولف عن الضحك ، واصيبوا بنوبة مزاج سيىء كانت تزداد يوما بعد يوم . وقد قال لى هرغر انهم كانوا يفكرون بالشراب الذى كنا قد حرمنا منه لايام عديدة .

وفى كل مزرعة او منزل كان بيولف ومحاربوه يسألون عن الشراب

الا ان هذه المناطق الفقيرة نادرا ماكان فيها شراب فكانوا يصابون بخيبة امل عظيمة ، حتى اختفى كل اثر للمرح على وجوههم .

الفصل الثامن

وبعد عناء طويل وصلنا قرية وجد فيها القاتلون الشراب فاذا كل رجال الشمال مخمورون فى رمشة عين وهم يشربون بطريقة صاخبة غير عابئين بالشراب الذى كان ينسكب على لحاهم وثيابهم وهم يشربون . وفى الحقيقة فان احد افراد المجموعة ، المحارب المتزن اكثغو غرق فى الشراب حتى سكر وهو لا يزال على حصانه وسقط وهو يحاول الترجل فرفسه الحصان فى راسه ، وخفت على سلامته ولكن اكثغو ضحك ورد رفسة الحصان برفسة مثلها .

بقينا فى هذه القرية طيلة يومين ، وقد دهشت لذلك لانه فى الماضى كان القاتلون يظهرون استعجالا كبيرا وجدية فى رحلتهم ، الا انهم هجروا كل ذلك الان مستسلمين الى الشراب والنوم العميق . وفى اليوم الثالث امر بيولف بأن نستأنف الرحيل فتحرك المحاربون وانا بينهم ، ولم يعدوا خسارة يومين بالشىء الغريب .

لم اعد متاكدا من عدد الايام التى قضيناها فى السفر ، الا اننى اذكر اننا غيرنا خيولنا خمس مرات بخيول جديدة ، وكنا ندفع ثمن هذه الخيول فى القرى ذهبا او اصدافا صغيرة خضراء قيمتها عندهم اثمن من اى شىء آخر فى هذا العالم . وبعد عناء طويل وصلنا الى قرية اسمها لنبرغ تقع على شاطىء البحر . كان البحر رماديا مغبرا ، وكذا السماء ، كما كان الهواء باردا قارسا . هنا ركبنا سفينة جديدة .

كانت هذه السفينة ذات مظهر شبيه بمظهر السفينة الاولى ولكن اكبر حجما وكان الشماليون يسمونها هسوغن ، اى عنزة البحر ، وذلك لان هذه السفينة كانت تشب على الامواج كما يشب ذكر الماعز على عنزته ، ولان هذه السفينة كانت سريعة ولان عند هؤلاء الناس كان الماعز هو الحيوان الذى يرمز الى السرعة .

كنت خائفا من ركوب هذا البحر ، فمياهه عاتية باردة شديدة

البرودة ، فاذا غطست يد انسان فى هذا البحر فانها تصاب بالخدر فى رمشة عين ، كان مخيفا باردا . ومع ذلك فقد كان الشماليون مرحين وقد تبادلوا النكات وشربوا طيلة المساء فى قرية لنبرغ البحرية ومتعوا انفسهم بكثير من النساء والاماء . وقد قيل لى ان هذه هى عادة اهل الشمال قبل القيام برحلة بحرية ، اذ لايعرف احد ان كان سيبقى حيا حتى آخرها ، وهكذا فانه ينزل الى البحر باقصى مايستطيع من المتعة .

فى كل مكان وصلناه كنا نستقبل بكرم لايعرف الحدود ، فالكرم عند هؤلاء القوم فضيلة كبرى حتى ان افقر الفلاحين كان يضع كل ماعنده امامنا ، يفعل ذلك دون خوف من ان نقتله او نسرقه ولكن بطيبة وكرم عال . ولقد علمت ان الشماليين لايتحملون ابدا اللصوص والقتلة بين قومهم ويعاملون مثل هؤلاء الناس بقسوة بالغة . وهم يعتقدون بهذا رغم حقيقة كونهم دائما مخمورين يثغون كالحيوانات البلهاء ويقتلون بعضهم البعض فى مبارزات حامية . ومع هذا فانهم لاينظرون الى هذه المبارزات على انها جريمة قتل ، اما من يقتل منهم رجلا فانه يقتل فورا .

وبنفس الطريقة يعاملون عبيدهم معاملة طيبة للغاية ، مما اثار عجبى . اذا مامرض احد العبيد او مات بسبب مصيبة ما ، فانهم لا يعدون ذلك خسارة كبيرة ، كما ان النساء الجوارى عليهن ان يكن دائما مستعدات للاستجابة لطلب اى رجل فى العلن او فى الخفاء وليلا ونهارا . ليس عندهم اى عواطف تجاه العبيد ، ومع ذلك فلا يعاملونهم بوحشية ايضا ، فاسيادهم يطعمونهم ويلبسونهم دائما(1) .

وفيما بعد علمت ان اى رجل يستطيع ان يتمتع باية جارية ، الا ان زوجة احط المزارعين تقابل بمزيد من الاحترام من قبل زعماء ونبلاء الشماليين كاحترام هؤلاء الزوجات بعضهم البعض . فمحاولة اغتصاب امراة حرة المولد ليست عبدة هى جريمة نكراء يحكم على الرجل بسببها بالشنق ، مع اننى لم ار هذا مطلقا .

(1) ماكتبه شهود عيان آخرون لا يتفق مع وصف ابن فضلان لمعاملة العبيد وللعلاقات الجنسية . ولذلك فان بعض المراجع تشك فى مصداقيته كمراقب اجتماعى . وفى الواقع ربما كان هناك اختلافات محلية كبيرة بين قبيلة واخرى فى اعراف معاملة العبيد والزوجات الزانيات .

ويقال ان العفة بين النساء هى فضيلة كبرى ، ولكننى قلما رايتها تمارس ، فالزنا لا يعتبر قضية خطيرة ، وان كانت زوجة اى رجل عالى المقام او خفيضه شهوانية فان نتائج ذلك لاتعتبر امرا ذا بال . فهؤلاء القوم متحررون جدا فى هذه القضايا ، ويقول رجال الشمال ان النساء ماكرات ولا يمكن الوثوق بهن . ويبدو انهم قد استسلموا لهذا الامر ويتحدثون عنه باسلوبهم المرح المعتاد .

سالت هرغر ان كان متزوجا فقال ان له زوجة . سالت بحذر بالغ ان كانت عفيفة فضحك فى وجهى وقال : « انا اسافر فوق البحار ، وقد لا اعود ، وقد اغيب سنوات طويلة . وزوجتى ليست ميتة » . من هذا ادركت انها لم تكن مخلصة ، ولكنه لم يابه لذلك. ولا ينظر اهل الشمال الى اى وليد على انه نغل او ابن زنا ان كانت الام زوجة . اما اطفال العبيد فهم احيانا عبيد واحيانا احرار ، ولا اعرف كيف يقرر هذا الامر .

فى بعض المناطق يعلم العبيد بعلامة هى قرط للاذن . وفى مقاطعات اخرى يرتدى العبيد عقدا من الحديد حول اعناقهم يحدد مكانتهم الاجتماعية . وفى بعض المناطق ايضا لايوجد على العبيد اى علامات تدل عليهم وتلك هى العادة المحلية .

والعلاقات الجنسية الشاذة ليست معروفة بينهم ، مع انهم يقولون بان اقواما اخرى تمارسها ، اما هم انفسهم فيدعون بانهم لا يهتمون بالامر ، وحيث ان مثل هذا لايحدث بينهم فليس عندهم عقاب له .

هذا وكثير غيره علمته من احاديثى مع هرغر ، ومن مشاهداتى لترحال جماعتنا . كما رايت ايضا ان كل مكان كنا نرتاح فيه كان الناس يسالون بيولف عن المهمة التى تطعها على نفسه . وعندما كانوا يخبرون بطبيعتها ـ والتى لم ادركها حتى الان ـ فانه ومحاربيه وانا من بينهم كنا نحاط باعظم الاحترام يرفعون صلاتهم دعاء بالتوفيق لنا ، كما يقدمون لنا اضحياتهم والحجب المحملة باطيب التمنيات .

وفى البحر ، كما قلت سابقا ، يصبح الشماليون فرحين طروبين ، رغم ان المحيط كان عاتيا صاخبا ورهيبا بالنسبة لى ، وايضا

بالنسبة لمعدتى ، التى كانت تصاب دائما بالغثيان والاضطراب . وفى الحقيقة افرغت معدتى مرة ثم سألت هرغر لم كان هو واصحابه فرحين الى هذا الحد .

قال هرغر « لأننا سنكون عما قريب فى بيت بيولف ؛ Yatlam المكان المعروف باسم يتلم ، حيث يعيش والده وامه وكل اقاربه ، والذين لم يرهم منذ زمن بعيد . » فقلت مجيبا « الن نذهب الى بلاد وولف غار ؟ » واجاب هرغر « نعم ، ولكنه من المناسب ان يتجه بيولف ليؤدى فروض الطاعة لوالده ولامه ايضا . » رايت فى وجوههم ان كل النبلاء الاخرين والمحاربين كانوا فرحين قدر ماكان بيولف نفسه كذلك . فسألت هرغر عن سبب ذلك فأجاب « بيولف رئيسنا ونحن سعيدون لسعادته وللقوة التى سيمتلكها عما قريب . » سألته عن القوة التى تحدث عنها فأجاب « انها قوة رندنغ » ، فسألت ايضا « وما هذه القوة ؟ » فأجاب قائلا « انها قوة الاجداد ، انها قوة المردة » .

يعتقد اقوام الشمال انه فى عصور خلت كان العالم ماهولا بعرق من الناس المردة الذين اختفوا منذ تلك الايام . ولا يعتبر الشماليون انفسهم احفادا لهؤلاء المردة ، ولكنهم ورثوا بعضا من قوى هؤلاء المردة الاقدمين ، وبطرق لا افهمها تماما كما يؤمن هؤلاء الوثنيون بآلهة عديدة ، والذين هم ايضا آلهة مردة ، ولهم ايضا قواهم الخارقة ؛ لكن المردة الذين تحدث عنهم هرغر كانوا رجالا مردة ، ولم يكونوا آلهة ، او هذا مايبدو لى على الاقل .

فى تلك الليلة رسونا عند شاطىء صخرى مؤلف من احجار بحجم قبضة الانسان ، وهناك عسكر بيولف مع رجاله وبقوا حتى الهزيع الاخير من الليل يشربون ويغنون حول النار . وقد اشترك هرغر فى الاحتفال ولم يكن عنده من الصبر مايكفى ليترجم لى معنى الاغانى ، ولهذا لم ادر ماذا غنوا ، لكنهم كانوا سعداء . ففى صبيحة اليوم التالى سيحلون فى دار بيولف ، فى موطن بيولف المسمى يتلم .

رحلنا قبيل طلوع الفجر ، وكان البرد من القسوة بحيث شعرت بعظامى تئن ، وكان جسمى يتألم من قساوة الشاطىء الصخرى . وكنا نسافر فوق بحر صاخب وفى رياح عاتية . ابحرنا طيلة الصباح،

وخلال هذه الفترة كان حماس الرجال يتزايد شيئا فشيئا حتى غدوا كالاطفال أو كالنساء . ولقد كان عجيبا غريبا على ان ارى هؤلاء المحاربين الاقوياء يقهقهون ويضحكون كحريم الخليفة ، ومع ذلك لم يجدوا فى ذلك مايؤذى رجولتهم .

كانت هناك نقطة على الشاطىء عبارة عن نتوء صخرى عال من الحجر الرمادى جاثم على البحر المغبر ، وقد اخبرنى هرغر بأن وراء هذه النقطة تقع بلدة يتلم . حاولت جهدى عبثا ان أرى بيت بيولف الاسطورى حين استدارت سفينة الشماليين حول الجرف . اما المحاربون فكانوا يضحكون ويزيد صياح ابتهاجهم ففهمت انهم كانوا يلقون نكات وقحة كثيرة عن خططهم للتمتع بالنساء عندما ينزلون من السفينة .

ثم كانت هناك رائحة دخان فوق البحر وبعد ذلك رأينا الدخان ، وفجأة صمت الجميع وكان على رءوسهم الطير . عندما التففنا حول تلك النقطة رايت بأم عينى ان تلك البلدة كان يغلفها لهيب خانق ودخان اسود معتم . ولم يكن هناك اى اثر للحياة .

نزل بيولف ورجاله من السفينة ومشوا عبر بلدة يتلم . كانت منثورة هنا وهناك جثث الرجال والنساء والاطفال . وقد التهم بعضها اللهب بينما قطع بعضها الاخر السيوف ــ اكوام واكوام من الجثث . لم ينطق بيولف ورجاله ببنت شفة ولكن حتى فى هذه الحالة لم يكن هناك اثر للحزن أو للبكاء او للالم لم ار فى حياتى قط قوما يتقبلون الموت كما يتقبله اهل الشمال . حتى انا نفسى اصبت بالغثيان مرات عديدة لمشاهد القتل والدمار ، ولكنهم لم يعانوا مثل هذه الحال ابدا .

واخيرا قلت لهرغر ، « من فعل هذا ؟ » اشار هرغر الى اعماق اليابسة ، الى الغابات والتلال المتباعدة عن المحيط المغبر . كانت هناك كتل من الضباب فوق الغابات اشار اليها هرغر دون ان ينطق بحرف . سألته « هل هى كتل الضباب ؟ » فقال « لا تسل اكثر من ذلك . ستطلع على الحقيقة بسرعة تفوق حتى رغبتك . »

والان حدث الاتى : دخل بيولف احد البيوت المدمرة التى كان يتصاعد منها الدخان ، ثم عاد الينا يحمل سيفا ضخما هائلا . كان

السيف من الضخامة والثقل ، والحرارة القوية التى تركتها فيه النيران ماجعله يحمله وقد لف حول مقبضه قطعة من القماش . وللحقيقة اقول كان ذلك اكبر سيف رايته فى حياتى . فقد كان بطول جسمه وكان حده مبسطا واسعا يشبه راحاتى رجلين وضعتا جنبا الى جنب . وكان كبيرا ضخما الى حد ناء تحت حمله حتى بيولف نفسه . سألت هرغر عن هذا السيف فقال « ذلك هو رندنغ » ، ثم امر بيولف بأن تتوجه كل الجماعة الى السفينة فانطلقنا فى عباب البحر ثانية . لم يلق أى من المحاربين نظرة وداع على المدينة المحترقة، « يتلم » ، انا وحدى فعلت ذلك فرايت الدمار يعلوه الدخان ورأيت كتل الضباب على التلال المحيطة فيما وراء ذلك .

الفصل التاسع

الاقامة فى ترلبرغ

على مدى يومين كاملين ابحرنا على طول شاطىء منبسط مابين جزر كثيرة تسمى ارض الدانز ، ثم وصلنا اخيرا الى منطقة من المستنقعات فيها معابر من انهر صغيرة تصب فى البحر . هذه الانهار لا اسم لها لكن كلا منها يسمى ويك او فيك ، واسماء اهالى مناطق هذه الانهار الضيقة هى الفايكنج او الوايكنج ، والتى تعنى بالنسبة لاهل الشمال المحاربين الذين يبحرون بسفنهم على طول هذه الانهار ويهاجمون المستوطنات بطريقة الفايكنج(١) .

فى هذه المناطق المستنقعية توقفنا فى مكان يسمونه ترلبرغ ، كان بالنسبة الى اعجوبة من العجائب . فلم تكن هناك بلده بالمعنى الصحيح ، ولكن كان هناك معسكر حربى ، واهله كانوا محاربين معهم القليل من النساء والاطفال . وكانت دفاعات معسكر ترلبرغ هذا تبنى بحرص ومهارة كبيرين على طراز البناء الرومانى .

(١) هناك بعض الجدل بين العلماء الحديثين حول أصل كلمة « فايكنج » ولكن معظمهم يوافقون ابن فضلان على رايه بانها مشتقة من كلمة فيك Vik والتى تعنى نهرا ضيقا صغيرا .

تقع ترلبرغ عند ملتقى نهرين يصبان بعد ذلك فى البحر . والجزء الاساسى من البلدة محاط بسور دائرى من الطين ويعلو خمسة رجال يقفون فوق بعضهم البعض . وفوق هذه الحلقة الطينية كان يقوم سياج خشبى يؤمن حماية اكبر . اما خارج هذه الحلقة الطينية فكان هناك حفرة مملوءة بالماء لم أعرف عمقها .

هذه المنشآت الترابية كانت مصنوعة بشكل ممتاز ، وفيها تناسق ونوعية من الجودة لايناف‍سها اى شيء اعرفه . وكان هناك ايضا مايلى : فى الجانب المحاذى لليابسة من البلدة كان هناك سور عال على شكل نصف دائرة وكان هناك حفرة ثانية وراءه .

اما المدينة نفسها فتقع ضمن اطار الحلقة الاولى التى يشقها اربعة ابواب ، بمواجهة زوايا الارض الاربع . وكل بوابة مجهزة بأبواب قوية من خشب البلوط لها مفاصل ثقيلة من الحديد ، ويحرسها رجال كثيرون . كما ان كثيرا من الحرس يتجولون فوق المتاريس والاسوار ، ويقومون بالحراسة والمراقبة ليل نهار .

هناك داخل اسوار البلدة ستة عشر منزلا خشبيا متشابهة تماما : كلها بيوت طويلة ، كما يدعوها اهل الشمال ، لها جدران منحنية بشكل يشبه القوارب المقلوبة وقد قطعت نهاياتها وبسطت فى المقدمة والمؤخرة . طولها ثلاثون خطوة وهى اكثر اتساعا فى جزئها الوسط منها فى النهايتين . وهى مرتبة على الوجه التالى : كل اربعة بيوت طويلة تقام بشكل محكم الترتيب بحيث تشكل مربعا . وهكذا ترتب اربع مربعات ليكون مجموعها ستة عشر بيتا(١) .

كل بيت طويل له مدخل واحد ، ولا يمكن أن يكون مدخل اى من البيوت على مرأى من البيت الاخر . سألت عن سبب ذلك ، فأجاب هرغر قائلا : « اذا هوجم المعسكر ، فيجب على الرجال ان يسرعوا الى مواقع الدفاع ، وتكون الابواب عادة وبهذا الشكل مرتبة بشكل يمكن الرجال من الاسراع الى مواقع دفاعهم دون اختلاط أو

(١) هناك من يؤكد صحة كلام ابن فضلان عن طريق الدليل الآثارى (الاركيولجى) ففى عام ١٩٤٨ تم التنقيب واكتشاف الموقع العسكرى لترلبرغ فى زيلندة الغربية فى الدانمرك .. والموقع يتطابق تماما مع وصف ابن فضلان لحجم وطبيعة وتركيب المستوطنة .

اضطراب ، بل على العكس يستطيع كل واحد منهم ان ينطلق بحرية وسرعة ليأخذ مواقعه في الدفاع .

وهكذا فانه ضمن المربع الواحد يكون باب احد البيوت متجهـــا الى الشمال ، والذي يليه الى الشرق ، والذي بعده الى الجنوب والرابع الى الغرب ، وهكذا ايضا هي الحال في كل من المربعـــات الاربع .

ثم انى رأيت انه في حين ان هؤلاء الشماليين كانوا ضخاما مردة ، فقد كانت هذه البوابات او المداخل منخفضة جدا كنت حتى انا اضطر معها لان انحني عند الدخول الى احد هذه البيوت فسألت هرغر عن سبب ذلك فأجابني « اذا ما هوجمنا يمكن ان يبقى محارب واحد داخل البيت . وبسيفه يستطيع قطع رءوس كل من يحاول دخول البيت . فالباب منخفض جدا بحيث يضطر اى داخل ان يرسل رأسه اولا فيتم قطعه . وفي الحقيقة وجدت ان ترلبرغ في كل مجالات الحياة كانت بلدة مصممة للحرب والدفاع . لم تكن تجرى اية تجارة هنا كما قلت سابقا . اما داخل البيوت الطويلة فهناك داخل كل بيت ثلاثة اقسام او غرف ولكل منهـــا باب . والغرفة الوسطى هي الاكبر وفيها حفرة لالقاء الزبالة .

ادركت الان بأن اهل ترلبرغ لم يكونوا كالشماليين المقيمين على نهر الفولجا . فهؤلاء كانوا قوما نظيفين بالنسبة لعرقهم . فقد كانوا يغتسلون في الانهار ، ويتخلصون من فضلاتهم خارج الابواب في العراء وكانوا في كل مجال اكثر تفوقا مما عرفته من قبل . ومع ذلك لم يكونوا نظيفين بكل معنى الكلمة اللهم الا من باب المقارنة .

اما مجتمع ترلبرغ فمعظمه من الرجال ، والنساء كلهن جوارى اذ ليس هناك من زوجات بين النساء ، كما ان كل النساء هناك يتم الاستمتاع بهن بحرية وحسب رغبة الرجال . ويعيش اهل ترلبرغ على السمك وبعض الخبز القليل ، وهم لا يقومون باية زراعة او فلاحة ، رغم ان الاراضي المستنقعية المحيطة بالبلدة تحوى منـــاطق ملائمة للزراعة . سألت هرغر لماذا ليس هناك زراعة فأجابني قائلا « هؤلاء محاربون . انهم لا يحرثون الارض » .

استقبل بيولف ورفاقه استقبالا رائعا من قبل زعماء ترلبرغ الذين كانوا عديدين ، والذين كان اكثرهم صدارة واحد يسمى ساغارد . وساغارد هذا رجل قوى عنيف وضخم ضخامة بيولف نفسه تقريبا .

وخلال وليمة المســـاء استفسر ساغارد من بيولف عن مهمته واسباب سفره فاخبره بيولف عن تضرعات ورجاءات وولف غار . وكان هرغر يترجم لي كل ما يقال رغم انى في الواقـــع كنت قد قضيت بين هؤلاء الوثنيين وقتا كافيا لاتعلم كلمة واحدة او اثنتين من لغتهم هاكم معنى الحديث الذي جرى بين ساغارد وبيولف . تحدث ساغارد فقال : « من المعقول والمنطقي بالنسبة لبيولف ان يقوم بمهمة الرسول ، رغم انه ابن الملك روث غار ، لان ابناء روث غار العديدين قد انقلبوا بعضهم على بعض » .

اجاب بيولف بانه لم يكن يعرف شيئا عن هـــذا او شيء بهذا المعنى ولكنى لاحظت بانه لم يكن شديد الدهشة لذلك . كان بيولف نادرا ما يصاب بالدهشـــة من اى شيء . فقـــد كان هـــذا من جملة متطلبات دوره كزعيم وقائد للمحاربين وبطل لهم .

تحدث ساغارد ثانية فقال « في الحقيقة سرث غار له خمســـة ابناء ، مات ثلاثة منهم على يدى واحد منهم هو وغلف المكار (١) الذي كان شريكه في المؤامرة منادى الملك العجوز . وولف غار وحده هو الذي بقي مخلصا وقد غادره الان » . اجاب بيولف ساغارد بانه كان سعيدا لان يسمع بهذه الاخبار وانه سوف يبقيها في ذاكرته ، وانتهى الحديث عند هذا الحد . ولم يظهر بيولف ولا اى من رجاله اية دهشة لكلمات ساغارد ، فهمت من هذا انه من المعتاد ان يتخلص ابناء الملك بعضهم من بعض ليصلوا الى العرش .

(١) الكلمة المستعملة هنا كانت حرفيا « رجل يجيد استعمال يديه الاثنتين » كما سيتضح فيما بعد كان الشماليون مزدوجي الايدى في الحرب . وكانت القدرة على نقل السلاح من يد الى اخرى تعتبر حيلة رائعة . وهكذا فان تعبير « يجيد استعمال يديه الاثنتين » يعنى انه رجل مكار او ماهر . وقد اعطيت كلمة زئبقي معنى مشابها . بينما تعنى الان « خداع مناور » . ولكن في السابق كان لها معنى اكثر ايجابية اى « صاحب موارد وفيرة » او « كثير المناورة » .

وصحيح ايضا انه من وقت لاخر قد يقتل الولد اباه الملك ليصل الى العرش ، ولا يعتبر أمرا غريبا اذ ينظر اليه الشماليون كما ينظرون الى اى شجار بين سكارى المحاربين . ويردد أهل الشمال مثلا شعبيا يقول « انظر خلفك » وهم يعتقدون بأن على كل انسان ان يكون مهيئا دائما لان يدافع عن نفسه ، حتى بالنسبة لوالد تجاه ولده .

عند رحيلنا سألت هرغر لماذا بنى تحصين آخر فى القسم الممتد صوب اليابسة من ترلبرغ ولم يبنوا تحصينا اضافيا كهذا باتجاه البحر . فهؤلاء الشماليون قوم جوابون للبحار بل ويهاجمون من البحر ، ومع ذلك أجاب هرغر قائلا « انها الارض ، انها اليابسة التى هى مصدر الخطر » . فسألته « ولماذا تكون الارض خطرة ؟ » فأجاب « بسبب كتل الضباب » .

الفصل العاشر

عند رحيلنا من ترلبرغ قام المحاربون المجتمعون هناك بضرب بلطاتهم على تروسهم مسببين بذلك ضجة كبيرة وكله من أجل سفينتنا التى كانت قد نشرت قلوعها . وقد اخبرت بانهم يفعلون ذلك لجر انتباه أودن ، أحد آلهتهم لكى يرعى اودن هذا بعطفه رحلة بيولف ورجاله الاثنى عشر .

ثم علمت هذا ايضا : وهو ان الرقم ١٣ هو رقم ذو اهمية كبرى بالنسبة لاهل الشمال ، لان القمر ينمو ثم يصبح هلالا ثم يموت ثلاث عشر مرة فى العام فى حسابهم . ولهذا السبب فان كل حساباتهم المهمة يجب ان تحوى على الرقم ١٣ . وهكذا اخبرنى هرغر بان عدد ساكنهم فى ترلبرغ كان ثلاثة عشر يضاف اليها ثلاثة اخرى بدل ان يقول ستة عشر كما عبرت عنها أنا من قبل .

واكثر من ذلك علمت أن لدى الشماليين عقيدة مفادها السنة لا تتفق تماما وبدقة مع ثلاثة عشر مرورا للقمر ، ولهذا فان الرقم ١٣ ليس ثابتا ومثبتا فى عقولهم فمروره الثالث عشر يسمى بالسحرى

او الاجنبى ، ويقول هرغر « ولهذا اخترناك رجلنا الثالث عشر باعتبارك رجلا أجنبيا » .

والحقيقة ان هؤلاء الشماليين قوم يؤمنون بالخرافات دون رجوع الى المنطق او العقل او القانون وكانوا يبدون لعينى وكأنهم اطفال متوحشون ، ومع هذا فقد كنت بينهم ولهذا سكت عن كل تعليق .

وسريعا ما اكتشفت لشدة سرورى مدى حصافتى فى هذا الامر ، لان الاحداث بدات تجرى على الشكل التالى : كنا قد ابحرنا لبعض الوقت مبتعدين عن ترلبرغ عندما استذكرت انه لم يحدث قط من قبل ان قدم سكان بلدة ما طقوس الرحيل بالضرب على التروس لاستدعاء اودن . تحدثت بهذا لهرغر فأجاب : « هذا صحيح فهناك سبب خاص للدعاء لاودن لاننا الان فوق بحر الوحوش » وقد بدا لى ذلك برهانا على ايماناتهم الخرافية . سألت عما اذا كان أى من المحاربين قد رأى مثل هذه الوحوش . فقال هرغر « فى الحقيقة لقد رأيناها جميعا . والا فكيف نعرفها ؟ » .

ومن نبرات صوته كنت استطيع أن أميز انه كان يعتبرنى احمقا لشكى فيما يقول .

ومر بعض الوقت قبل ان أسمع صياحا ثم ارى محاربى بيولف واقفين وهم يشيرون الى البحر يراقبون بامعان ويتصايحون فيما بينهم . سألت هرغر عما حصل ، فقال وهو يشير الى البحر « نحن بين الوحوش الان » .

كان المحيط فى هذه المنطقة هائجا هادرا ، والريح تعصف بقوة مرعبة ، محيلة أمواج البحر الى زبد أبيض تبصق الماء فى وجه البحار وتلعب حيل المخادعة لبصره . راقبت البحر عدة دقائق ولكننى لم أر منظر وحش البحر ، ولم يكن لدى اى سبب لتصديق ما قالوا .

وفجاة صاح احدهم وهو يدعو الى أودن ، يصرخ مصليا ويكرر الاسم مرات عديدة باستعطاف وتضرع ، وعندها فقط رأيت وحش البحر بعينى ، كان على شكل أفعى هائلة الحجم لم ترفع رأسها ابدا فوق سطح البحر ، ولكنى رأيت جسمه يتقلب ويتلوى ، وقد كان طويلا جدا اطول واعرض من سفينة الشماليين ، وكان لونه

اسود . بصق وحش البحر الماء فى الهواء وكانه ينبوع ثم اندفع نحو الاعماق رافعا ذيله الذى كان مشطورا الى شطرين وكانه لسان افعى ذو شعبتين . وكان هائلا ، حتى ان كل قسم من ذلك الذيل كان اعرض من اعرض واكبر اى من سعف النخيل .

ثم رايت وحشا آخر ثم آخر ثم آخر بعده ، يبدو انه كان هناك اربعة او ستة منها او سبعة ، وكل منها كان يتصرف كبقية اقرانه يتلوى فى الماء ويبصق نافورة ثم يرفع ذيله الهائل المشطور شطرين . وعند رؤيتهم له صاح الشماليون طالبين العون من اودن ، وركع عدد غير قليل منهم على ركبهم يرتجفون على ظهر السفينة .

ولقد رايت بعينى وحوش البحر فى كل مكان حولنا فى المحيط ، ثم بعد مرور بعض الوقت ذهبت جميعا ولم نرها مرة اخرى . واستانف محاربو بيولف جهدهم فى تسيير السفينة ، ولم يذكر اى منهم الوحوش ، ولكنى كنت مصابا بهلع شديد لمدة طويلة بعدها؛ وقال لى هرغر ان وجهى كان ابيض بياض وجه رجل من الشمال ثم ضحك وسألنى « ماذا يقول الله فى هذا ؟ » وهو سؤال لم استطع الاجابة عليه (١) .

فى المساء رسونا عند الشاطىء واشعلنا نارا ؛ ثم سالت هرغر عما اذا كانت وحوش البحر قد هاجمت سفينة فى البحر ، وان كان ذلك قد حدث فكيف تم ذلك ، لاننى لم استطع رؤية راس اى تلك الوحوش فأجابنى هرغر بمناداته على اكثغو ، والذى هو احد النبلاء ومرافق بيولف . كان اكثغو محاربا جادا وقورا لم يكن يظهر المرح الا حينما كان يسكر وقد قال هرغر انه كان على احدى السفن التى هوجمت . وقد قال لى اكثغو ان وحوش البحر اكبر من اى شىء على سطح اليابسة واكبر من اية سفينة فى البحر ، وهى حين تهاجم فانها تدخل تحت السفينة وترفعها فى الهواء ثم تقذفها

(١) هذا الوصف لنا هو دون شك رؤية الحيتان هو امر يشك فيه كثير من العلماء . ويظهر هذا الوصف فى مخطوطة الرازى كما اوردناه هنا ، ولكنه اقصر من ذلك بكثير فى ترجمة سوغرن ، والذى يبدو فيه الشماليون وكأنهم يدبرون مقلبا ونكتة واضحة يلعبونها على العربى . ولكن علماء آخرين ، يشكون ، فى أن يكون ابن فضلان غير مطلع او غير عالم بوجود الحيتان ، كما يبدو من وصفه هذا .

كقطعة من الخشب ثم تحطمها بلسانها المشعب . واضاف اكثغو بانه كان يوجد ثلاثون بحارا على سفينته ، ولكن لم ينج منهم الا اثنان بالاضافة اليه هو وما ذلك الا بعون الالهة ورحمتها . وقد تحدث اكثغو بطريقة طبيعيـــة جدا ، والذى كان بالنسبة اليه امرا بالغ الجدية ، وقد صدقت انه كان يقول الحقيقة .

كما اخبرنى اكثغو بان الشماليين يعرفون بان الوحوش تهاجم السفن لانها (اى الوحوش) ترغب فى الزواج بالســفينة ، اذ يظنونهـا احدى اناثهم . ولهـذا لايبنى الشماليون سفنهم بحجوم كبيرة .

كما قال لى هرغر بان اكثغو محارب عظيم مشهور بمعاركه ، كما يجب تصديقه فى كل شىء .

على مدى اليومين التاليين ابحرنا بين جزر بلاد الدان ، وفى اليوم الثالث عبرنا ممرا مائيا مفتوحا . وهنا كنت خائفا من رؤية وحوش بحرية اخرى ، لكننا لم نر شيئا من هـذا ، بل وصلنا فى آخر المطاف الى مقاطعة تسمى فندان . وبلاد فندان هذه جبلية وعرة مرعبة ، وقد تقدم رجال بيولف بالصلوات وبقربان كان عبارة عن دجاجة ذبحت والقيت فى اليم القى الراس من على مقدمة السفينة ، اما الجسد فقد القى من مؤخرتها بجانب مسير الدفة .

لم نرس مباشرة عند ارض فندان الجديدة هذه ، ولكنا ابحرنا على طول الساحل ، حتى وصلنا فى آخر الامر الى مملكة روث غار . هكذا رايتها اول مرة : كانت تجثم فوق جرف عال تطل على منظر البحر المزبد الهائج الكامد . كان هناك قاعة كبيرة هائلة مصنوعة من الخشب ، قوية مهيبة . قلت لهرغر انه كان منظرا رائعا لكن هرغر وكل رفاقه بقيادة بيولف كانوا يدمدمون ويهزون رءوسهم . سالت هرغر لم كانوا يفعلون ذلك . فاجاب « روث غار يدعى روث غار المختال ، وقاعته الكبرى هذه هى دليل او علامة رجل مغرور » فـالت : « لم تتحدث بهذا الشكل ؟ اهو بسبب حجمها وروعتها ؟ » اذ كلما اقتربنا كنت أرى بوضـــوح اكبر ان القاعة كانت غنية بالزخارف والتماثيل الفضية التى كانت تتلألأ من بعيد .

اجابنى هرغر قائلا « كل ما اقوله هو ان روث غار مغرور مختال

بسبب الطريقة التى اقام فيها مستوطنته فى هذا المكان . فهو يتحدى الآلهة ان تقدر على تحطيمه ، يدعى بانه اكثر من مجرد انسان وهو الان يعاقب على كل ذلك » .

لم ار فى حياتى قط قاعة عظيمة ملأى بكل ما هو رائع ونفيس كتلك القاعة فقلت لهرغر « هذه القاعة لا يمكن مهاجمتها ، اذ كيف يمكن تحطيم روث غار ؟ » ضحك هرغر ساخرا منى وقال : « انتم العرب اغبياء فوق كل تصور ، ولا تعرفون شيئا عن اسرار هذه الدنيا . ان روث غار يستحق الاسى الذى اصابه ونحن فقط الذين نستطيع انقاذه ، وحتى نحن ربما لن نستطيع » .

وقد زادت هذه الكلمات من دهشتى ، فالتفت الى اكثغو مرافق بيولف ووجدت انه كان يقف فى السفينة محـــاولا رسم معالم الشجاعة على وجهه ، ومع ذلك فقد كانت ركبتاه ترتجفان ، وقطعا لم تكن قساوة الريح هى التى جعلته يرتجف بهذا الشكل . لقد كان خائفا ، كانوا جميعا خائفين ولكن لم اعرف سبب خوفهم .

الفصـل الحادى عشر

مملكة روث غار فى بلاد الفندان

رست السفينة على الشـاطىء وقت صلاة العصر ، فاستغفرت الله لاننى لم اقم بالصلاة والدعاء . ومع ذلك لم يكن بامكانى ان افعل ذلك بحضور الشماليين ، الذين كانوا يظنون ان صلواتى لعنات عليهم وهددوا بقتلى ان انا صليت على مرأى منهم .

ارتدى كل مقاتل فى السـفينة دروع الحرب ، التى كانت على الشكل التالى : اولا الحذاء ثم طماق من الصوف الخشن ، وفوق هذا معطف من الفراء السميك كان يصل الى الركبتين . وفوق هذا وضـعوا دروعا كالمعاطف ، التى كان كل واحـد منهم يرتديها سواى . ثم اخذ كل منهم سيفه وعلقه فى حزامه ، ثم حملوا تروسا مصنوعة من الجلد ، ورمحا ، ثم ارتدى كل منهم خوذة من المعدن

او الجلد فوق راسه (١) وفى كل هذا كان كل المحاربين متساوين باستثناء بيولف ، الذى كان يحمل سيفه فى يده ، وكم كان سيفا ضخما هائلا :

نظر المحاربون عاليا باتجاه القاعة الكبرى للملك روث غار مظهرين اعجابا شديدا بالسقف المتالق ومهارة الصنع الفائقة ، واتفقوا على انه ليس كمثلها فى الكون ، بقببها العالية ونحوتها الفنية . ومع ذلك فلم يكن هناك اى احترام فى حديثهم عنها .

وبعد طول انتظار نزلنا من السفينة ، وغذينا السير على طريق مرصوف بالحجر حتى القـــاعة الكبرى . وقـد سببت قرقعة السيوف وتصـــادم التروس ضجة عالية . بعد ان اجتزنا بعض المسافة راينا على جانب الطريق راس ثور مقطوع ومعلقا على عصا . وكان واضحا ان الحيوان قد قتل حديثا .

تنهد الشماليون بعمق ورسموا علامات الكآبة على وجوههم لهذا المنظر الذى لم يكن يعنى شيئا بالنسبة لى . مع حلول هذا الوقت كنت قد تكيفت الى حد كبير مع عاداتهم فى قتل بعض الحيوانات عند اقل ثورة غضب او اثارة . ومع ذلك فان راس الثور هذا كان عندهم معنى خاص .

اشاح بيولف بوجهه بعيدا موجهـا بصره صــوب حقول اراضى روث غار ، وهناك راى بيتا ريفيا منعزلا من النوع المألوف فى اراضى روث غار . كانت جدران هذا البيت مصنوعة من الخشب ، وقد احكم اغلاق ثقوبها بعجينة مصنوعة من الطين والقش ، الذى كان يجب ان يجدد بعد هطول الامطار المتكرر . كما ان السقف مصنوع من مادة عازلة مضافة الى الخشب . اما داخل البيت فلم يكن هناك سوى ارض ترابية وموقد اضافة الى روث الحيوانات ، لان الفلاحين ينامون مع حيواناتهم داخل البيوت طلبا للدفء الذى تشعه اجساد

(١) يظهر الوصف الشائع للاسكندنافيين . يظهرهم وهم يرتدون خوذا ذوات قرون . هذه مفارقة تاريخية او عارض شاذ فى سياق التاريخ ، ففى زمن زيارة ابن فضـلان لم تكن مثل هذه الخوذات قد استعملت لمدة تزيد على الالف عام ، اى منذ العصر البرونزى الاول .

هذه الحيوانات ، ومن ثم يحرقون الروث لاشعال النيران .

امر بيولف بأن نتجه الى ذلك البيت الريفى ، فانطلقنا عبر الحقول التى كانت خضراء رغم انها كانت مشبعة بالرطوبة تحت أقدامنا . وفى اكثر من مرة توقفت الجماعة لتتفحص الارض قبيل استئناف المسير ، لكنهم لم يروا شيئا ذا قيمة بالنسبة لهم . اما انا شخصيا فلم ار شيئا مطلقا .

الا ان بيولف عاد فاوقف الجماعة واشار الى بقعة من الارض سوداء داكنة . وهناك رايت بعينى آثار اقدام عارية ــ اقدام كثيرة جدا . كانت اقداما مسطحة لم ار فى الخلق ما هو ابشع منها . فعند كل اصبع من اصابع القدم كنت ترى حفرة تدل على ظفر او مخلب كالفرن . وهكذا فقد كانت الاشكال تبدو بشرية ، ولكنها لم تكن بشرية ايضا . لقد رايت ذلك بعينين هاتين رغم اننى لم اكد اصدق ما كانت تراه عيناى .

هز بيولف ومحاربوه رءوسهم الما للمشهد ، ثم سمعتهم يكررون كلمة واحدة مرات ومرات : « وندول » او « وندلون » او كلمة قريبة من ذلك . لم ادرك معنى هذا الاسم ، ولكنى احسست بانه لا يجوز سؤال هرغر فى تلك اللحظة ، لانه كان جزعا جزع الاخرين كلهم . تابعنـــا السير باتجاه البيت الريفى ، وكنا نرى بين وقت وآخر آثارا جديدة لهذه الاقدام القرنية الاظفار على الارض . كان بيولف ومحاربوه يمشون ببطء ، ولكنه لم يكن بطئا مصدره الحذر اذ لم يستل احدهم سيفه ، الا انه كان نوعا من الخوف لم ادرك كنهه ، غير انى مع ذلك شعرت بما يشعرون .

واخيرا وصلنا الى المنزل الريفى ودخلناه . وفى داخل ذلك المنزل رايت ، ويا هول ما رايت !! رايت بعينى هذا المشهد الرهيب: كان هناك رجل فى مقتبل العمر متناسق الجسم رشـــيقه ، كان جسده قد مزق اربا اربا . كان الجذع فى مكان والذراع فى مكان والرجل فى مكان . وكان الدم مسكوبا فى برك سميكة على الارض وعلى الجدران وعلى السقف وعلى كل سطح داخل البيت بشكل بدا معه البيت وكانه طلى بالدم الاحمر . وكانت هناك ايضا امراة وقد قطعت ايضا بنفس الطريقة . وكان هنـــاك طفل ذكر عمره

ما يقارب العامين فصل راسه عن جسده وقد ترك الجسد كتلة دامية .

كل هذا رايته بعينى ، وكان ارهب منظر شاهدته فى حياتى . افرغت معدتى من الرهبة واغمى على قرابة ساعة او اكثر عدت بعدها لافرغ معدتى ثانية بصورة لا ارادية .

مهما عشت لن ادرك عقلية هؤلاء الشماليين ، لاننى حتى وانا مغمى على كانوا هم يزدادون هدوءا وتعقلا لمشهد هـذا الرعب . كانوا ينظرون لكل مايرونه بهدوء عجيب : ناقشوا آثار المخالب على اعضاء الاجساد الممزقة وطريقة تمزيق اللحم البشرى . كما وجهوا انتباها خاصا لكون جميع الرءوس كانت قد اختفت ، وايضا لاحظوا بانتباه اكثر المناظر بشاعة وشيطانية من كل ما راوا والذى حتى وانا اكتب عنه فى هذه اللحظة اشعر برعب شديد وهلع : كان جسد الطفل الذكر قد مضغ بانياب شيطانية رهيبة من ناحية اللحم الطرى على اعلى الفخذ ، كما مضغت بنفس الطريقة منطقة الكتف . لقد رايت هذا المنظر الرهيب بأم عينى .

بدت الرهبة والوقار على وجوه مقاتلى بيولف وكانوا يدمدمون غضبا وهم يغادرون البيت الريفى . كما استمروا فى توجيه انتباه شديد الى الارض الطرية حول البيت ، وقد لاحظوا انه لم تكن هناك آثار حوافر خيول . بدا وكان هذا امرا ذا اهمية كبرى بالنسبة اليهم . لكننى لم افهم السبب ، كما لم اعر ذلك اى اهتمام اذ كنت مازلت خائر القوى ضعيف القلب واهن الجسد .

وبينما نحن نعبر الحقول اكتشف اكثغو اكتشافا كان على شكل قطعة صغيرة من الحجر اصغر من قبضة طفل وكانت مصقولة ومنحوتة بطريقة فجة . تجمع المحاربون ليتمعنوا فيها وكنت انا بينهم . وجدت انه كان جذع انثى حامل . لم يكن له راس ولا ذراعان ولا ساقان ، بل الجذع فقط ببطن منتفخ كبير وفوقها ثديان منتفخان متدليان(١) . وكان هذا المخلوق فى رايى فجا قبيحا الى ابعد الحدود ولم يعن لى شيئا اكثر من ذلك . اما الشماليون فقد اصيبوا فجاة

(١) هذا التمثال الموصوف يتطابق الى حد كبير مع منحوتات عديدة اكتشفها علماء الآثار فى فرنسا والنمسا .

بصدمة جعلتهم يبدون شاحبين من الجبن والخوف ، وكانت ايديهم تهتز وهى تقترب لتلمس التمثال حتى القى به بيولف الى الارض اخيرا وحطمه بقبضة سيفه ، فانتثر على الارض قطعا متناثرة من الحجر . وبعدها اصيب عدد من المحاربين بالغثيان وافرغوا معداتهم اذ كان الهلع عظيما جدا بينهم دون ان افهم لذلك سببا .

انطلقنا جميعا باتجاه قاعة الملك روثغار . لم ينطق اى منهم بحرف طيلة الرحلة التى استغرقت قرابة ساعة ، فقد كان كل واحد من الشماليين يبدو وكانه متلفع بافكار مريرة استغرقت كل حواسه ، ومع ذلك فلم تبد عليهم اى من مظاهر الخوف .

واخيرا استقبلنا مناد من منادى الملك على ظهر حصان قاطعا علينا الطريق . اشار الى الاسلحة التى كنا نحملها والى ملامح جماعة بيولف ، ثم صاح بكلمات انذار .

خاطبنى هرغر قائلا : « انه يريد ان يعرف اسماءنا وبسرعة ايضا » . اجاب بيولف المنادى ، ومن لهجة حديثة ادركت ان بيولف لم يكن على مزاج يسمح بالاحاديث الودية . قال لى هرغر « اخبره بيولف باننا من رعايا الملك هغلغ ، من مملكة يتلم ، ونحن قد اتينا بمهمة من اجل الملك روثغار ونود ان نتحدث اليه شخصيا » ثم اضاف هرغر قائلا « يقول بيولف ان روثغار ملك عظيم » ، لكن لهجة هرغر كانت توحى بعكس ذلك .

رجانا هذا المنادى ان نستانف سيرنا الى القاعة الكبرى وننتظر هناك بينما يتجه هو لينبىء الملك بوصولنا . فعلنا ماطلب رغم ان بيولف ورجاله لم يكونوا مسرورين من هذه المعاملة ، بل كان هناك دمدمة وهمهمة وعدم رضى ، لان من عادة الشمالى أن يكون كريما مضيافا ولم يبد هذا التصرف مهذبا اذ ابقوا فى الخارج . ومع ذلك فقد انتظروا بعد أن خلعوا اسلحتهم وسيوفهم ورماحهم دون الدروع وتركوها جميعا خارج ابواب القاعة الكبرى .

الفصل الثانى عشر

كانت القاعة محاطة من كل الجوانب بمساكن متعددة على طريقة اهل الشمال . وكانت هذه البيوت طويلة محدبة الجوانب كما كانت

الحال فى ترلبرغ ، الا انها كانت مختلفة من حيث الترتيب فلم يكن هنا اى مربعات بين البيوت ، كما لم يكن هناك اى تحصينات او خنادق محفورة . وبدلا من ذلك كانت الارض بدءا من القاعة الكبرى والبيوت المحيطة بها تنحدر على شكل سهل اخضر منبسط طويل يتخلل هنا وهناك بيت ريفى او آخر ، ثم تاتى بعد ذلك وفيما وراء هذا السهل التلال واطراف الغابات .

استفسرت من هرغر عمن هم اصحاب هذه البيوت الطويلة ، فقال لى « بعضها يخص الملك ، وبعضها الاخر يخص العائلة المالكة ، وبعضها يخص النبلاء ، كما ان بعضها يقيم فيه الخدم وموظفو البلاط الادنى رتبة » . كما قال ايضا انه مكان صعب ولكنى لم ادرك ماكان يعنيه بهذا .

ثم اذن لنا بالدخول الى قاعة الملك روثغار الكبرى والتى وجدت حقا انها تعد من عجائب العالم الكبرى ، وما يزيد فى ذلك كونها واقعة فى بلاد الشمال العذراء . وقد كانت تسمى بين قوم روثغار باسم هاروت ، لان اهل الشمال يعطون اشياء حياتهم اسماء بشر كما يعطون هذه الاسماء للابنية والسفن وخاصة للاسلحة . وانى اقول بحق ان هاروت هذه ، اى قاعة روثغار العظيمة ، كانت بحجم قصر الخليفة كله ، ومطعمة بالفضة وحتى ببعض الذهب والذى هو معدن نادر جدا فى بلاد الشمال . وفى كل جانب منها كانت هناك رسومات وزينات كما تكون اروع الزينات والرسومات وروعة الفن . كانت فى الحقيقة نصبا يرمز الى قوة الملك روثغار وعظمته .

اما الملك روثغار هذا فقد جلس فى النهاية القصوى لقاعة هاروت، والتى كانت من السعة بحيث بدا الملك بعيدا الى حد لم نستطع ان نراه الا بصعوبة . وكان يقف عند كتفه الايمن نفس ذلك المنادى الذى اوقفنا . القى المنادى خطابا ترجمه لى هرغر على الشكل التالى :

« هاهنا ايها الملك عصبة من المحاربين جاءوا من مملكة يتلم . وقد وصلوا حديثا من البحر ، واما قائدهم فرجل يسمى بيولف . وهم يطلبون الاذن لهم بأن يحدثوك عن مهمتهم . ايها الملك لا تحرمهم من الدخول ، فلهم اخلاق النبلاء ومن ملامح زعيمهم ارى أنه مقاتل

شجاع . فعاملهم كنبلاء ايها الملك روثغار . » وهكذا طلب الينا الاقتراب من الملك .

بدا الملك روثغار رجلا يقترب بسرعة من الموت . لم يكن شابا ، بل كان شعره أبيض ناصع البياض وكان جلده شاحبا شديد الشحوب وكانت أخاديد وجهه يملؤها الاسى والخوف . نظر الينا نظرة ريبة وشك وهو يجعد عينيه او ربما انه كان اعمى او يكاد فلم استطع التاكد من ذلك . واخيرا بدا يلقى خطابا قال لى هرغر ان فحواه كالتالى : « انا اعرف من هو هذا الرجل ، لاننى ارسلت بطلبه ليقوم بمهمة بطل . انه بيولف وقد عرفته طفلا حين سافرت عبر البحار الى مملكة يتلم . انه ابن هفلغ الذى كان مضيفى الكريم وهذا هو ابنه يأتى الى الان ساعة الحاجة والالم . »

ثم دعا روثغار المحاربين للاجتماع فى القاعة الكبرى حيث قدمت الهدايا واقيمت الاحتفالات .

بعدها القى بيولف خطابا طويلا لم يترجمه هرغر لى ، اذ كان التحدث اثناء القاء بيولف خطابه يعتبر مظهرا من مظاهر قلة الاحترام . وعلى كل حال فقد كان المعنى كالاتى : وهو ان بيولف قد سمع بمشاكل روثغار ، وانه كان آسفا حزينا لهذه المشاكل ، وان مملكة ابيه هو قد هدمت بسبب هذه المشاكل نفسها ، وانه قد اتى الان لينقذ مملكة روثغار من الشياطين التى حلت بها فاقلقتها.

وحتى الان لم اكن قد عرفت ماذا يسمى هؤلاء الشماليون اولئك الشياطين ، او كيف ينظرون اليهم ، رغم انى رأيت افعال هؤلاء الوحوش الذين يقطعون الرجال اربا .

ثم تحدث الملك روثغار ثانية وبشىء من التردد . ادركت من طريقة حديثه انه كان يرغب فى ان يقول بعض كلماته قبل ان يصل محاربوه ونبلاؤه . هذا ماقاله وترجمه لى هرغر : « يابيولف ، لقد عرفت اباك يوم كنت انا نفسى رجلا شابا حديث العهد بالعرش . وانا الان عجوز كسير القلب منحنى الراس عيناى تبكيان خجلا وانا اعترف بضعفى . فكما ترى يكاد عرشى يكون بقعة جرداء ، واراضى اصبحت اماكن موحشة . ولست ادرى ماتضمره الشياطين لمملكتى. وغالبا مايقسم محاربى اثناء الليل وقد اثارت شجاعتهم الخمرة —

يقسمون بان يحطموا هذه الشياطين . الا انه ما ان تزحف اضواء الفجر المغبرة فوق الحقول الضبابية حتى نرى الاجساد الدماة فى كل مكان . ذلك هو مصدر الاسى فى حياتى ، ولن اتحدث عنه بعد هذا ابدا . » .

ثم اتى بطاولة خشبية كبيرة صفت عليها الوان الطعام ، بينما كنت اسال هرغر مامعنى كلمة « الشياطين » التى رددها الملك . غضب هرغر وهددنى بعنف ان انا سالته اى سؤال آخر .

فى ذلك المساء اقيمت حفلة كبرى تراسها الملك روثغار وملكته ويليو التى كانت ترتدى ثوبا يتلألأ بالاحجار الكريمة والذهب . تراس الملك والملكة احتفال النبلاء والمحاربين فى مملكة روثغار . هؤلاء المحاربون كانوا قوما تافهين حقيرين ، كانوا رجالا مسنين كثيرى الشراب ، كما ان الكثيرين منهم كانوا كسيحين او جرحى . وفى عينى كل منهم كانت تسكن نظرة خوف فارغة ، وكان هناك فراغ وعقم فى فرحتهم ايضا .

ثم كان هناك الابن المسمى وغلف ، الذى تحدثت عنه سابقا ، وهو ابن روثغار الذى قتل ثلاثة من اشقائه . كان هذا الشاب صغير السن رشيق القوام ذا لحية شقراء وعينين لم تكونا تستقران على شىء بل تقفزان باستمرار من شىء الى آخر ومن مكان الى آخر ، كما انه لم يكن لينظر الى احد ينظر فى وجهه ابدا . رآه هرغر فقال : « انه ثعلب » . وعنى بذلك انه زئبقى متغير متلون وداهية ماكر ، لان اهل الشمال يعتقدون ان الثعلب حيوان يستطيع ان يتخذ اى صورة يريد .

وفى منتصف هذه الاحتفالات ارسل روثغار مناديه الى ابواب قاعة هاروت ، فعاد هذا المنادى ليخبره بأن الضباب لن يحل فى ذلك المساء . فعمت الفرحة الكبيرة لدى سماع الخبر بأن المساء سيكون صافيا ، وسر الجميع الا وغلف .

وفى لحظة معينة نهض وغلف على قدميه وقال ، « انى اشرب نخب ضيوفنا ، وخاصة بيولف ، وهو المحارب الشجاع الحق الذى اتى لمؤازرتنا فى وقت المحنة — رغم انها قد تثبت انها معضلة

سيستحيل عليه حلها . » همس هرغر بهذه الكلمـــات فى اذنى ، فادركت انها كانت مديحا واهانة فى نفس الوقت .

التفتت كل العيون الى بيولف انتظارا لجوابه . وقف بيولف ونظر الى وغلف ثم قال « لست اخاف من اى شىء على الاطلاق ولا حتى من الشيطان الفر الذى يزحف ليلا ليقتل الناس اثناء نومهم . » ادركت من هذا انه يشير الى « الوندول » ، لكنى رايت وجه وغلف ينقلب شاحبا ويده تقبض بشدة على الكرسى الذى كان يجلس عليه.

« هل تقصدنى انا ؟ » صاح وغلف بلسان مرتجف . فأجاب بيولف بما يلى : « كلا ولكنى لا اخافك ابدا كما لا اخاف وحوش الضباب ».

واستطرد الشاب وغلف متحـــديا مع ان الملك روثغار دعاه للجلوس . خاطب وغلف كل النبلاء الحاضرين قائلا : « ان بيولف هذا ؛ والذى وصل الينا من شواطىء اجنبية بعيدة ، يملك كما هو واضح فخرا عظيما وقوة اعظم . الا اننى رتبت الامر لامتحـــان حماسه ، اذ كثيرا ما يعمى الصلف والخيلاء عينى اى انسان » .

فى هذه اللحظة رايت محاربا قويا كان يجلس الى الطاولة قرب الباب خلف بيولف ، رأيته ينهض بسرعة ليستل رمحه ويغرزه فى ظهر بيولف . حدث كل هذا فى اقل من الوقت اللازم لشهقة . التفت بيولف رافعا رمحه ثم غرزه فى صدر المقاتل رافعا اياه على سارية الرمح فوق راسه ثم ضربه بالحائط . وهكذا تســـمر المحارب فى الحائط بواسطة الرمح بينما قدماه تتدليان فوق الارض وهو يرفس بهما . كان قضيب الرمح مدفونا كله فى جدار قاعة هاروت ؛ وقد مات المحارب دون ان ينطق بحرف .

الفصـــل الثالث عشر

حدثت الان ضجة كبيرة حين التفت بيولف مواجها وغلف ثم قال « هكذا ساقضى على كل شر » ثم تحدث هرغر بصوت جهير موجهـا عدة اشارات الى . شعرت بالاضطراب بسبب هذه الاحداث ، وفى الحقيقة كانت عيناه مثبتتين على ذلك المحارب الميت المســمر الى الجدار . ثم التفت هرغر الى وقال باللاتينية « عليك ان تغنى اغنية

لبلاط الملك روثغار . فالكل يرغب فى ذلك . » سألته « وماذا اغنى؟ لست اعرف ولا اغنية . » فاجاب بما يلى « عليك ان تغنى شيئا يسر القلب . » ثم اضاف « لا تقل شيئا عن الهك الواحد ، فليس هنـــا من يهتم . » وفى الحقيقة لم اكن اعرف ماذا اغنى ، فلم اكن مغنيـــا فى حياتى . مضى وقت محرج بينما الكل يحدقون بى ثم عم القاعة صمت كامل . وهنا قال لى هرغر « غن اغنية ملوك وبطولات فى المعارك » . قلت اننى لا اعرف مثل هذه الاغنيات ولكنى استطيع ان احدثهم بقصة خرافية والتى كانت تعتبر فى بلادى مضحكة مسلية. قال انى احسنت الاختيار ، فاخبرتهم ـ الملك روثغار وملكته ويليو وابنه وغلف وكل النبلاء والمحاربين المجتمعين ـ بقصة حذاء ابى القاسم الطنبورى التى يعرفها الجميع . تحدثت بارتياح وكنت ابتسم طيلة الوقت ، وقد سر الشماليون فى بادىء الامر وضحكوا وضربوا على بطونهم . ولكن فجاة وقع مابلى . بينما كنت مستمرا فى حكايتى توقف الشماليون عن الضحك وانقلبوا بالتدريج الى حالة من البؤس والتجهم ، وما ان انهيت حكايتى حتى انقطع الضحك نهائيا وكان هناك صمت قاتل .

قال لى هرغر « ربما كنت لاتعرف ذلك ، ولكن هذه حكاية لا تدعو الى الضحك ، وعليك الان ان تصلح مايمكن اصلاحه » ، وبعدها تحدث حديثا اعتقد انه كان نكتة القيت على حسابى فسببت ضحكا بين الجميع وعاد الجميع يتمتعون بحفلتهم .

(قصة حذاء ابى القاسم قديمة فى الثقافة العربية وكانت معروفة لابن فضلان ولمواطنيه من اهل بغداد .

هذه القصة تروى باشكال مختلفة ، ويمكن سردها مقتضبة او مطولة حسب حماس الراوى . وهى باختصـــار تحكى حكاية ابى القاسم ، وهو تاجر غنى وبخيل يرغب بأن يخفى حقيقة غناه لكى يعقد صفقات اكبر وافضل فى تجارته . وليوحى بمظاهر الفقر ، فانه يرتدى زوجا من الاحذية قمىء بائس قديم املا بان يضـــلل الناس ، لكن حيلته مكشوفة ، اذ بدلا من ذلك يعتقد الناس حوله بانه سخيف وان تصرفاته منافية للعقل .

وفى احد الايام يعقد ابو القاسم صفقة رابحة فى تجارة الزجاج ،

فيقرر ان يحتفل ليس كما جرت العادة بدعوة أصدقائه الى حفلة كبيرة وانما بدعوة نفسه شخصيا الى ترف زيارة الى الحمام العمومي . يترك ثيابه وحذاءه فى الغرفة الخارجية ، فيعاتبه صديق له بارتدائه حذاء باليا غير مناسب لمقامه . يجيبه ابو القاسم بأن الحذاء مازال فيه روح ، ثم يدخل الحمام مع صديقه . وبعد قليل يصل قاض كبير الى الحمام ويخلع ثيابه تاركا وراءه حذاء فخما . فى تلك الاثناء يغادر ابو القاسم الحمام فلا يجد حذاءه القديم بل يجد مكانه حذاء جديدا جميلا ، وظنا منه بانه هدية من صديقه فينتعله ويغادر الحمام .

وحين يغادر القاضى الحمام يكتشف اختفاء حذائه ، ولا يجد سوى حذاء مهترىء بائس يعرف الجميع انه حذاء البخيل ابى القاسم . يغضب القاضى ، ويتوزع الخدم فى كل ارجاء بغداد بحثا عن الحذاء المفقود ، وسرعان مايجدونه فى قدمى اللص الذى يؤتى به الى المحكمة ليقف امام القاضى ويغرم غرامة باهظة .

ويندب ابو القاسم حظه ، وما ان يعود الى البيت حتى يلقى بحذائه المشئوم خارج النافذة حيث يسقط فى نهر دجلة الملىء بالطين . وبعد عدة ايام يخرج بعض الصيادين شباكهم فيجدون مع السمك حذاء ابى القاسم ، ويجدون ان مسامير الحذاء قد قطعت شباكهم فيقذفون الحذاء المشبع بالطين والماء بغضب باتجاه احدى النوافذ المفتوحة فيصادف ان تكون تلك النافذة نافذة ابى القاسم فيسقط الحذاء على الاوانى الزجاجية المشتراة حديثا ويحطمها جميعا .

ويتحطم قلب ابى القاسم ويحزن كما يحزن اى بخيل عفن . فيقسم يمينا بالا يصيبه الحذاء اللعين باى اذى بعد الان ، وللتأكد من ذلك ، يذهب الى حديقة ومعه مجرفة حيث يدفن الحذاء . ويحدث ان جار ابى القاسم يراه وهو يقوم بالحفر ، وهو عمل وضيع لا يليق الا بخادم . عندها يقول الجار لنفسه : ان كان صاحب البيت يقوم بهذا العمل القذر بنفسه فلابد ان يكون من اجل دفن كنز كبير . فيذهب الجار الى الخليفة ويقص على الخليفة قصة ابى القاسم ، اذ طبقا لقوانين البلاد فان اى كنز يكتشف فى البلاد فانه يصبح ملكا للخليفة .

يستدعى ابو القاسم الى حضرة الخليفة ، وحين يبلغ بانه لم يدفن الا زوجا من الاحذية البالية يضحك الحاشية مقهقهين لاكتشاف محاولة التاجر ان يخفى هدفه الحقيقى وغير الشرعى . يغضب الخليفة اذ يجرؤ احدهم على الظن بانه من الحمق بحد يمكن معه ان تنطلى عليه كذبة كهذه فيضاعف لهذا حجم الغرامة . ويصاب ابوالقاسم بصدمة شديدة حين يصدر الحكم ولكن لا مفر له من الدفع .

ويصمم ابو القاسم مرة اخرى على التخلص من حذائه مرة والى الابد . ولكى يتأكد من استحالة وقوع مشاكل جديدة فانه يقوم برحلة خارج المدينة ويلقى بالحذاء فى بركة بعيدة ويظل يراقبه حتى يغرق ثم يعود راضيا . ولكن تلك البركة تغذى قنوات الماء التى تشرب منها المدينة كلها واخيرا يسد الحذاء الانابيب . ويكتشف الحرس الذين يذهبون لازالة العائق – يكتشفون الحذاء ويميزونه بسهولة ، لان كل الناس الان صاروا يعرفون حذاء هذا البخيل سيىء السمعة . ويستدعى ابو القاسم مرة اخرى الى حضرة الخليفة بتهمة تلويث مياه المدينة وتكون غرامته هذه المرة اعظم من كل سابقاتها كما يعاد الحذاء اليه .

ثم يقرر ابو القاسم ان يحرق الحذاء ، وحيث انه مازال رطبا نديا فانه يضعه على الشرفة ليجف . فيراه كلب ويبدا باللعب به . وهنا تسقط احدى فردتى الحذاء من بين فكى الكلب الى الشارع تحته ، حيث تصيب امراة كانت تمر فى الشارع فى تلك اللحظة كانت المراة حاملا فسببت قوة اللطمة اجهاضها . يتوجه زوجها الى المحكمة ويطالب بالتعويض عن الاضرار ، فيحكم له بها وبسخاء ، ويجبر ابو القاسم الذى أصيب بالافلاس والدمار على الدفع .

ان ماتوحى به هذه القصة العربية هو مايستطيع الشرور ان توقعه بانسان ما لا يغير حذاءه فى الوقت المناسب الا انه لاشك ان هناك معنى ضمنيا اعمق بكثير فى هذه الحكاية : الا وهو فكرة الانسان الذى لايستطيع ان يثور على قدره وهذا هو ما أقلق الشماليون بالفعل)

وهكذا مضى الليل مابين مرح وطرب واحتفالات ، ومتع محاربو بيولف انفسهم بالنساء بطريقة اباحية مطلقة . وقد رأيت وغلف

الابن يحدق ببيولف قبل مغادرة القاعة ، لكن بيولف لم يعره اى اهتمام مفضلا الاستمتاع بالاماء والجوارى والاستمتاع بالنساء الحرات . وبعد وقت غلبنى النعاس فنمت .

وفى الصباح استيقظت على صوت المطارق ، وحين اطللت من قاعة هاروت الكبرى رأيت كل شعب مملكة روثغار يعملون بجد فى بناء الدفاعات . وقد كانت هذه الدفاعات تبنى بطريقة بدائية : كانت الخيول تجر اعدادا من اعمدة السياج التى كان المحاربون يقومون بتقليم رءوسها حتى تصبح مدببة . وكان بيولف نفسه يوجه اوامره بتحديد مواقع بناء الدفاعات وذلك بوضع علامات على الارض براس سيفه . لم يستعمل لهذا الغرض سيفه العظيم رندنغ، ولكنه استعمل سيفا آخر ، ولم ادر ان كان هناك سبب لهذا التصرف .

وعند منتصف النهار ، وصلت الحزبون المسماة بملاك الموت(1) والقت بالعظمات على الارض متمتمة تمتمات غامضة فوقها ، ثم اعلنت ان الضباب لابد آت فى ذلك المساء . ولدى سماع بيولف لهذا امر بايقاف كل اعمال البناء وبدا الاعداد لوليمة كبرى . وقد شارك الكل فى هذه المهمة بعد ان اوقفوا كل جهودهم الاخرى . سألت هرغر عن سبب اقامة تلك الوليمة ، فأجابنى باننى اسأل اسئلة كثيرة لا داعى لها . كان ذلك صحيحا كما كان صحيحا ايضا اننى اسأت اختيار الوقت لالقاء هذا السؤال لان هرغر كان فى تلك اللحظة يقف امام فتاة شقراء جميلة يغازلها بينما كانت تبتسم بحرارة وهى تنظر الى .

فى اواخر ذلك النهار ، استدعى بيولف اليه كل محاربيه وقال لهم ، « استعدوا للمعركة » وقد قبلوا المهمة وتمنوا الحظ السعيد لبعضهم البعض ، بينما كانت تجهز الوليمة الكبرى فى كل مكان حولنا .

(1) ملاك الموت هذه ليست هى نفسها التى كانت مع الشماليين على ضفاف الفولغا واضح ان لكل قبيلة امراة عجوزا تقوم بوظيفة التنبؤ واعمال السحر الاخرى . يطلق عليها اسم « ملاك الموت » . فالاسم على هذا هو اسم نوع او تعبير يدل على النوع .

الفصل الرابع عشر

كانت وليمة المساء كبيرة الشبه بوليمة الليلة السابقة ، رغم ان عددا اقل من نبلاء ووجهاء روثغار كان حاضرا . وفى الحقيقة علمت ان كثيرا من النبلاء لن يحضروا الوليمة خشية وتحاشيا لما كان سيقع فى قاعة هاروت تلك الليلة ، اذ بدا واضحا ان ذلك المكان كان مركز اهتمام الشيطان فى تلك المنطقة ، الذى كان يطمع بقاعة هاروت او بشىء شبيه آخر ـ ولكنى لم استطع ان اتأكد من المعنى.

لم تثرنى حفلة ذلك المساء بسبب خوض من الاحداث القادمة . وعلى كل حال فقد وقعت الحادثة الاتية . كان احد كبار النبلاء سنا يتكلم بعض اللاتينية ، كما كان يتكلم بعض اللهجات الاندلسية، لانه كان قد سافر الى بلاد خلافة قرطبة وهو شاب . تحدثت الى ذلك النبيل ، وفى تلك الظروف وجدت لزاما على ان ادعى معرفة لم اكن ادركها كما ستعرفون بعد قليل .

حدثنى النبيل فقال : « اذن فانت هو الاجنبى الذى سيكون رقم ١٣ ؟ » فأجبته باننى هو . فقال الرجل المسن « لابد وان تكون فائق الشجاعة ، واننى احييك احتراما لهذه الشجاعة » واجابة على هذا رددت باستجابة مهذبة بسيطة لشعورى بانى كنت جبانا بالمقارنة بالاخرين من رجال بيولف ، والذى كان هو الصحيح فى الواقع .

« هذا ليس مهما » قال النبيل الشيخ معلقا ، وقد اسكرته خمرة تلك المقاطعة ـ وهى مشروب قمىء يسمونه (ميد) ولكنه مشروب قوى ـ « ولكنك مع هذا رجل شجاع لمجابهتك الوندول ».

احسست الان اننى قد استطيع فى آخر المطاف ان اتعلم بعض الامور الهامة . اعدت على مسامع هذا الشيخ قولا من اقوال الشماليين كان هرغر قد قاله لى مرة ، قلت « الحيوانات تموت ، والاصدقاء يموتون ، وانا سأموت ، ولكن شيئا واحدا لن يموت ابدا ، الا وهى السمعة التى نخلفها وراءنا بعد موتنا » .

لدى سماعه هذا الكلام فوق الشيخ العجوز من فم خال من الاسنان ، فقد سره كثيرا ان يرى اننى كنت اعرف مثلا شعبيا

لايتمتع باى حماية من ناحية البر . وروثغار اليوم مسن هرم وهو يعلم علم اليقين بانه لن يذكر بمعارك خاضها او ربحها ، ولهذا بنى هذه القاعة الفخمة التى اصبحت حديث الدنيا باكملها وارضت غروره وخيلاءه . ان روث غار يتصرف كاله ، ولكنه انسان ولهذا بعثت الالهة بالضباب الاسود ليصعقه وليعلمه معنى التواضع » .

قلت لهذا الشيخ الهرم انه ربما كان اهل المملكة يكرهون روثغار. فاجاب قائلا : « ليس هناك من رجل فاضل الى حد الخلو من كل الشرور ، كما انه ليس هناك من رجل شرير الى حد لايساوى معه شيئا . ان روثغار ملك عادل ولقد ازدهر شعبه ابان حياته . وان حكمه وغنى حكمه هما هنا ، فى قاعة هاروت وهما حقا رائعان ، اما خطيئته الوحيدة فهى انه نسى ان يبنى دفاعاته لان عندنا قولا مفاده : « لايجوز لرجل ان يخطو خطوة واحدة بعيدا عن أسلحته .» وروثغار بلا سلاح وهو فاقد الاسنان ضعيف ولهذا يسرح الضباب الاسود ويمرح حرا فوق ارضنا » .

تمنيت لو يحدثنى باكثر من هذا ، لكن الشيخ الهرم سرعان ماشعر بالتعب وابتعد عنى ، ورايته يغفو بسرعة . واقول الحق بان طعام وشراب روثغار كان كثيرا بالغ الكرم ، وقد اصيب العديد من النبلاء والوجهاء بالنعاس لكثرة ما اكلوا وشربوا .

اما عن طاولة روثغار نفسه فاليكم مارايت عليها : كان كل رجل جالس اليها قد وضع امامه غطاء طاولة وصحن وملعقة وسكينا ، اما الوجبة فكانت لحم خنزير وماعز مطبوخ ، كما كان هناك بعض السمك ايضا ، لان الشماليين كانوا يفضلون اللحم المطبوخ على الشوى . وكان هناك الملفوف والبصل بكميات هائلة ، كما كان هناك تفاح وجوز . وقد اعطيت لى قطعة لحم محلاة دسمة لم اذقها من قبل . قيل لى انها لحم غزال .

الفصل الخامس عشر

اما الشراب الكريه المسمى (ميد) فانهم يصنعونه من العسل ثم يخمرونه . وهو اشد مادة صنعها انسان سوادا وحموضة وقذارة، ولكنها رغم كل ذلك مبعث قوة وعزيمة لاتعرف الحدود ، فما أن

يشرب الواحد بضع كئوس حتى يدور العالم به ويدوخ . ولكننى لم أشرب ولله الحمد .

وقد لاحظت الان ان بيولف ورفاقه لم يشربوا تلك الليلة وان شربوا فلماما ، ولم يعتبر روثغار ذلك اهانة له ، بل اعتبره منطق الامور الصحيح . لم يكن هناك اى ريح تلك الليلة حتى قناديل ومشاعل قاعة هاروت لم ترتعش ، ومع ذلك فقد كان المساء رطبا وقارس البرودة . ولقد رايت بام عينى ان الضباب خارج الابواب كان يتدحرج هابطا من على التلال فيحجب ضوء القمر الفضى ويجلل كل شيء بالسواد . وبينما كانت حفلة المساء مستمرة غادر الملك روثغار وملكته القاعة ليناما ، بينما اغلقت واوصدت ابواب قاعة هاروت بواسطة القضبان الحديدية اما النبلاء والوجهاء الذين بقوا هناك فقد سقطوا فى نوبة من النوم السكران وراحوا يشخرون بأصوات عالية .

اما بيولف ورجاله ، وكانوا لايزالون مرتدين دروعهم ، فقد راحوا يتجولون فى القاعة يصلحون من القناديل ويصلحون النار لكى تشتعل ببطء وبضعف . سالت هرغر عن معنى كل هذا ، فطلب الى ان اصلى وادعو لنجاتى ، وان اتظاهر بالنوم . ثم اعطيت سلاحا كان عبارة عن سيف قصير ولكنه لم يمنحنى من الراحة الا القليل ، فما كنت يوما محاربا وانا اعرف ذلك حق المعرفة .

وهكذا تظاهر كل الرجال بالنوم ، حتى بيولف ورجاله تمددوا بجانب اجساد نبلاء الملك النائمة والذين كانوا يشخرون بعمق . لا ادرى كم مضى علينا من الوقت ونحن ننتظر لاننى اعتقد أننى قد سهوت بعض الوقت . وفجأة استيقظت وانا بحالة من التنبه والفزع غير الطبيعيين . لم اكن نعسانا ولكنى كنت متنبها متوترا الى ابعد الحدود ، بينما كنت لاازال مضطجعا على القماش المصنوع من جلد الدب على أرض القاعة الكبيرة . كانت ليلة مظلمة حالكة السواد ، وكانت القناديل فى القاعة تحترق بضوء هزيل ، بينما كانت نسمة ناعمة خفيفة تهمس وهى تتسلل الى القاعة وتراقص اللهب الاصفر.

ثم سمعت صوت دمدمة خفيض وكانه عواء خنزير حملته الى النسمة ثم شممت رائحة كريهة مؤذية كانها رائحة جثة متعفنة مضى

على موتها شهر من الزمان ، وشعرت بالخوف الشديد . هـذا الصوت المدمدم المفزع ، ولا اجد له وصفا خيرا من هذا ، هـذا الصوت المهمهم المدمدم الشاخر بدأ يعلو شيئا فشيئا وبدأت تشتد ثورته . كان يأتي من خارج الابواب من احد جانبي القاعة . ثم اتى من الجانب الاخر ثم من الجانب الثالث ثم الرابع . وفي الواقع كانت القاعة مطوقة تطويقا كاملا . جلست متكئا على احد كوعي وقلبي يدق كمطرقة ، ثم نظرت في انحاء القاعة . لم يتحرك اي من المحاربين النائمين ، لكن كان هرغر مستلقيا بجانبي وعيناه مفتوحتان . ثم رأيت بيولف ايضا يتنفس بعمق متصنعا الشخير ، بينما عيناه مفتوحتان استنتجت من هذا كله ان كل مقاتلي بيولف كانوا بانتظار المعركة مع الوندول الذين كانت اصواتهم الان تملأ الجو في الخارج .

ليس هناك والله خوف اعظم من خوف الانسان حين لا يعرف السبب . ترى كم مضى علي وانا مستلق فوق جلد الدب اصغي الى همهمة الوندول واستنشق رائحتهم الكريهة ! وكم مضى علي انتظر ما لا اعرف ماهو : ربما بداية معركة اكثر ارهابا في الخيال مما هي عند النزال ! وهنا تذكرت مايلي : وهو ان اهل الشمال يرددون دائما قول المديح المأثور الذي يحفرونه على قبور نبلاء المحاربين ، والذي يقول « انه لم يهرب من معركة يوما » وفي الحقيقة لم يهرب تلك الليلة اي من رفاق بيولف رغم ان الاصوات والروائح العفنة كانت تحيط بهم من كل جانب ، ترتفع حينا وتنخفض حينا آخر ، وحينا تأتي من هذه الجهة وحينا من تلك . ورغم ذلك فقـد انتظروا وانتظروا .

ثم جاءت اشد اللحظات رعبا . توقفت كل الاصوات وساد صمت رهيب لم يكن يقطعه الا شخير الرجال وعصعصه النار الهامسة . وحتى الان لم يأت اي من رجال بيولف بأقل حركة .

وفجأة جاء صوت تحطم هائل على ابواب قاعة هاروت الصلب ثم انفتحت هذه الابواب وكأنها عاصفة . تبع ذلك دفقة من الهواء العفن اطفأ كل الانوار ثم دخل الضباب الاسود . لم استطع عدهم ، ولكنهم كانوا يبدون وكأنهم آلاف مؤلفة من اشكال سوداء مدمدمة ، ورغم ذلك فقد لايكونون اكثر من خمسة او ستة من اشكال سوداء

ضخمة لايكادون يشبهون الرجال ، ومع ذلك فقد كانوا اشباه رجال. وعبق الجو برائحة الدم والموت ، واحسست ببرد يذهب بالعقل وارتجفت . ورغم كل ذلك فلم يتحرك مقاتل واحد .

ثم وبصرخة تجمد الدم في العروق وكافية لايقاظ الموتى قفز بيولف واقفا وهو يلوح بذراعيه السيف الهائل رندنغ الذي كان يدوي كالسنة اللهب المتأججة وهو يقص الهواء . وقفز كل محاربيه معه وانضموا الى المعركة . واختلطت صيحات الرجال بهمهمات الخنازير وروائح الضباب الاسود ، وكان هناك رعب وفوضى وتخريب وتمزيق في كل مكان من القاعة الكبيرة .

اما فيما يتعلق بي فلم يكن لي رغبة في القتال ، ومع ذلك سقط على احد هذه الوحوش الضبابية الذي كان قريبا مني الى حد رأيت بريق عينيه الحمراوين ــ وفي الحقيقة رأيت عينين تشعان كالنار ، ثم شممت رائحة العفن ثم رفعت كلي في الهواء وطوح بي عبر القاعة ثم القيت كما يلقى طفل حصاة . ارتطمت بالجدار وسقطت على الارض ، ثم اصابتني غيبوبة لبضع لحظات تالية فبدا كل ما حولي مضطربا فوضويا اكثر مما كان حقيقة اراها . استمرت المعركة مدة لا اعرف طولها ولكنها انتهت فجأة وبرمشة عين ثم اختفى الضباب الاسود هكذا وانسل مبتعدا وهو يدمدم ويلهث تاركا وراءه روائحه الكريهة ومخلفا وراءه ايضا الدمار والموت الذي لم يستطع ان نحدد مداه حتى اضاءنا مشاعل جديدة .

واليكم وصفا لما جرى في المعركة : بالنسبة لجماعة بيولف فقد مات منهم ثلاثة ، وهم رونت وهلفا ، وهما نبيلان ، وادغثو وهو محارب . اما الاول فقد شطر صدره شطرين ، واما الثاني فقد كسر عموده الفقري اما الثالث فقد قطع راسه بالطريقة التي وصفتها سابقا . كل هؤلاء المحاربين اصبحوا الان موتى .

كما جرح اثنان آخران ، هما هلتف ورئل وقد فقد هلتف احدى اذنيه وفقد رئل اصبعين من كفه اليمنى . ولم تكن جراحهما خطيرة كما لم يعبرا عن اية شكوى او الم . لانه من عادة رجال الشمال ان يتحملوا آلام جراح المعارك بمرح ، وان يمجدوا فوق كل شيء بقاء الحياة .

اما بالنسبة لبيولف وهرغر والاخرين فقد كانوا غارقين بالدماء ، كما لو كانوا قد استحموا فيها .

اما الان فسأروى ما لن يصدقه الكثيرون . ومع هذا فقد وقع : لم تقتل جماعتنا ايا من وحوش الضباب اذ انسلوا جميعا هاربين وربما مجروحين جراحا بليغة ومع ذلك فقد هربوا جميعا .

هذا ماقاله هرغر : « لقد رايت اثنين منهم يحملان ثالثا كان ميتا » . ربما كان الامر كذلك لان الكل وافقوه عليه . وقد علمت بأن وحوش الضباب لا تترك ايا من افرادها لاقوام البشر وهم يفضلون ان يتعرضوا لمخاطر جسيمة مقابل ان يستعيدوه من ايدى البشر . كما انهم يرضون بتحمل المشاق الطويلة لكى يحتفظوا براس ضحيتهم ، ولذلك لم نجد راس ادغثو فى اى مكان فقد حمله الوحوش معهم .

ثم تحدث بيولف وترجم هرغر كلماته لى على النحو التالى : « انظروا لقد احتفظت بتذكار لامجاد الليلة الدامية . انظروا هاهى ذراع احد الشياطين » .

وتصديقا لكلماته رفع بيولف ذراع احد وحوش الضباب وقد بترت من الكتف بقوة ضربة السيف العظيم رندنغ . تجمع كل المحاربين حوله ليتفحصوا الذراع وقد تراءى لى على الشكل التالى : بدا صغيرا له كف كبيرة الحجم مما يفوق حدود الطبيعة الا ان العضد والساعد كانا صغيرين بشكل لا يتفق وحجم الكف رغم ان العضلات كانت قوية جدا . كما كان هناك شعر أسود طويل وكثيف فوق كل اجزاء الذراع ماعدا راحة الكف . بقى ان نقول ان الذراع كانت تفيض برائحة كتلك التى كانت تنطلق من جسم كل وحش . يضاف اليها رائحة عفن وحش الضباب الاسود .

عند ذلك حيى جميع المقاتلين بيولف وسيفه رندنغ وعلقت ذراع الشيطان من عارضة خشبية فى سقف القاعة الكبيرة . لينظر اليه بالدهشة والاستغراب كل سكان مملكة روثغار . وهكذا انتهت المعركة الاولى مع الوندول .

الفصل السادس عشر

الاحداث التى تلت المعركة الاولى

الحقيقة ان اهل بلاد الشمال لا يتصرفون ابدا كما يتصرف البشر العاقلون والمنطقيون . فبعد الهجوم الذى قامت به وحوش الضباب وبعد صدهم من قبل بيولف وجماعته ، وانا بينهم طبعا ، لم يفعل رجال مملكة روث غار اى شىء على الاطلاق .

لم يكن هناك اى احتفالات ولا ولائم ولا تظاهرات فرحة ولا تعبير عن السعادة . انما جاء شعب المملكة من قاصى الاصقاع ودانيها ليشاهدوا يد الشيطان المعلقة التى كانت تتدلى فى القاعة الكبرى ، وقد ابتهجوا لهذا المشهد بكثير من الاستغراب والتعجب . الا ان روث غار نفسه ، ذلك الرجل الشيخ نصف الاعمى ، لم يبد اى سرور كما لم يقدم لبيولف ورجاله اى هدايا ولم يقم لهم اية ولائم ، كما لم يقدم لهم اية اماء او عبيد ، ولم يقدم لهم الفضة او الثياب الثمينة ولم يقدم اى تعبير عن التقدير والاكرام .

بل خلافا لاى تعبير عن المسرة فان الملك روث غار اظهر تقززا واشمئزازا راسما على وجهه تعابير الجد ، كما كان يبدو اكثر خوفا مما كان فى الماضى . حتى انا نفسى ، وان لم اقل ذلك بصراحة ، كنت اشك بأن روث غار كان يفضل الحالة السابقة قبل ان يهزم الضباب الاسود .

حتى بيولف لم يكن حاله مختلفا عن هذا ، فلم يدع الى اى احتفالات او شراب او اقامة ولائم على الاطلاق . اما النبلاء الذين ماتوا ميتة الشجعان فى معركة الليلة الماضية فقد وضعوا سريعا فى حفر ذات سقوف خشبية فى اعلاها ، وتركوهم هناك لمدة عشرة الايام المقررة . وكان هناك تسرع فى هذه القضية .

ومع هذا لم يعبر بيولف ورفاقه عن سعادتهم الا حين بدءوا بوضع المقاتلين الموتى فى حفرهم فعندها فقط سمحوا لانفسهم بالابتسام . وبعد كل هذا الوقت الذى قضيته بين اهل الشمال

صرت ادرك انهم يبتسمون لاى ميتة فى ساحة المعركة اذ ان هـذه مسرة يعبرون عنها نيابة عن الشخص الميت وليس نيابة عن الاحياء . نهم يفرحون حينما يموت اى منهم ميتة المحاربين . وعكس ذلك صحيح ايضا بالنسبة اليهم : فهم يظهرون الالم والامتعاض حين يموت احدهم فى نومه او فى فراشه . فهم يقولون عن مثل هـذا الرجـل « انه مات ميتة بقرة بين القش » . وليست هـذه اهانة ولكنها السبب الذى يبدونه لرثاء الميت .

ويعتقد اهل الشمال ان كيفية موت انسان هى التى تحدد وضعه فى الحياة الاخرى « حياة الخلود » ، وهم يعتبرون موت المقاتل فى المعركة اسمى مراتب الموت . اما « ميتة القش » فهى ميتة مخجلة .

وحين يموت اى انسان منهم فى نومه فانهم يقولون عنه انه قد خنقه « الماران » ، اى كابوس الليل . هذا المخلوق ، اى كابوس الليل، هو امراة ، وهو الامر الذى يجعل مثل هذه الميتة عارا مخجلا ، اذ ان الموت على يدى امراة هو احط الامور عندهم على الاطلاق .

وهم يقولون ايضا ان الموت بلا سلاح مهين ، ولذلك ينام المقاتل الشمالى وسلاحه دائما معه ، حتى اذا اتى كابوس الليل يكون سلاحه فى متناول يده . ونادرا ما يموت مقاتل من مقاتليهم بسبب المرض او بسبب وهن الشيخوخة . وقد سمعت بملك اسمه آن ، عاش من العمر طويلا حتى اصبح كالطفل الرضيع مرة اخرى ، لا اسنان له ويعيش على طعام الاطفال ، حتى انه قضى بقية ايامه فى فراشه يشرب الحليب من قربة وعل . ولكن قيل لى ان هـذا نادر وغير عادى فى بلاد الشمال . ولقد رايت بام عينى عددا قليلا منهم فقط يعمر حتى سن الشيخوخة ، واعنى بذلك التعمير حتى بلوغ السن الذى لا تصبح اللحية فيه بيضاء فحسب بل ايضا تتساقط عن الذقن والوجه .

اما نساؤهم فكثيرات منهن يعشن حتى سن الشيخوخة خاصة تلك الحيزبون التى يدعونها ملاك الموت ، فانهم يعتقدون بان مثل هؤلاء النسوة يملكن قوى سحرية فى شفاء الجراح والقاء التعاويذ والرقية ، وفى ابعـاد الاثار الشريرة وفى التنبؤ عن احـداث المستقبل .

ونساء بلاد الشمال لا يتقاتلن فيما بينهن ابدا ، وكثيرا ما رايتهن يتدخلن لحل نزاع او مبارزة بين رجلين ويطفئن الغضب المتصاعد . هذا ما يفعلنه خاصة اذا كان المقاتلون قد اصيبوا بالخبل بسبب السكر الشديد ، فهذا ما يحدث فى العادة .

لكن هؤلاء الشـماليين الذين يفرطون بشرب المسكرات طيلة ساعات الليل والنهار لم يشربوا قطرة واحدة طيلة اليوم الذى تلا المعركة . ونادرا ما كان شعب روث غار يعرض على احدهم كاسا ، وان حصل هذا كانوا يرفضون الكاس . وقد وجدت هـذا مدعاة للاستغراب الشديد فحدثت هرغر عنه مستفسرا . هز هرغر كتفيه على الطريقة الشمالية فى التعبير عن اللامبالاة ثم قال « الكل خائفون » وحين سالت عن سبب الخوف قال لى ما يلى : « لانهم يعلمون حق العلم ان الضباب الاسود سيعود ثانية » .

وهنا اعترف باننى اصبت للحظـة بعدوى روح العداء التى تسيطر على المحاربين ، مع انى اعلم فى الواقع اننى لا استحق مثل هذه الهيئة . ولكن رغم ذلك شعرت بالطرب والفرحة الغامرة لكونى ما زلت على قيد الحياة ، ولان شعب روث غار يعاملنى باعتبارى واحدا من جماعة المحاربين الابطال . قلت بشجاعة « ومن يهاب مثل هذا ؟ اذا ما عادوا ثانية فسنهزمهم مرة اخرى » .

فى الحقيقة كنت مختالا مغرورا اختيال ديك حديث السن ، وانى اذ اتذكر ذلك الان احس بالخجل من مباهاتى السخيفة . اجاب هرغر : « ليس لمملكة روث غار مقاتلون او وجهاء يقاتلون : لقد ماتوا جميعا منـذ وقت بعيـد ، وعلينا نحن فقط ان ندافع عن المملكة . بالامس كنا ثلاثة عشر . اما اليوم فنحن عشرة ، ومن بين العشرة اثنان جريحان ولا يستطيعا ان يقـاتلا كرجلين كاملين . والضباب الاسود غاضب وسينتقم انتقاما رهيبا » . قلت لهرغر الذى كان قد اصيب ببعض الجروح الطفيفة اثناء المعركة ، والتى لم تكن شديدة شدة آثار المخالب على وجهى والتى كنت اتباهى بها ـ قلت له اننى لا اخاف شيئا يمكن لهـذه الشياطين ان تفعله . اجاب باقتضـاب اننى عربى واننى لا افهم شيئا من عادات بلاد الشمال . ثم اخبرنى بأن انتقام الضباب الاسود سيكون رهيبا

عميقا ، ثم اضاف « انهم سيعودون كالكورغن » . لم افهم معنى الكلمة فسألت « وماهو الكورغن ؟ » فقال لى « انه تنين الحباحب ، والتى تطير هابطة فى الجو » . الا ان هذا بدا لى خبالا محضا ، ولكنى كنت قد رأيت وحوش البحر كما وصفوا لى وحوشا تعيش بتلك الصفات ، رأيت وجه هرغر الممتقع والمجهد ، فاقتنعت بانه كان مقتنعا بوجود تنين الحباحب . سألت « ومتى يأتى الكورغن ؟ » . اجاب هرغر « ربما هذا المساء » .

وفى الحقيقة بينما كان هرغر يتكلم رأيت ان بيولف ، رغم انه لم ينم طيلة تلك الليلة ورغم ان عينيه كانتا محمرتين مثقلتين بالاجهاد ، كان يشرف من جديد على بناء الدفاعات حول سور هاروت والبنايات الملاصقة ، والتى تشكل منازل الملك روث غار وبعض نبلائه ، والاكواخ الوضيعة التى يعيش فيها عبيد هذه العائلات كما يعيش فيها بعض المزارعين الذين كانوا يعيشون اقرب ما يكون الى شاطىء البحر ، حول كل هذه المنطقة بنى بيولف نوعا من السياج من العصى المتصالبة وعواميد الخشب ذات الرءوس المدببة .. ولم يكن السياج اعلى من كتف رجل ، ورغم ان هذه الرءوس المدببة كانت حادة قاطعة مخيفة فاننى لم استطع ان ارى او اقتنع بفاعلية هذا الدفاع لان اى رجل يستطيع صعوده على سلم بسهولة .

حدثت هرغر عن هذا فاجاب باننى لست سوى غبى . وكان واضحا انه كان يعانى من مزاج سيىء للغاية .

ثم بنوا خط دفاع آخر ، كان عبارة عن خندق خارج سياج الاعمدة ، وعلى بعد خطوة ونصف من ذلك السياج . كان هذا الخندق غريبا حقا . فلم يكن عميقا ابدا بل هو لا يكاد يغمر رجلا الى ركبتيه واحيانا اقل عمقا . وقد تم حفره بشكل غير متناسق بحيث كان فى بعض الاماكن ضحلا للغاية وفى بعضها الاخر اكثر عمقا ، تتناوب حفر صغيرة . وفى بعض الاماكن غرزت بعض العصى القصيرة فى الارض ورءوسها المدببة الى اعلى .

الا اننى عجزت عن تفهم مغزى وقيمة هذا الخندق الردىء عجزى عن فهم السياج ، ولكننى لم اسأل ولم استفسر من هرغر ، لادراكى لما كان عليه فى تلك اللحظة من سوء المزاج . ولكن بدلا من ذلك

ساهمت فى أعمال البناء كأفضل ما استطيع المساهمة ، ولم اتوقف عن العمل الا مرة واحدة لامتع نفسى بجارية على الطريقة الشمالية ، اذ انى نتيجة اثارة الليل الماضية والمعركة التى تلت واستعدادات النهار احسست بنشوة وقوة عظيمتين .

الفصل السابع عشر

خلال ترحالى مع بيولف ومحاربيه على طول نهر الفولغا كان هرغر قد حدثنى بأن النساء غير المعروفات ، وبخاصة ان كن جذابات ومثيرات جنسيا ومغريات ، لا يجوز ان يوثق بهن . وقال لى هرغر ان فى اعماق الغابات والاماكن الموحشة من بلاد الشمال تعيش نساء يدعين نساء الغابات ونساء الغابات هؤلاء يغرين الرجال بجمالهن وكلماتهن المعسولة ، حتى اذا ما اقترب منهن الرجل ، وجدهن بلا مؤخرة ووجد انهن لسن سوى اشباح . ثم تقوم هؤلاء النساء باسقاط سحرهن ورقيهن على الرجل الذى اغرينه فيصبح اسيرهن .

الان وبعد ان حذرنى هرغر بهذا الشكل كنت حين اقترابى من هذه الجارية خائفا مترددا ، لاننى لم اكن اعرفها . لذلك فاول ما فعلت هو ان تحسست مؤخرتها بيدى فرايتها تضحك حتى غشيت لانها عرفت سبب تلمسى لقفاها ، والذى كان الرغبة فى ان اطمئن نفسى انها لم تكن روحا من ارواح الغابات . وكم شعرت باننى احمق سخيف فى تلك اللحظة ، وكم لعنت نفسى بتصديق خرافات الوثنيين . الا اننى اكتشفت مع مرور الزمن انه ان كان جميع من حولك يؤمنون بشىء ما فسرعان ما ستجد نفسك مدفوعا لان تشاركهم ذلك المعتقد ، وكان هذا ما حدث لى فعلا .

ونساء اهل الشمال نحيفات شاحبات كالرجال هنا ، وهن طويلات طول الرجال ايضا ، حتى ان الكثيرات منهن كن ينظرن الى اسفل ليرين رأسى . وللنساء عيون زرقاء وشعر طويل للغاية ولكن شعرهن ناعم سهل شبكه . ولهذا فهن يعقدنه على شكل حزمة حول اعناقهن وفوق رءوسهن . وتسهيلا لهذه العملية فقد صنعن لانفسهن انواعا

كثيرة من اللاقط والدبابيس مصنوعة من الخشب او الفضة المزخرفة . وهذا ما يشكل زينتهن الرئيسية . كما ان زوجة الرجل الغنى منهم ترتدى عقدا من الذهب او الفضة كما قدمت آنفا . والنساء مغرمات بأساور الفضة المطروقة على شكل تنين او افعى ، يرتدينها على سواعدهن ما بين الكوع والكتف وتصاميم اهل الشمال معقدة مضفورة ، كما لو كانوا يريدون تصوير تداخل اغصان الشجر او التفاف الافعى حول نفسها . وهذه التصاميم جميلة جدا .

ويعتبر اهل الشمال انفسهم حكماء حاذقين فى الحكم على جمال المراة . ولكن فى الواقع بدت كل نسائهم لعينى نحيلات هزيلات ، كل اجسادهن نتوءات وزوايا وكتل من العظم .. وحتى وجوههن ايضا كانت ناتئة العظام وخدودهن مرتفعة . هذه الصفات يقدرها الرجال الشماليون ويمتدحونها مع ان امراة فيها هذه المواصفات لن تجتذب ولو نظرة واحدة فى مدينة السلام وسينظر اليها على انها ليست افضل من كلب نصف جائع بارز الاضلاع . فنساء الشمال لهن اضلاع تبرز بنفس الطريقة .

لست ادرى لم النساء نحيفات الى هذا الحد ، فهن ياكلن بشراهة الرجال ، ومع ذلك فهن لا يكسبن لحما يغطى اجسادهن ابدا .

كما ان النساء لا يظهرن اى « حياء » او اى سلوك محتشم . فهن لا يتحجبن ، كما يخلصن اجسامهن من فضلاتها فى اماكن عامة كما تتطلب الحاجة . وبنفس الطريقة يندفعن نحو اى رجل يروق لخيالهن كما لو كن هن انفسهن رجالا . ولا يوبخهن المحاربون على ذلك ابدا . والحال هى نفسها حتى ولو كانت المراة جارية ، لانه كما قلت سابقا يتصرف رجال الشمال بعطف شديد ومحبة تجاه عبيدهم خاصة اذا كانوا نساء .

مع تقدم ذلك اليوم نحو نهايته رايت بشكل واضح ان دفاعات بيولف لن تكتمل مع حلول الظلام ، سواء السياج المصنوع من الاعمدة المصنوعة من اغصان الاشجار المدببة او الحفرة الضحلة . كما لاحظ بيولف ذلك ايضا نادى الملك روث غار والذى استدعى بدوره الحيزبون العجوز . هذه الحيزبون التى كانت هزيلة بالية

ولها لحية رجل قامت بذبح غنمة ونشر اوردتها على الارض . ثم قامت بترديد اغان عديدة استمرت مدة طويلة وتخللها الكثير من التضرع الى السماء (١) .

حتى الان لم اسال هرغر عن هذا بسبب مزاجه السيىء . وبدلا من ذلك رحت اراقب محاربى بيولف الذين كانوا ينظرون الى البحر . كان المحيط اغبر هائجا ، والسماء ملبدة بالغيوم ، الا ان نسمة قوية كانت تهب نحو اليابسة . وهذا ما اشعر المقاتلين بالراحة ، وقد حذرت السبب : وهو ان نسمة المحيط باتجاه اليابسة لابد وان تمنع الضباب من الهبوط من فوق التلال . وكان تخمينى صحيحا .

وعند هبوط الليل توقف العمل فى الاستحكامات والدفاعات ، ولشدة حيرتى ودهشتى اقام « روث غار » وليمة اخرى فخمة رائعة ، وفى هذا المساء وبينما انا اراقب ما يجرى راح بيولف وهرغر والمحاربون الاخرون يشربون الكثير من الميد ويمرحون ويمتعون انفسهم كما لو انهم كانوا لا يحسون باى من هموم الدنيا ، وتمتعوا كعادتهم بالاماء والجوارى ، ثم غرق الكل فى نوم رتيب عميق .

ولقد علمت ايضا ما يلى : وهو ان كلا من محاربى بيولف كان قد اختار من بين الاماء والجوارى واحدة كان يفضلها على غيرها ، رغم انه لم يكن يستثنى الاخريات . وقد حدثنى هرغر وهو مخمور منتش عن المراة التى كان يفضلها قائلا « انها ستموت معى اذا اقتضى الامر » . ومن هذا استنتجت ان كلا من محاربى بيولف قد اختار امراة ستموت من اجله فوق محرقة الدفن ، وان هذه المراة يعاملونها

(١) ان استعمال ابن فضلان لتعبير « اوردة » قد ادى لبعض الاخطاء عند الباحثين. فقد كتب ى . د . كريهم مثلا ان « الفايكنج كانوا يتنبئون بالمستقبل عن طريق طقوس تعتمد على اوردة الحيوانات ونشرها على الارض » وهذا بكل تاكيد راى خاطىء ، فالتعبير العربى عن تنظيف الحيوان هو « قطع الاوردة والشرايين » وابن فضلان هنا انما يشير الى ممارسة طقوس دينية عن طريق فحص الاوردة . واللغويون الذين يعالجون مثل هذه التعابير العامية المحلية طيلة الوقت مغرمون بتناقضات وتعارضات المعانى : والمثل المقابل لها السائد هو التعبير الانجليزى المستعمل فى التحذير « انتبه » والذى يعنى عادة على المرء ان يفعل العكس تماما وان ينطلق بحثا عن ملجأ او غطاء .

بمحبة واعزاز وتقدير اكثر من غيرها ، فهؤلاء المحـــاربون كانوا
ضيوف الملكة ، ولم يكن لهم فيها اماء يملكونهن ويمكن ان يؤمرن
بحكم القرابة ان يفعلن ما يامرونهن به .

الفصل الثامن عشر

خلال الفترة الاولى لاقـامتى بين قوم الفنـــدان كانت نساء الشـــمال يمتنعن عن الاقتراب منى بسبب سمرة جلدى وسواد شعرى ، ولكن كان هنـــاك همس كثير ونظرات كثيرة تتجه منهن صوبى ، ثم كانت هناك ضحكات وقهقهات بين احداهن والاخرى . وقد وجدت ان هؤلاء النسوة السافرات كن رغم سفورهن يجعلن من ايديهن حجابا يغطى وجوههن بين وقت وآخر خاصة عندما كن يضحكن . وهنا سالته هرغر : « لماذا يفعلن ذلك ؟ » لاننى لم اكن ارغب فى ان اتصرف بطريقة مخالفة لعادات الشماليين .

وقد اجاب هرغر بهذا الجواب : « تعتقد النســـاء ان العرب كالخيول الاصيلة ، فقد كان هذا ما سمعته يتردد اشاعة بينهن » . ولم يثر هذا استغرابى وذلك للسبب التالى : ففى كل البلاد التى تجولت فيها وحتى ضمن اسوار مدينة السلام الدائرية ، وفى كل مكان يتجمع فيه الناس ليشكلوا لانفسهم مجتمعا تعلمت ان الاشياء التالية هى حقائق صحيحة . اولا ، ان شعوب بلد ما تعتقد بان عاداتهـــا هى المناسبة وهى افضل من عادات اى من الشعوب الاخرى . ثانيا ، ان اى غريب ، رجلا كان او امراة ينظر اليه باعتباره اقل قيمـــة فى كل مجال ما عدا قضية النسل والتوالد . وهكذا فالاتراك يعتقدون بان الفرس عشـــاق موهوبون ، وينظر الفرس باحتقار الى البشر ذوى البشرة السوداء ، كذلك ينظر اليهم من قبل شعوب اخرى وهكذا .

ويستمر الامر كذلك ، احيانا بسبب يقوم حول حجم الاعضاء التناسلية واحيانا بسبب يعطى عن مدة الفعل الجنسى ، واحيـــانا اخرى بسبب مهارات واوضاع متعددة اثناء الممارسة الجنسية . لا استطيع التاكيد ان نساء الشمال يعتقدن بحق ما قاله هرغر ، ولكنى فى الواقع اكتشفت انهن كن شد مندهشات بسبب ختانى وهى عادة غير معروفة بين اهل الشمال لانهم كفرة قذرون . اما عن

ساعة الجماع او اللقاء ، فهؤلاء النساء صاخبات عنيفات ، تفوح منهن رائحة كان تضطرنى لان اخنق انفاسى طيلة فترة المجامعة . كما انهن معتادات على اعتلاء الرجل والتلوى والخدش والعض الى درجة تجد الرجل معها نفسه وقد اطيح به من فوق من هى تحته كما تتحدث رجال الشمال . اما فيما يتعلق بى ، فقد وجدت كل تلك الممارسة مصدر الم وعذاب اكثر مما هى متعة .

وتتحدث رجال الشمال عن هذا قائلين : « لقد وقعت معركة حامية بينى وبين هذه المراة او تلك » ويتفاخرون باظهار العلامات الزرقاء والاورام التى يصابون بها فى تلك المعارك لاصدقائهم او لرفاقهم كما لو كانت جروحا حقيقية فى معركة من المعارك . وعلى كل حال لم يكن الرجال ليؤذون اية امراة ابداء استطعت ان ارى آثاره .

فى هذه الليلة وبينما كان محاربو بولف يغطون فى سبات عميق ، كنت خائفا جدا من الشرب او من الضحك ، فقد كنت اخشى عودة الوندول . ومع هذا لم يعودوا ، ووجدت نفسى اخيرا اغفو ولكن بقلق .

وفى اليوم التالى لم تكن هناك اية ريح ، وعمل كل شعب مملكة « روث غار » بجد واخلاص وخوف . كان هناك حديث فى كل مكان عن «الكورغن» ، وعن حتمية عودتهم للهجوم اثناء الليل. كانت جراح مخالب الوندول على وجهى تؤلمنى ، فقد كانت تقرصنى وهى تتماثل الى الشفاء ، كما كانت تؤلمنى كلما حركت فمى لآكل او اتكلم . واقول الحق ان عزيمة المحارب قد هجرتنى . فقد اصبت بالخوف مرة اخرى ورحت اعمل بصمت جنبا الى جنب مع النساء والرجال .

حوالى الظهر زارنى النبيل المسن الادرد (ساقط الاسنان) الذى كنت قد تحـــدثت اليه فى قاعة الوليمة . تنحى بى جانبا وقال يحدثنى باللاتينية : « اريد ان اقول لك بضع كلمات » . ثم قادنى بضع خطوات بعيدا عن العمال والتحصينات .

بدا باظهار اهتمام كبير بفحص جروحى التى لم تكن فى الواقع خطيرة الى ذلك الحـــد ، وبينما كان يفحص تلك الجراح قال لى « اريدك ان تنقل تحذيرا وانذارا لجماعتك ، هناك ثورة وقلق فى قلب الملك روث غار » . قال لى هذا باللاتينية .

سألت « وما السبب ؟ » قال النبيل الشيخ « انه المنادى والابن وغلف ايضا الذى لا ينى – يهمس فى اذن الملك . ثم هناك صديق وغلف . فوغلف يكرر على مسامع روث غار ان بيولف ورفاقه يخططون لقتل الملك وحكم المملكة » .

« وهذا ليس صحيحا » قلت هـذا رغم اننى لم اكن اعرف الحقيقة . وبصدق كانت الفكرة تخطر على بالى من وقت لآخر ، فقد كان بيولف شابا قويا وكان روث غار هرما ضعيفا ، وفى حين كان صحيحا ان طرق وعادات الشماليين غريبة فانه صحيح وحقيقى ايضا ان كل الرجال متشابهون (فالانسان هو الانسان اينما كان) .

تابع النبيل الشيخ قائلا « المنادى ووغلف ينظران بحسد الى بيولف . وهما يسممان الجو بالهمس الدائم فى اذن الملك . اننى انما اخبرك بكل هذا لكى تخبر الاخرين لكى يكونوا على حذر ، فهى قضية تناسب زواحف الخوف القاتلة » ثم اعلن ان جروحى كانت بسيطة وغادرنى .

ثم عاد النبيل الى مرة اخرى وقال « ان صديق وغلف هو رانفر » ثم ابتعد ثانية دون ان ينظر الى مرة اخرى .

وبجد كبير رحت احفر واعمل فى بناء التحصينات حتى وجدت نفسى قرب هرغر ، كان مزاج هرغر ما زال كئيبا كما كان فى اليوم السابق . حيانى بهذه الكلمات : « لا اريد ان اسمع اسئلة مجنون » .

قلت له انه ليس لدى اية اسئلة اطرحها ، ثم حدثته بما اخبرنى به النبل الشيخ ، واضفت قائلا بانها قضية تلائم زواحف الخوف القاتلة (١) وعندما انهيت حديثى عبس هرغر واقسم اغلظ الايمان

---

(١) لا يصف ابن فضلان زواحف الخوف الاسطورية هذه Basilisk والذى يظهر فى المعتقدات مفترضا كما يبدو أن قراءه يعرفون هذا المخلوق الاسطورى . والباسلسك او زاحف الخوف ، والمعروف ايضا باسم كوكاترس Cokatrice هو عادة نوع من الديكة له ذنب افعى وثمانية ارجل . يحمل احيانا سلما بدل الريش . وما هو صحيح دائما عن الباسلسك او زاحف الخوف هو ان نظرته قاتلة . كنظرة الكورغون . كما ان سمه مميت للغاية وطبقا لبعض الحكايات فان اى شخص يطعن زاحف الخوف هـذا يستطيع اى يرى السم وهو يصعد سيفه ثم يدخل فى يده . وسيكون هذا الانسان مرغما فيما بعد على أن يقطع يده ذاتها لينقذ جسمه .

ربما كان شعور الخوف والخطر هذا من زاحف الخوف هو الذى يثير ذكره هنا . فالنبل الشيخ يخبر ابن فضلان بما معناه ان مجابهة مباشرة مع مسببى الاضطرابات لن تحل المشكلة . ومن المهم حقا ان تعلم ان احدى طرق التخلص من زاحف الخوف كانت فى تركه يرى خياله المعكوس فى مرآة ، فقد كان عندما يقتل بنظراته ذاتها .

وهو يضرب الارض بقدمه ثم طلب الى ان ارافقه الى بيولف .

كان بيولف يوجه سير العمل على الخندق فى الجانب الآخر عن المعسكر . تنحى هرغر به جانبا وحدثه بسرعة بلسان اهل الشمال مع اشـــارات تكررت باتجاهى انا . عبس بيولف بدوره واقسم الايمان وضرب الارض برجله كما فعل هرغر ، ثم سأل سؤالا . هنا سألنى هرغر قائلا « ان بيولف يسأل من هو صديق وغلف ؟ هل اخبرك الشيخ من هو صديق وغلف ؟ » .

اجبت بانه قد فعل وان هذا الصديق اسمه رنفر . عند سماعهما هذا الخبر استأنف بيولف وهرغر حديثهما وتجادلا لمدة قصيرة ثم ابتعد بيولف بعد أن تركنى مع هرغر . قال هرغر « لقد بت فى الامر » .

وسألت « وما الذى تقرر ؟ » اجاب هرغر « ابق على اسنانك مطبقة » وهو تعبير شمالى يعنى انه لا يجوز ان اتكلم .

وهكذا عدت الى عملى دون ان افهم شيئا عن هذه القضية اكثر مما كنت اعرف من قبل . ومرة اخرى صرت اشـعر بأن هؤلاء الشماليين هم اكثر الناس شذوذا وتناقضا على سطح البسيطة ، اذ انهم لا يتصرفون حول اية قضية من القضايا كما يتوقع من اناس عاقلين ان يفعلوا . ومع ذلك اســـتمريت بالعمل فى تحصيناتهم السخيفة وفى خندقهم الضحل ، ورحت اراقب وانتظر .

بعد صلاة عصر ذلك اليوم لاحظت بان هرغر قد اتخذ موقعا للعمل قريبا من شاب ضخم قوى . وراح هرغر وهذا الشاب يعملان جنبا الى جنب فى الحفرة لبعض الوقت . وقد بدا لطريقتى فى رؤية الاشياء انه هرغر كان يحاول جاهدا ان يقذف بالغبار فى وجه ذلك الشاب الذى كان فى الواقع اطول بحجم راس كامل من هرغر كما كان اصغر سنا ايضا .

احتج الشاب واعتذر هرغر ، الا انه سرعان ما عاد يقذف الغبار فى وجهـــه مرة اخرى . ومرةاخرى اعتذر هرغر ، الا ان الشاب غضب الان واصطبغ وجهه بالحمرة من الغضب . لم يمض سوى وقت قصير حتى عاود هرغر قذف الغبار ، فانتفض الشاب وبصق الغبار والتراب بغضب شديد . وصـــاح فى وجه هرغر بكلمات اخبرنى هرغر بها فيما بعد رغم ان المعانى كانت واضحة بما فيه الكفاية منذ البدء .

قال الشاب « انت تحفر كالكلب » .

اجاب هرغر قائلا : «او تدعونى كلبا ؟» على هذا اجاب الشاب قائلا: « كلا انما اقول بانك تحفر كالكلب وانت تنفض الغبار بلا انتباه كالحيوان تماما » . وقال هرغر : « او تدعونى اذن حيوانا ؟ » فأجاب الشاب « انت تخطىء فهم كلماتى » . وهنا قال هرغر « هذا صحيح فان كلماتك ملتوية محدودة كامراة شمطاء هزيلة » . صاح الشاب وهو يستل سيفه « هذه المراة ستذيقك طعم الموت » . وهنا استل هرغر سيفه ايضا ، فلم يكن ذلك الشاب الا رنفر نفسه ، صديق وغلف . وهنا وعلى هذا الشكل رايت نيات بيولف وقصده فى هذه القضية واضحة تماما .

هؤلاء الشماليون شديدو الحساسية فيما يتعلق بكرامتهم وتجرى فيما بينهم مبارزات عديدة بعدد مرات تبولهم ، كما ان معركة حتى الموت بهذا الصدد تعتبر امرا عاديا . وقد تقع هذه المعركة فى موقع الاهانة ، اما ان كان لابد من المنازلة بشكل رسمى فان المتبارزين يلتقون عند ملتقى طرق ثلاث . وعلى هذا النحو تحدى رنفر هرغر لمبارزته .

وعادة الشماليين فى هذا المجال تجرى على النحو التالى : فى الوقت المحدد يتجمع اصدقاء واقارب المتبارزين فى موقع المعركة ويقيمون حفرة سرية على الارض مغطاة بالجلد ، ويثبتون هذا الجلد بواسطة اربعة اعمدة من الغار . ويجب ان تجرى المعركة فوق هذا الجلد بحيث يضع كل من المتبارزين قدما او قدمين على الجلد طيلة الوقت وبهذا الشكل يبقى المتخاصمين قريبين من بعضهما طيلة الوقت . ثم يصل المتحاربان ومع كل منهما سيف وثلاثة تروس ، فان انكسرت التروس الثلاثة وجب عليه ان يحارب بلا حماية وتستمر المعركة حتى الموت .

هكذا كانت القوانين كما رتلتها الحيزبون الشمطاء ، اى ملاك الموت فى موقع الجلد المدود ، بينما كل جماعة بيولف واهل مملكة روث غار متجمعون حول المكان . وكنت انا هناك ايضا ولكننى لم

اكن قريبا جدا من المقدمة . ولقد تعجبت كثيرا كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينسوا خطر الكورغن الداهم والذى كان قد أرعبهم قبل ذلك الى حد الجزع . اما الان فلم يكن اى منهم يهتم باى شىء على الاطلاق سوى المبارزة .

وقد جرى النزال بين رنفر وهرغر على النحو التالى . ضرب هوغر ضربته الاولى فقد كان هو المتحدى ، ورن صوت سيفه هائلا مرعبا وقويا على ترس رنفر . انا شخصيا كنت خائفا على هرغر لان ذلك الشاب كان اضخم بكثير واقوى منه ، وفى الحقيقة قصمت ضربة رنفر الاولى ترس هرغر من عند المقبض ، فطلب هرغر ترسه الثانى . ثم استؤنفت المعركة مرة اخرى وبوحشية شديدة . نظرت مرة اخرى الى بيولف فلم ارى على ملامح وجه اى تعبير على الاطلاق ، ثم نظرت الى وغلف والمنادى على الجانب المقابل اللذين كانا ينظران بين حين وآخر الى بيولف بينما المعركة محتدمة .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدا حال هرغر بائسا باسا ما بعده هرغر شديد التعب والارهاق وقد علا وجّهه الاخر العرق والجهد ، بينما بدا الشاب رنفر مرتاحا هادئا وهو يقاتل بجهد بسيط .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدا حال هرغر بائسا باسا ما بعده باس ، او هكذا بدا لى للحظة عابرة . وقف هرغر وقدماه جامدتان على الارض وانحنى وهو يلهث مرهقا تعبا الى ابعد حدود التعب وهنا اختار رنفر هذه اللحظة ليطبق عليه . وفى لمح البصر تنحى هرغر جانبا وكانه رعشة جناح طير فانغرز سيف رنفر الشاب فى هواء الفراغ . وهنا رمى هرغر سيفه من يد الى اخرى ، فهؤلاء الشماليون يستطيعون ان يقاتلوا قتالا رائعا بكلتا اليدين وبنفس القوة . وبسرعة فائقة استدار هرغر وقطع راسى رنفر من مؤخرته بضربة واحدة من سيفه .

ولقد رايت بعينى الدم يتدفق من عنق رنفر بينما الراس يطير فى الهواء ويقع بين حشد الناس ، ثم رايته بعينى الراس يصطدم بالارض قبل أن يصطدم الجسد ايضا بالارض . هنا تنحى هرغر جانبا وعندها فقط ادركت ان المعركة لم تكن الا مهزلة ، فقد اتوقف هرغر عن اللهاث والنفخ والتعب ووقوف دون اشارة اجهاد ودون

ان يرتفع صوته وينخفض من اللهاث وكان يحمل سيفه بخفة ويبدو وكانه قادر على ان يقتل عشرة رجال آخرين من نفس النوع . ثم نظر الى وغلف وقال « كرم صديقك » وهو يقصد ان يعنى وغلف بأمر الدفن .

وبينما كنا نغادر موقع النزال قال لى هرغر انه كان يتصرف بجد ودهاء لكى يعرف وغلف ان رجال بيولف لم يكونوا فقط محاربين اقويا ء شجعانا ولكن مقاتلين دهاة ايضا . « سيزيد هذا من خوفه ولن يتجرا ان يقول شيئا ضدنا » . كان هذا آخر ما قاله هرغر فى ذلك الوقت .

ولقد شككت فى ان تعطى خطته هذا الاثر ، ولكن الحقيقة ان الشماليين يمتدحون المكر والدهاء وينظرون اليه باكبار اكثر مما ينظر اليه اكثر مقاتلى الهازار خداعا ومكرا ، بل اكثر من اكثر تجار البحرين كذبا والذين يشكل الدهاء بالنسبة اليهم نوعا من انواع الفن . فالذكاء فى المعركة والامور الرجولية تعتبر فضيلة اكبر من القوة المجردة فى عالم المقاتلين .

الا انه رغم ذلك كله لم يكن هرغر سعيدا ، كما انى لاحظت ان بيولف لم يكن سعيدا ايضا . وبينما كان المساء يقترب بدات بوادر الضباب تتجمع فوق التلال العالية . لقد اعتقدت انهم كانوا يفكرون برنفر الميت والذى كان شابا فتيا قويا شجاعا والذى كان من المكن ان يكون ذا فائدة عظيمة فى المعركة القادمة . لكن هرغر قال لى معلقا على ذلك : « ان الرجل الميت ليس مصدر نفع او فائدة لاى انسان » .

الفصل العشرون

هجوم تنين « الكورغن المضيء »

مع هبوط الظلام راح الضباب يزحف من على التلال ويلتف كالاصابع حول الاشجار وفوق الحقول الخضراء باتجاه قاعة هاروت ومحاربى بيولف الذين كانوا بانتظار الضباب . هنا حصل ارجاء

فى العمل ، فمن نبع ماء عذب حول الماء باتجاه الخندق وعندما فهمت مجمل الخطة ، اذ ان الماء اخفى العصى كما اخفى الحفر العميقة ، مما جعل الخندق شركا خادعا لاى غاز .

واضافة الى هذا فان نساء روث غار رحن ينقلن قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز من البئر ويغمرن السياج بمائها والمنازل وكل سطوح قاعة هاروت . وكذلك ايضا راح محاربو بيولف يصبون الماء على اجسادهم وثيابهم واسلحتهم من ماء النهر . وكان الليل رطبا باردا ، ولاعتقاد بان هذا كان طقسا من طقوسهم الوثنية اعتذرت عن ممارسته او قبوله ولكن عبثا : فقد غمرنى هرغر بالماء كالاخرين من قمة راسى حتى قدمى . فوقفت والماء يقطر من جسمى وانا ارتجف حتى انى فى الحقيقة صرخت لصدمة الماء البارد وطالبت بان اعرف السبب . فكان جواب هرغر « ان تنين ضوء الليل ينفث النار » .

ثم قدم لى كاسا من شراب الميد ليخفف من شعورى بالبرد فشربته جرعة واحدة وكنت سعيدا به . كان الليل مظلما هالك الظلمة وكان محاربو بيولف ينتظرون وصول التنين « كورغن » . كانت كل العيون تنظر باتجاه التلال وقد غابت فى ضباب الليل . الا بيولف نفسه الذى راح يقطع محيط التحصينات جيئة وذهابا وهو يحمل سيفه العظيم رندنغ ويتمتم بكلمات التشجيع التى كان يوجهها بصوت منخفض الى محاربيه . كانوا جميعا ينتظرون بهدوء باستثناء واحد منهم وهو الضابط اكثغو . واكثغو هذا هو معلم فى استعمال فاس اليد ، وقد اقام عمودا قويا من الخشب على مسافة قريبة منه . وراح يتدرب على رمى بلطة اليد هذه على العمود الخشبى مرات ومرات . وفى الحقيقة قدمت اليه كثير من البلطات او فئوس اليد حتى انى عددت خمسا او ستا كانت مربوطة الى حزامه العريض وكانت هناك بلطات اخرى فى يديه وكثير منها منثور على الارض حوله .

وكان هرغر يتدرب على قوسه وحسامه بنفس الطريقة ، وكذلك كان يفعل سكلد ، لان هؤلاء الثلاثة كانوا اكثر الرماة مهارة بين المحاربين الشماليين . كانت سهام الشماليين مزودة برءوس

حديدية . وهى ممتازة الصناعة قناها مستقيمة كحبل مشدود . وفى كل قرية او معسكر لهم هناك رجل غالبا مايكون كسيحا او اعرجا يسمى صانع السلاح يفصل السهام واقواسها ايضا لمحاربى منطقته ويدفع له مقابل هذه الحسنات ذهبا او صدفا او وكما رايت بام عينى طعاما ولحما(١) .

واقواس الشماليين تكاد تكون بطول اجسادهم ومصنوعة من قضبان شجر البتولا . اما اسلوب اطلاق السهام فهو كالتالى تشد قناة السهم حتى الاذن وليس حتى العين ومن هناك تترك لتنطلق ، وهى قوية لدرجة ان هذه القناة قد تمر بسهولة مخترقة جسم الانسان من طرف الى اخر دون ان تستقر فيه ، كما تستطيع هذه القناة ان تخترق صفيحة من الخشب بسماكة قبضة يد الانسان . ولقد رايت بعينى مثل هذه القوة فى سهم ، حتى انى حاولت ان اتقلد واستعجل احد اقواسهم ، ولكن عبثا لانه كان اطول واعصى من ان استطيع تدبير امره . والشماليون ايضا مهرة فى كل فنون الحرب والقتل باسلحتهم المختلفة التى يعتزون بها ايما اعتزاز . وهم يتحدثون عن اتساق الحرب ؛ والذى لا يعنى شيئا ابدا كترتيب الجنود مثلا لانه كل قتالهم ومعاركهم هى قتال رجل لاخر يكون عدوه . اما خطا القتال فيختلفان باختلاف السلاح المستعمل . فبالنسبة للسيوف العريضة التى يلوح بها دائما على شكل قوس ولا تستعمل ابدا فى الطعن فهم يقولون عنها : « هذا السيف يبحث عن خط الانفاس » والذى يعنى بالنسبة اليهم العنق وبالتالى تعنى هذه الجملة قطع الرءوس عن الاجساد . اما بالنسبة للرمح والسهم والبلطة والخنجر وادوات الطعن الاخرى فانهم يقولون عنها : « هذه

---

(١) واضح أن هذا المقطع هو مصدر التعليق الذى نشره عام ١٨٦٩ العالم الاب نويل هارل ، والذى يقول فيه « انه بين الفايكنج البرابرة كانت القيم الاخلاقية معكوسة مقلوبة الى حد من التضاد كانت تبدو معه مفاهيم الصدقات على أنها واجبات أو صدقات تدفع لصانعى الاسلحة » وقد تجاوز تأكيد هارل الفيكتورى حدود معرفته اللغوية . فالكلمة الشمالية Alm وهى تعنى Elm ، وهو الخشب الطرى الذى يصنع منه الاسكندنافيون أقواسهم ورماحهم ؛ وبمحض الصدفة كان لهذه الكلمة معنى فى اللغة الانجليزية أيضا . « فالكلمة الانجليزية Alms والتى تعنى الهبات الخيرية هى كلمة يعتقد عادة بأنها مشتقة من الكلمة اليونانية Eleos ومعناها يشفق على .

الاسلحة تبحث عن الخط الدسم . »(١) بهذه الكلمات هم يقصدون الجزء المركزى من الجسد بدءا من الراس وحتى الاربية او اصل الفخذ فالجرح فى هذا الخط المركزى يعنى بالنسبة اليهم الموت المحقق لعددهم . ويعتقدون ايضا انه من الاولى ان تطعن المعدة لطراوتها من ان يطعن الصدر او الراس .

وفى الحقيقة استمر بيولف وجماعته بالمراقبة اليقظة طيلة تلك الليلة ، وكنت انا بين الساهرين . ولقد عانيت الكثير من التعب والاجهاد وفى هذا النفير وسرعان ماشعرت بتعب شديد كما لو انى خضت معركة حامية ، الا ان معركة من هذا النوع لم تقع ابدا . اما الشماليون فلم يكونوا متعبين ولكنهم كانوا متاهبين مستعدين فى كل لحظة . صحيح انهم اعظم الناس حيوية ويقظة على سطح البسيطة دائمو الاستعداد لاية معركة او خطر داهم ، كما انهم

---

(١) Linea Adeaps : تعنى حرفيا ـ الخط أو الخيط الدسم ـ مع ان الحكمة التشريحية فى هذا المقطع لم يشك فيها يوما جندى خلال الالف سنة التى مضت على هذا الكلام ـ لان خط الوسط فى الجسم هو المكان الذى تتجمع فيه أكثر الاعصاب والاوعية حيوية فى كل الجسم ـ فان الاشتقاق الدقيق لهذا التعبير كان غامضا . وفى هذا المجال من المفيد أن نبين أن احدى السير الايسلندية تتحدث عن محارب مجروح عام ١٠٣٠ م يسحب سهما من صدره ويرى قطعا من لحمه معلقة على رأسه . عندما يقول انه ما زال لديه بعض الدسم أو الدهن حول قلبه . ويتفق معظم العلماء على أن هذا تعليق ساخر من المحارب الذى كان يدرك تماما أنه كان قد جرح جرحا قاتلا ، وهو ما يعطينا حسا تشريحيا رائعا .

فى عام ١٨٧٤ اشار المؤرخ الامريكى روبرت ميلر الى هذه الفقرة من مخطوطة ابن فضلان حين قال . « رغم أن الفايكنج . هم محاربون قساة فان اطلاعهم على العلوم التشريحية ضئيل محدود . فقد كان يطلب من محاربيهم أن يبحثوا عن خط الوسط العمودى فى جسم الخصم . ولكنهم عندما كانوا يفعلون ذلك بالضبط كانوا يخطئون القلب الذى موضعه فى يسار الصدر » .

وحقيقة القول ان ضآلة المعرفة والاطلاع هى من صفات ميلر نفسه لا من صفات الفايكنج .. فعلى امتداد مئات السنين العديدة الماضية كان الغربيون العاديون يعتقدون دائما بان موقع القلب هو على يسار الصدر ، والامريكيون يضعون أيديهم على قلوبهم عندما يقسمون يمين الولاء للعلم .

والحقيقة هى ان القلب هو بناء من أبنية خط الوسط فى الجسد ، وهو البناء الذى يمتد بدرجات متفاوتة الى يسار الصدر ، الا أن جرحا فى خط الوسط فى الصدر لابد وان يخترق القلب دائما .

لايشعرون بالتعب ابدا من استمرارية هذا الوضع والذى هو امر طبيعى بالنسبة لهم منذ ولادتهم . فهم فى كل الاوقات منتبهـون يقظون .

بعد مرور بعض الوقت غفوت ولكن سرعان ما احسست بهرغر يوقظنى بعنف : شعرت بهزة شديدة وبصفير قرب راسى ، وعندما فتحت عينى رايت سهما يهتز ويصطدم بالخشب على مسافة عرض شعرة من انفى . كان هذا سهما اطلقه هرغر الذى راح هو والاخرون يضحكون طربا لحالة الهلع التى اصابتنى . ثم قال لى « اذا نمت فستتغيب عن المعركة . » فقلت مجيبا بان هذا لن يكون مأســاة كبيرة طبقا لطريقة تفكيرى .

استعاد هرغر رمحه وحين راى اننى كنت غاضبا لمزاحه الخشن جلس بجانبى وراح يحدثنى بطريقة ودية صادقة . وقد كان هرغر هذه الليلة ذا مزاج واضح الرغبة للتنكيت والضحك والسخرية . شاطرنى قدحا من شراب الميد ثم حدثنى قائلا « ان سكلد مسحور » ثم ضحك لهذا طويلا .

لم يكن سكلد بعيدا عنا فناداه هرغر بصوت عال وعندها ادركت انه كان يفترض بسكلد ان يكون قد سمع ماقلناه عنه ، الا ان هرغر حدثنى باللاتينية التى لم يكن سكلد يفهمها ، لهذا ربما كان هناك سبب اخر لم اكن اعرفه . فى هذه المرة راح سكلد يبرى رءوس سهامه منتظرا المعركة . وهنا سالت هرغر : « وكيف هو مسحور ؟ » فقال هرغر مجيبا « ان لم يكن مسحورا فانه ربما بدا ينقلب عربيا ، لانه بدا يغسل ثيابه الداخلية ويغسل جسده كل يوم الم تلاحظ هـذا بنفسك ؟ » اجبت باننى لم الاحظ ذلك فيه . فقال هرغر وقد غرق فى ضحكة طويلة « ان سكلد انما يفعل ذلك من اجل هذه المراة الحرة او تلك والتى قد ملكت عليه لبه وفؤاده . فمن اجلها يغتسل بالماء كل يوم ويتصرف كاحمق خجول رقيق ، الم تلاحظ كل ذلك ؟ » ومرة اخرى اجبت باننى لم الحظ مثل ذلك ، فسالنى هرغر بحدة « اذن ما الذى تراه بدلا من ذلك ؟ » ثم ضحك كثيرا اعجــابا بنباهته الشخصية ، وهو اعجاب لم اكن اشاركه فيه ولا حتى تظاهرت بذلك لاننى لم اكن فى مزاج يدفعنى الى الضحك ابدا وهنا قال هرغر ،

« انتم العرب شديدو القسوة والصرامة . وأنتم تهمهمون شاكين طيلة الوقت . وليس هناك من شىء فى نظركم يثير الضحك ؟ » .

هنا قلت له بانه يخطىء الظن . فتحدانى ان اقص عليه قصة مرة . حدثته بقصة الموعظة التى القاها ذلك الواعظ الشهير . انتم بالطبع تعرفون هذه القصة جيدا . فهى تتحدث عن واعظ شهير يقف على منبر الجامع وقد تحلق حوله الرجال والنساء ليسمعوا كلماته الكريمة . فى هذه الاثناء يقوم رجل اسمه حميد بارتداء ملابس امراة ويضع على وجهه وشاحا ويجلس بين النساء . يقول الواعظ المشهور : « طبقا للاسلام ، يستحسن الا يدع رجل او امراة شعر العانة ينمو طويلا جدا . » فيسال احدهم : « ومتى يصبح طويلا جدا ايها الواعظ ؟ » ــ الكل يعرف هذه القصة طبعا فهى نكتة قليلة الحياء ــ يجيب الواعظ « لا يجوز ان يطول الى ماهو اطول من سنبلة شعير . » وهنا يسال حميد المراة الجالسة بجانبه : « اختاه ارجوك ان تفحصى شعر عانتى وتخبرينى ان كان اطول من سنبلة شعير . » وتمد المراة يدها تحت رداء حميد لتتحسس شعر العانة عندما تصطدم يدها بعضوه فتطلق صيحة وهى فى حالة ذهول . ويسمع الواعظ هذه الصيحة فيسر كثيرا ويتجه الى الحضور قائلا : « يجب عليكم جميعا ان تتعلموا أصول الاصغاء الى موعظة كما تفعل هـذه السيدة ، فانكم ترون بأنفسكم كم مست شغاف قلبها . » وهنا تصبح المراة مجيبة ومازالت الصدمة تهزها : « انه لم يمس شغف قلبى ايها الواعظ انما مست يدى . »

الفصل الحادى والعشرون

اصغى هرغر لقصتى بملامح محايدة تماما . ولم يضحك حتى ولم يبتسم . وبعد ان انهيت حديثى سالنى ببلاهة ظاهرة « ماذا تقصد بالواعظ ؟ » عندها اجبته بانه شمالى غبى لم يكن يعرف شيئا عن مدى اتساع هذا الكون وهذا العالم . فضحك لتأنيبى هذا ضحكا شديدا بينما لم تضحكه ولا مرة واحدة قصتى الخيالية .

وفى هذه اللحظة اطلق سكلد صيحة التفت بعدها كل محاربى

بيولف وانا بينهم لينظروا باتجاه التلال فيما وراء طبقات الضباب . وهاكم مارايت : على ارتفاع كبير فى الهواء رايت نقطة ضوء نارية متوهجة وكأنها نجمة متالقة وعلى بعد كبير منا . ولقد رآها المحاربون جميعا ، فحدث بينهم لغط واستغراب وتعجب .

وسرعان ماظهرت نقطة اضاءة اخرى ثم ثانية ثم ثالثة عددت اكثر من عشرة ثم توقفت عن العد ، فقد بدت هذه النقاط المضيئة وكانها فى نسق كانت تتلوى كالافعى او كجسد التنين المتلوى .

« تهيا الان » قال هرغر لى مضيفا القول الشمالى المأثور : « اتمنى لك حظا جيدا فى المعركة القادمة . » رددت له امنيته هذه بافضل منها ثم ابتعد عنى .

كانت نقط النار المضيئة مازالت بعيدة ولكنها كانت تقترب شيئا فشيئا . فى هذه اللحظة سمعت صوتا ظننته الرعد . كان هذا رنين دمدمة عميقة كانت تملأ الهواء العابق بالضباب كما تفعل كل الاصوات فى الضباب . فمن المعلوم ان همسة انسان فى الضباب يمكن سماعها على بعد مائة خطوة واضحة كما لو كان يهمس فى اذنك.

رحت اراقب واصغى فى حين شد مقاتلو بيولف قبضاتهم على اسلحتهم وراحوا يرقبون ويصغون بانتباه شديد ، بينما تنين الكورغن المضىء راح ينهال علينا متلفعا بالرعد واللهيب .

وشيئا فشيئا كانت كل نقطة مضيئة تتنامى وتكبر حمراء كالحجر تومض . اما جسد التنين فكان طويلا متلألئا ، وهو منظر مثير لاشد الرعب ، الا اننى مع ذلك لم اشعر بالخوف ، لاننى ادركت الان ان هؤلاء لم يكونوا سوى خيالة او فرسان يحملون المشاعل ، وقد ثبت لى ان ذلك كان صحيحا .

وهكذا فسرعان مابرز الخيالة من الضباب هياكل سوداء تحمل مشاعل مرفوعة فوق خيول سوداء تزفر وتنقض . واحتدمت المعركة . وسرعان ما امتلأ جو الليل باصوات صراخ مرعب وصيحات الموت لان اول موجة من هجوم الخيالة كانت قد اصطدمت بالخندق فانقلبت خيول كثيرة وسقطت لاطمة راكبيها بالارض بينما غرقت المشاعل بالماء . وقد حاولت خيول كثيرة ان تقفز فوق السياج ولكنها علقت بنهايات العصى المدببة . وانتشرت النيران فى جزء من

هذا السياج . اما المحاربون فقد راحوا يتراكضون فى كل اتجاه .

رايت احد هؤلاء الخيالة يقفز بجواده فوق القسم الملتهب من السياج ، وقد تمكنت من رؤية هذا الوندول بوضوح تام ولاول مرة فى حياتى . ولقد رايت مايلى : على ظهر جواد اسود كان يركب شكل بشرى ملفع بالسواد ، لكن راسه كان راس دب . وقد ذهلت لبعض الوقت عند رؤية هذا المنظر المرعب حقا وخشيت ان اموت من الرعب وحدى لانى لم ار كابوسا كهذا فى حياتى حتى ولا فى المنام . ولكن فى نفس تلك اللحظة كانت بلطة اكثغو تنغرز عميقا فى ظهر الفارس الذى انقلب وسقط وبسقوطه تدحرج راس الدب عن جسده فرايت عندها انه كان له راس انسان تحت راس الدب .

وبسرعة البرق قفز اكثغو فوق المخلوق الساقط وطعنه طعنة عميقة فى صدره ثم قلب الجثة على قفاها واستعاد بلطته من ظهرها وجرى لينضم الى المعركة ثانية . وانضممت انا الى المعركة ايضا ، لاننى اصبت بلطمة جعلتنى الف وادور على قدمى . كانت لطمة من رمح اصبح كثير من الخيالة الان فى قلب السياج ومشاعلهم متوهجة ، بعضهم كان له رءوس الدببة وبعضهم لم يكن له مثل تلك الرءوس . وقد تحلقوا فى حلقة وحاولوا ان يضرموا النار فى الابنية وفى قاعة هاروت وقد حارب بيولف ورجاله ضد هذه المحاولة بعنف شديد .

استقرت على قدمى فى اللحظة التى انقض فيها أحد وحوش الضباب على فوق حصانه المندفع . وقفت ثابتا وقد رفعت رمحى عاليا ، وقد اعتقدت لوهلة بان شدة الضغط سوف تعصرنى ولكن الرمح مر خلال جسد الفارس فصاح صيحة مرعبة لكنه لم يسقط عن حصانه بل ظل راكبا . اما انا فقد سقطت على الارض وانا الهث من الالم الذى كان يقطع معدتى ولكنى لم اكن حتى ذلك الحين قد جرحت جرحا حقيقيا .

وخلال المعركة اطلق هرغر وسكلد سهامهم العديدة وامتلأ الجو بصفيرهم واصابوا اهدافا كثيرة ايضا . ولقد رايت أحد سهام سكلد يخترق عنق احد الفرسان ليستقر هناك ، ثم رايت مرة ثانية سكلد وهرغر يطعنان معا احد الفرسان فى صدره ثم يعودان بسرعة لسحب

سهامهم من غمدها واطلاقها على نفس هذا الفارس حتى استقرت اربعة منها فى جسده ، بينما صراخه يملأ الجو رعبا وهو يعدو بعيدا بجواده .

ومع ذلك علمت بأن هذا العمل اعتبر قتالا هزيلا يمارسه هرغر وسكلد ، لان الشماليين يعتقدون ان لاشىء مقدس فى الحيوانات ، وهكذا فبالنسبة اليهم كان الاستعمال الملائم للسهام ينحصر فى قتل الخيول لايقاع الراكب . وهم يقولون فى ذلك : « ان رجلا ساقطا عن حصانه هو نصف انسان ، وفرص قتله مضاعفة . » وهكذا يتقدمون دونما ابطاء او تردد(١) .

ثم اندفع احد الفرسان فى قلب المعسكر وقد انحنى قدر المستطاع فوق فرسه الاسود المنطلق كالسهم ثم امسك بجسد الوحش الذى كان اكثفو قد قتله ووضعه على عنق حصانه وجرى الحصان مبتعدا . فكما قلت سابقا ، لا يترك وحوش الضباب هؤلاء ايا من قتلاهم ليكتشف فى ضوء الصباح .

احتدمت المعركة مدة من الوقت طويلة وعلى ضوء النار المتأججة فى قلب الضباب . وقد رايت هرغر مشتبكا فى معركة حياة او موت مع احد هؤلاء الشياطين . فاخذت رمحا جديدا وغرزته فى ظهر ذلك المخلوق ، فرفع هرغر يده الى شاكرا والدماء تقطر منه ثم عاد ليغرق فى حمم المعركة . وهنا شعرت بفخر وزهو عظيمين .

حاولت مقلدا ان استعيد رمحى ولكنى وبينما كنت احاول ذلك اصبت بصدمة من خيال عابر اطاحت بى بعيدا ، واقول الحقيقة اننى منذ تلك اللحظة لم اعد اتذكر الا القليل . رايت بيت احد نبلاء روثغار يحترق بالسنة اللهب المتدفقة ، ولكنى رايت ان قاعة هاروت النائمة كانت لاتزال سليمة لم يمسها سوء ، فشعرت بسرور عظيم كما لو كنت انا شماليا ، وكانت هذه آخر افكار ولدتها مخيلتى .

(١) طبقا للقانون الدينى يعتقد المسلمون بان « رسول الله قد حرم القسوة فى معاملة الحيوانات » . واضافة الى ذلك كان العرب يتمتعون بصورة خاصــة بتربية وتدريب الخيول . أما الاسكندنافيين فليس لديهم اى شعور خاص تجاه الحيوانات وقد نوه كل المراقبين العرب تقريبا بانعدام الشعور تجاه الخيول عند الاسكندنافيين .

ومع اطلالة الفجر ايقظنى مايشبه غسلا على صفحة وجهى ، وقد سرتنى اللمسة اللطيفة . وسرعان ما ادركت بعدها اننى كنت اتلقى عناية كلب لاعق ، وكم شعرت عندها بشعور الاحمق السكران ، ثم اصابنى رعب شديد لا اشك بانكم تستطيعون تصوره(١) .

وجدت نفسى ملقى فى الخندق حيث كان الماء احمر كالدم . نهضت ومشيت عبر المعسكر العابق بالدخان وبما لايوصف من الموت والدمار . رايت الارض نفسها مشبعة بالدماء كما تكون مشبعة بالامطار وقد تكونت فوقها برك من الدماء كثيرة . رايت اجساد النبلاء المقتولين ونساء واطفالا موتى ايضا . كما رايت ثلاثة او اربعة اجساد وقد احترقت فى النيران حتى تفحمت . كانت كل هــذه الاجساد منثورة فى كل مكان على الارض وكنت مجبرا على ان ابقى

(١) كان معظم المترجمين الاوائل لمخطوطة ابن فضلان من المسيحيين الذين لم يكونوا يملكون اية معرفة بالثقافة العربية ، وكانت ترجمتهم لهذا المقطع غالبا ما تعكس جهلهم ففى ترجمة مسترسلة يقول الايطالى لاسيلا (١٨٤٧) « فى الصباح استيقظت من غفوتى السكرانة وكاننى كلب مشرد ، وكم شعرت بالخجل لحالتى هذه » .. ويستنتج سكوف مانه فى تعليق له عام ١٩١٩ وبقوله انه « لا يستطيع اى انسان ان يضع ثقته او يصدق قصص ابن فضلان ، لانه كان سكرانا مخمورا اثناء المعارك ، وهو يعترف بذلك » . وبلطف أكثر قليلا من ذلك يقول دوشاتلييه وهو مختص موثوق به بتاريخ القايكنج . يقول فى تعليق له عام ١٩٠٨ : « وسرعان ما اكتسب العرب نشوة السكر من المعارك ، وهو جوهر روح البطولة الشمالية و النورسية » .

انا مدين لمسعود فرزان العالم الصوفى بتفسير الاشارة أو التلميحة التى يقدمها ابن فضلان هنا . وهو فى الواقع يقارن نفسه هنا بشخصية احدى النكــات العربية القديمة جدا : يسقط رجل مخمور فى بركة على جانب الطـريق . يمر كلب ويبدأ بلحس وجهه . فيظن المخمور أن شخصا لطيفا ينظف له وجهه فيقــول بامتنــان . « ليجعل الله اطفالك مطيعين لك » . عندها يرفع الكلب رجله الخلفيــة ويبــول على السكران . الذى يقول ردا على ذلك « وليباركك الله يا أخى لانك أتيت بالماء الدافئ لتغسل وجهى . »

فى اللغة العربية تحمل هذه النكتة مضامين مالوفة ضد السكر والتذكير الذكى بان المشروب ما هو الا خمرة وقذارة كالبول تماما .

ربما كان ابن فضــلان يتوقع من قارئه ان يدرك ليس انه كان مخمــورا أبدا ولكن انه لحسن الحظ استطاع أن يتحاشى أن يبول عليه كلب كما استطاع فى وقت سابق ان يتحاشى الموت فى المعركة : انها بتعبير آخر اشارة الى نجاة اخرى من خطر داهم محقق .

نظرى مثبتا على الارض لئلا ادوس على اى منهم فقد كان القتلى كثيرين ومنتشرين بغزارة فى كل مكان .

اما عن منشآت الدفاع فقد احترق سياج العواميد كله تقريبا . وفى اقسام اخرى منه كانت الخيول تتولى معلقة باردة ، والمشاعل منثورة هنا وهناك . لكننى لم ار ابا من مقاتلى بيولف .

لم تكن تأتى اية صيحات او نحيب من مملكة روثغار ، فاهل الشمال لا يندبون موتاهم ابدا ، ولكنهم على العكس كان يسود الجو هدوء غير عادى . سمعت صياح ديك ثم نباح كلب ولكنى لم اسمع اى صوت انسانى مع انبلاج الصبح .

ثم دخلت قاعة هاروت الكبرى ، فوجدت جسدين ممددين على اغصان نبات السمار وقد وضعت خوذاتهم فوق صدورهم . كان هناك سكلد وهو احد نبلاء بيولف ، ثم هلثوين الذى كان قد جرح سابقا اما الان فكان باردا شاحبا . كان كلاهما ميتين ، ثم كان هناك رثل وهو اصغر المحاربين سنا ، وقد جلس منتصبا فى احدى الزوايا بينما كانت تعنى بجراحه عدد من الجوارى . كان رثل قد جرح سابقا ولكنه كان الان يعانى من جرح جديد فى معدته والدماء تنهمر منه بغزارة وكان واضحا ان ذلك كان يؤلمه الى حد كبير ومع ذلك لم يبد الا الابتسامة والحبور ، وكان يبتسم دائما ويعاكس الجوارى بقرصه اثداءهن وافخاذهن ، وكن غالبا مايوبخنه لانه كان يسبب لهن الالتهاء وتشتت الذهن بينما كن يحاولن تضميد جراحه .

واليكم طريقة معالجة الجراح طبقا لعاداتهم وطباعهم . ان كان جرح المحارب بليغا سواء فى ساعده او فى ساقه فقد كانت تربط حول هذا الطرف او ذاك دعامة ، ثم توضع قطع من القماش المغلى بالماء فوق الجرح لتغطيته . كما قيل لى بان نسيج العنكبوت وقطعا من صوف الحمل قد توضع فى الجرح ليتخثر الدم ويتوقف تدفقه. ولكنى لم ار مثل هذا ابدا .

اما ان جرح المقاتل فى راسه او فى عنقه فكان الجرح يغسل حتى ينظف ثم تفحصه الجوارى . فان كان الجلد ممزقا ولكن العظم سليم يسمون مثل هذا الجرح ، « جرحا لا اهمية له . » ولكن ان

كانت العظام محطمة او مكسورة بشكل او بآخر فانهم يقولون ، « ان حياته تنطلق من جسده وسرعان ماستهرب . »

اما ان جرح المقاتل فى صدره فانهم يتحسسون يديه وقدميه . فان كانت هذه دافئة قالوا عن مثل هذا الجرح . « انه لا اهمية له . » اما ان كان هذا المقاتل يسعل ويتقيأ دما ، قالوا « انه ينطق دماء » ، ويعتبرون ذلك خطيرا جدا . وقد يموت الرجل من مرض النطق بالدم ، وقد لا يموت حسب قدره .

اما ان جرح المحارب فى بطنه ، فانهم يقدمون له حساء من البصل والاعشاب ، ثم تبدا النساء بتشمم ماحول جرحه ، فان هن شممن رائحة البصل قلن « انه مصاب بمرض الحساء » ويعرفن عندها انه سيموت .

ولقد رايت النساء بأم عينى وهن يحضرن حساء البصل لرثل الذى شرب كمية منه ، ثم راحت الجوارى يتشممن جراحه ، وشممن رائحة البصل . عندها ضحك رثل وقام بالقاء نكتة مضحكة للغاية ثم طلب شراب الميد الذى احضر له . وطيلة ذلك الوقت لم يظهر اى اثر للخوف او المبالاة .

فى هذه الاثناء كان القائد بيولف ومحاربوه يعقدون اجتماعا فى مكان آخر من القاعة الكبرى . انضممت اليهم ولكنى لم اتلق اية تحية منهم . حتى هرغر الذى انقذت حياته لم يعرنى اى انتباه ، فقد كان المقاتلون جميعا فى حديث جدى خطير . كنت قد تعلمت بعضا من لغة الشماليين ولكن هذا البعض لم يكن كافيا ليمكننى من تتبع كلماتهم السريعة المنخفضة ، وهكذا سرت الى مكان آخر وشربت بعض الميد وتحسست آلام جسدى . ثم جاءت جارية لتغسل لى جراحى التى كانت عبارة عن قطع او جرح فى اعلى فخذى وآخر فى صدرى . هذه الجراح لم اكن اعى وجودها الى ان جاءت هذه الجارية تعرض خدماتها على .

يغسل الشماليون الجراح بماء المحيط لاعتقادهم بأن هذا الماء يحتوى على قوى شافية اكثر مما يحتويه الماء العذب . وغسل الجراح بماء البحر ليس ملائما للجراح . وفى الواقع رحت ائن واتالم

من ذلك بينما رثل يضحك ويحدث الجارية قائلا : « انه مازال عربيا . » وعندها شعرت بالخجل .

كما يغسل الشماليون الجراح ببول البقر المسخن ولقد رفضت هذا حين عرض على .

يعتقد الشماليون بأن بول البقر مادة رائعة وهم يخزنونها فى اوعية خشبية وفى الظروف العادية يغلونها حتى تصبح كثيفة ومخرشة للانوف ثم يستخدمون هذا السائل المقرف للغسيل وخاصة لغسل الثياب البيضاء(١) .

وقد اخبرت ايضا عدة مرات ان الشماليين قد يذهبون فى رحلات بحرية طويلة دون ان يتوفر لهم الماء العذب الكافى . عندها يشرب كل انسان بوله ، وبهذا الشكل يبقون على قيد الحياة حتى يصلوا شاطىء الامان . هذا ماقيل لى ولكنى لم اره ابدا بحمد الله .

والان اقترب هرغر منى بعد ان انتهى مؤتمر المحاربين . اما الجارية التى كانت تعتنى بجروحى فقد جعلت هذه الجراح تحرقنى حتى طار لبى . ومع ذلك فقد كنت مصمما على ان اتحلى بمظهر اهل الشمال من المرح والحبور . فقلت لهرغر « اية قضية تافهة ستكون مهمتنا فيما بعد ؟ » نظر هرغر الى جراحى وقال « انت تجيد ركوب الخيل . » سالت والهلع يتملكنى عن الوجهة التى سأركب فيها الخيل وقد فقدت لبرهة من الزمن كل مرحى وحبورى لانى كنت مرهقا شديد التعب ولم اكن املك من القوة شيئا الا مايكفى للراحة . فقال هرغر « هذا المساء سيعود التنين المضىء للهجوم ثانية ولكنا الان منهكون مرهقون وقد اصبح عددنا قليلا جدا ، ودفاعاتنا محروقة مدمرة . سيقتلنا التنين المضىء جميعا .»

قال لى هذه الكلمات بهدوء . ولقد رايت ذلك واضحا وقلت لهرغر : « الى اين اذن سنتجه بخيولنا ؟ » وكنت اعتقد انه بسبب خسائرهم الفادحة قد يحاول بيولف وجماعته ان يغادروا مملكة روثغار . لم يعترض على رابى هذا .

قال لى هرغر : « ان ذئبا يحتمى دائما فى وكره لايمكن ان يحصل على اللحم ، كما أن رجلا نائما لايمكن ان يحصل على النصر . » هذا

(١) البول هو مصدر من مصادر الامونيا (النشادر) وهو مركب منظف ممتاز .

مثل شمالى ومنه ادركت الخطة المغايرة تماما : وهى اننا كنا سنغير على ظهور الخيل ونهاجم وحوش الضباب حيث يختبئون فى الجبال او فى التلال . وبقلب يملؤه الخوف سالت هرغر عن الوقت الذى سنبدا فيه هذه المهمة فأجاب باننا سنبدا عند ظهيرة ذلك اليوم .

فى هذه اللحظة رايت طفلا يدخل القاعة وهو يحمل بيديه شيئا من حجر . اخذه هرغر وفحصه بامعان وكان نحتا حجريا آخر بلا راس لامراة حبلى مشوه قبيح . اطلق هرغر صيحة غضب ثم اسقط الحجر من يديه المرتجفتين . ثم صاح بالجارية التى اخذت الحجر والقت به فى النار التى جعلته حرارة لهيبها يتحطم ويتناثر قطعا صغيرة . هذه القطع الصغيرة حملت ورميت فيما بعد فى البحر . هذا ما اخبرنى به هرغر .

سالت عن معنى الحجر المنحوت فقال لى : « انها صورة ام آكلة الموتى وهى التى تراسهم وتوجههم عند الاكل . » وهنا رايت ان بيولف الذى كان واقفا فى منتصف القاعة الكبرى كان ينظر الى ذراع احد الشياطين التى كانت مازالت معلقة فى خشب السقف . ثم تحول ببصره الى جسدى رفيقيه المقتولين ثم الى رثل الذابل ورايت كتفيه تهبطان بياس وذقنه تغرق فى صدره . ثم مشى مارا بجانبهما ورايته يرتدى درعه ويأخذ سيفه ويهيىء نفسه للمعركة من جديد .

الفصل الثالث والعشرون

صحراء الرعب

طلب بيولف سبعة من الخيول القوية ، وانطلقنا فى ضحى ذلك اليوم من قاعة روثغار الكبرى باتجاه السهول المنبسطة الفسيحة ومن هناك توجهنا الى التلال الجائمة خلفها . كان معنا ايضا اربعة من كلاب الصيد البيضاء الناصعة البياض وهى حيوانات عظيمة اميل لان تكون ذئابا من أن تكون كلابا ، وقد كانت ملامحها موحشة

مرعبة . وهذا ماشكل مجمل قواتنا المهاجمة ، وكنت انظر اليها على انها تعبير ضعيف امام خصم بهذه الرهبة ، ومع ذلك كان الشماليون يضعون املا كبيرا فى عنصر المفاجأة وفى هجوم مباغت . وبحسابهم ايضا كانوا يعتبرون كل واحد منهم مساويا لثلاثة او اربعة مقاتلين دفعة واحدة .

لم اكن ميالا للانطلاق بمغامرة اخرى من مغامرات الحرب ، وكم كانت دهشتى عظيمة لان الشماليين لم يكونوا يعكسون مثل هذا الراى ، لان رايى هذا كان ينبع من ارهاق جسدى . وعن هذا قال لى هرغر : « ان الامر لكذلك دائما هنا والان وفى عالم الحياة الخالدة» وهو تعبير عن فكرتهم عن السماء والجنة . فى هذه الجنة ، والتى هى بالنسبة اليهم قاعة كبيرة ، يتقاتل فيها المحاربون من الفجر حتى الغسق . واولئك الذين يموتون يعودون فيحيون ليشاركوا جميعا فى وليمة كبرى فى المساء فيها مالا ينتهى من الطعام والشراب . وما ان يعود ضياء الصبح حتى يعودوا للقتال ، والموتى يعودون فيحيون وتكون هناك وليمة وهكذا دواليك . هذه طبيعة الجنة فى عالم الخلد عندهم(١) . وهكذا فانهم لايعتبرونه امرا غريبا ان يحتدموا فى معارك متواصلة يوما بعد يوم وهم مازالوا على الارض .

تم تقرير وجهتنا بموجب ذيل متواصل من الدمار تركه الخيالة المتقهقرون من الليلة السابقة . كانت الكلاب تقودنا وهى تعدو على طول هذا الاثر من النقاط الحمراء . ولم نتوقف الا مرة واحدة فوق السهل المنبسط وذلك لاستعادة سلاح سقط من احد الشياطين الهاربين . هاكم وصفا لهذا السلاح : كان عبارة عن بلطة لهامقبض من نوع من الخشب وشفرة مصنوعة من الحجر المصقول مربوطة الى المقبض بواسطة سير جلدية . اما حد هذا الفأس فكان حادا جدا ، وكانت الشفرة مصممة بمهارة خارقة كما لو كان هذا الحجر حجرا كريما يراد صقله ليرضى خيلاء سيدة غنية . كانت مهارة الصنع

(١) تشير بعض المراجع اللاهوتية الى ان الاسكندنافيين لم يكونوا مبدعى هذه الفكرة عن المعركة الابدية ، ولكن هذه الفكرة هى مفهوم كلتى او سلتى . ومهما كانت الحقيقة فمن المعقول والمنطقى جدا ان يكون رفاق ابن فضلان قد تبنوا هذا المفهوم ، لان الاسكندنافيين ، كانوا على صلة بالكلتيين لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما فى ذلك الوقت .

بهذا الحد وكان السلاح مخيفا بسبب حدة شفرته . لم اكن قد رايت فى حياتى شيئا من هذا القبيل على سطح الارض . وقد اخبرنى هرغر ان الوندول يصنعون كل ادواتهم واسلحتهم من هذا الحجر ، او هذا ماكان يعتقده الشماليون .

ومع هذا اغزينا السير قدما وبسرعة كبيرة تقودنا الكلاب النابحة التى كان نباحها يسعدنى . وبعد وقت طويل وصلنا الى التلال . وتعمقنا داخل التلال دون ابطاء ودون طقوس بينما كان كل محارب من محاربى بيولف عازما على تحقيق قصده ، وكنا جميعا مجموعة من الرجال الصامتة المكفهرة الوجوه . كانوا يحملون علائم الخوف على وجوههم ومع ذلك لم يتوقفوا ولم يترددوا بل اغزوا السير قدما غير مبالين .

كان البرد شديدا فوق التلال وفى غابات الاشجار الخضراء الداكنة . وكانت ريح مثلجة تهب على ثيابنا وكنا نرى انفاس الخيول الصافرة ودفقات النفس البيضاء المنبعثة من الكلاب الجارية ولكنا رغم كل هذا اغزينا السير غير مبالين . وبعد بعض الوقت من السفر والرحيل الذى استمر حتى الظهر وصلنا الى منطقة جديدة . هنا رابنا تلة او رابية او هضبة داكنة او قل هى ارض قفر شديدة الشبه بالصحراء ، غير انها ليست رملية وليست جافة ولكنها رطبة مستنقعية ، وفوق هذه الارض كانت تغفو طبقات رقيقة من الضباب. ويسمى الشماليون هذه المنطقة صحراء الرعب(١) .

ولقد رايت بام عينى ان هذا الضباب كان يحل على الارض على شكل جيوب او تجمعات صغيرة وكانه سحابات دقيقة قد وقعت على الارض . كنت تجد الهواء نقيا فى منطقة ما ثم فى منطقة اخرى

(١) هى حرفيا « صحراء خوف » فى مقال ظهر عام ١٩٢٧ ، كتب بى دجى توم لسون مبينا أن نفس تلك الجملة تظهر فى كتاب Volsunaga Saga ولذلك فهو يناقش مطولا ان هذا التعبير انما يمثل تعبيرا أصيلا يقصد به الاراضى المحرقة . وواضح أن توم لسون لم يكن مدركا أن Volsumga Saga لم تكن شيئا من هذا القبيل . كما أن ترجمة وليم مورس التى ظهرت فى القرن التاسع عشر تحتوى على السطر او البيت الذى يقول : هناك صحراء رعب فى أقصى اقاصى الدنيا . لكن هذا البيت كان من اختراع موريس نفسه . وهو يظهر فى واحد من العديد من المقاطع حيث يضيف ويزيد على هذه السيرة الجرمانية الاصلية .

كنت تجد فقاعات ضبابية صغيرة معلقة قريبا من الارض على ارتفاع ركبة حصان . وفى مثل هذه الامكنة كنا نضيع اثر الكلاب التى كان يلفها الضباب . وبعد لحظة من الزمن كان الضباب يتبدد لنجد انفسنا مرة اخرى فى فضاء رحب مكشوف . هكذا كانت معالم هذه الهضبة .

لقد اعجبنى هذا المنظر كثيرا ولكنه لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للشماليين . قالوا بان فى الارض فى هذه المناطق مستنقعات كثيرة مالحة كريهة كما كان فيها ينابيع حارة دائمة الغليان كثيرة الفقاعات تخرج من شقوق فى الارض . فى هذه الاماكن كان يتجمع ضباب قليل ويبقى هناك طيلة الليل والنهار . وهم يسمون : هذا المكان بارض البحيرات البخارية .

والارض هنا صعبة على الخيول لذا اصبح تقدمنا بطيئا . كما ان تقدم الكلاب اصبح اكثر بطئا . ولاحظت ان نباحها اصبح اقل قوة . وسرعان ماغيرت جماعتنا سيرها من عدو على ظهور الجياد وكلاب قافزة امامها الى مشية بطيئة مع كلاب صامتة تود لو لم تكن فى المقدمة . وبدلا من ذلك بدات الكلاب تتراجع حتى صارت تحت حوافر الخيول مسببة لها صعوبة اضافية فى السير . كان الهواء لايزال باردا جدا بل فى الواقع اكثر برودة مما كان ، وكنت ترى هنا وهناك بقعا صغيرة من الثلج على الارض ، مع ان هذا الفصل كان حسب ادق تقديراتى جزءا من فصل الصيف .

وببطء شديد تقدمنا مسافة لاباس بها وكنت اتساءل عن احتمال ان نضيع دون ان نجد طريق العودة عبر هذه الهضبة . وفجاة وفى مكان ما توقفت الكلاب . لم يكن هناك اى فرق فى طبيعة الارض او اى شىء على الارض ، ومع ذلك توقفت الكلاب كما لو كانت قد وصلت الى سياج او حاجز لايمكن تجاوزه . توقفت جماعتنا فى هذا المكان وراحت تنظر فى هذا الاتجاه او ذاك . لم تكن هناك اى ريح او اية اصوات ولا حتى صوت طير او حيوان حى بل كان هناك الصمت والصمت العميق .

قال بيولف « هنا تبدا ارض الوندول » ، بينما راح المحاربون يربتون على اعناق خيولهم ليخففوا من قلقها لان الخيول نفسها

كانت مضطربة ثائرة الاعصاب فى هذه المنطقة . كذلك كان الخيالون ايضا . ابقى بيولف شفتيه مطبقتين بينما بدا اكتفو ترتجفان وهو يقبض على اعنة جواده . اما هرغر فقد كان شاحبا كالاموات وعيناه تقفزان بين هذا الاتجاه او ذاك . وكان الاخرون يفعلون الشىء ذاته كل بطريقته .

يقول الشماليون « للخوف فم ابيض » وكنت الان استطيع ان ارى ذلك بوضوح تام ، فقد كانوا جميعا شاحبين حول الشفاه والفم . لكن لم يتحدث اى من الرجال عن خوفه ابدا .

والان تركنا الكلاب خلفنا وتقدمنا بارض كانت سماكة الجليد تزداد فيها شيئا فشيئا ولو انها كانت فى البدء رقيقة تتكسر تحت الاقدام كما كانت كثافة الضباب تتزايد . لم ينطق اى منا بحرف الا حين كان يخاطب حصانه . وعند كل خطوة كنا نخطوها كانت هذه الحيوانات اكثر عنادا فى التقدم ، وكان المقاتلون يجدون انفسهم مضطرين لحضها على التقدم بكلمات ناعمة ورفسات حادة . بعد حين بدانا نرى اشكالا كالظلال فى الضباب امامنا رحنا نتقدم منها بحذر . رايت مايلى بام عينى : على جانبى الممر وفوق اعمدة قوية علقت جماجم حيوانات هائلة وافكاكها مفتوحة بوضع هجومى . استمرينا فى السير وهنا رايت ان هذه الجماجم كانت لدببة هائلة الحجم يعبدها الوندول . وقد اخبرنى هرغر بان جماجم الدببة تحمى حدود ارض الوندول .

ثم راينا عائقا آخر اغبر بعيدا كبيرا . هنا كانت صخرة هائلة الحجم عالية علو سرج حصان ومنحوتة على شكل امراة حبلى ومعدتها مندلقة الى الامام وكذلك ثدياها ، دون ان يكون لها راس او ذراعان او ساقان . كانت الصخرة مغطاة بدماء القرابين ، والحقيقة انها كانت تقطر بسيول من الدم الاحمر وكانت رهيبة المنظر شنيعة .

الفصل الرابع والعشرون

لم يتحدث اى من الرجال عما راى . واستمرينا فى التقدم راكبين، بينما استل المحاربون سيوفهم واشرعوها متهيئين للقتال . وبهذه

المناسبة هاكم احد مزايا الشماليين : وهى انهم فى حين أنهم كانوا يظهرون بعض الخوف فى السابق ولكنهم ما ان دخلوا الى أرض الوندول قريبا من منبع الخوف حتى اختفت كل مظاهر الخوف عندهم . وهكذا كانوا يبدون وكأنهم يفعلون كل شىء بشكل معكوس وبأسلوب محير لانهم فى الواقع كانوا يبدون الان مطمئنين . ولكن الخيول وحدها بدت اكثر عنادا فى التقدم الى الامام .

بدأت اشم الان رائحة الجثث المتعفنة التى كنت قد شممتها من قبل فى قاعة روثغار الكبرى ، والتى ما ان صدمت انفى من جديد حتى كاد يغمى على وهبط قلبى . اقترب هرغر منى وقال بصوت خفيض « كيف حالك ؟ » . ولانى لم اكن قادرا على اخفاء عواطفى قلت له « انني خائف . »

اجاب هرغر « ماذلك الا لانك تفكر فيما سيأتى وتتخيل أشياء مرعبة قد توقف الدم فى عروق اى انسان . فلا تفكر فى المستقبل وكن اكثر حبورا بأن تعرف انه ما من انسان يعيش أبد الدهر . »

ولقد رأيت مدى صدق كلماته فقلت مجيبا « فى مجتمعى نردد قولا مأثورا يقول : اشكروا الله لانه فى حكمته وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها . » ابتسم هرغر لهذا وضحك ضحكة قصيرة ثم قال « فى حال الخوف حتى العربى يقول الحقيقة » ثم عدا بجواده قدما وهو يبتعد عنى لينقل كلماتى الى بيولف الذى ضحك بدوره . وكم سر محاربى بيولف ان يستمعوا الى نكتة فى هذه الظروف . بعدها وصلنا الى تلة ما ان وصلنا الى طرفها حتى توقفنا ورحنا ننظر الى معسكر الوندول تحتها . هاكم وصفا لامتداده امامنا كما رأيته بعينى : كان هناك واد وكان فى الوادى دائرة من الاكواخ الحقيرة المصنوعة من القش والطين ، هزيلة البناء يستطيع طفل صغير أن يبنى افضل منها . وفى مركز الدائرة كانت نار كبيرة تشتعل وقد بدأت تخمد . ومع ذلك لم تكن هناك اية خيول او حيوانات او اية حركة ، كما لم تكن اية بادرة حياة من أى نوع ولقد رأينا كل ذلك من خلال رقائق الضباب المتنقلة .

ترجل بيولف عن حصانه وفعل المقاتلون نفس الشىء وأنا بينهم . وفى الحقيقة كان قلبى يدق واخذت انفاسى تتسارع بينما كنت انظر الى المعسكر المتوحش لهؤلاء الشياطين . سألت هامسا « ولماذا ليس هناك اى نشاط ؟ » اجاب هرغر قائلا « ان الوندول هم من مخلوقات

الليل كالبوم والخفاش ، وهم ينامون طيلة ساعات النهار . ولهذا فهم نائمون الان ، وسوف ننقض عليهم ونذبحهم وهم يحلمون . » قلت وانا انظر الى الاكواخ الكثيرة . التى كنت أراها فى الاسفل « ولكننا قليلون » فأجاب هرغر وهو يقدم لى كأسا من شراب الميد « عددنا كاف » فأخذت الشراب منه بامتنان حامدا لله على انه غير محرم ولا حتى مكروه(١) . وفى الحقيقة بدأت احس بتذوق لسانى وترحيبه بهذه المادة التى كنت اظنها فى الماضى قذارة كريهة : وهكذا تتوقف الاشياء الغريبة عن أن تكون كذلك بفعل التكرار . وبنفس الطريقة لم اعد اهتم برائحة الوندول النتنة المخيفة لاننى كنت قد تعودت على استنشاقها لمدة طويلة ولم اعد احس بعبقها .

واهل الشمال غريبو الاطوار جدا فيما يتعلق بالشم . فهم كما قلت غير نظيفين ، وهم يأكلون كل انواع الطعام والشراب السيىء ، ولكنها حقيقة ايضا انهم يقدرون انوفهم تقديرا ما بعده تقدير وفوق كل اجزاء الجسد الاخرى . ففقدان اذن فى المعركة لايعتبر امرا عظيما ، كما أن فقدان أصبع يد أو أصبع قدم او حتى فقدان اليد هو قضية اكثر خطورة ولكنها ايضا ليست ذات بال ، ولكنهم يعدون فقدان الانف مساويا للموت نفسه وحتى لو كان ذلك الفقدان خسارة ارنبة الانف وحدها والتى قد تنظر اليها الشعوب الاخرى على انها اصابة طفيفة جدا .

وكسر عظم من عظام الانف بسبب معركة او لطمة ليس امرا ذا بال ، فالكثيرون منهم لهم انوف محطمة لهذا السبب . ولكنى لا ادرى سببا لهذا الخوف الكبير عندهم من قطع الانوف(٢) .

(١) ان تحريم الاسلام للكحول هو حرفيا تحريم لفاكهة العنب المخمر ، أى الخمرة . بينما مشروبات العسل المخمر فهى مباحة للمسلمين .

(٢) ان التفسير النفسى المعتاد لمثل هذه المخاوف من فقد بعض أعضاء الجسم هى انها تمثل القلق من التشوه (قلق الخصى) . فى دراسة اجريت عام ١٩٣٧ عن تشويهات صورة الجسد فى المجتمعات البدائية يلاحظ انكلوهارت أن الكثير من الثقافات لها رأى واضح ومباشر فى هذه المعتقدات . فقبائل التاناماني فى البرازيل مثلا ، تعاقب الخاطئين جنسيا بقطع اذنهم اليسرى ، وهو عقاب يعتقد بانه يضعف القوة الجنسية . بينما مجتمعات اخرى تعطى اهمية كبيرة لفقدان الاصابع وأصابع الارجل او كما هى الحال عند الشماليين ، لفقدان الانف . وهى خرافة شائعة فى كثير من المجتمعات تلك القائلة بأن حجم أنف الرجل يعكس حجم قضيبه .

ويقول امرسون ان الاهمية المعطاة للانف فى المجتمعات البدائية تعكس قيمة وظيفية منذ الايام التى كان فيها الناس صيادين ويعتمدون الى حد كبير على حاسة الشم لايجاد الفرائس ولتحاشى الاعداء . ففى حياة مثل هذه كان فقدان حاسة الشم اذى خطيرا حقا .

ترك محاربو بيولف وقد اصابهم الرعب ، وانا طبعا بينهم ، تركوا خيولهم فوق التلال ، وبما ان هذه الحيوانات لايمكن ان تترك وحدها لانها كانت خائفة جزعة . فكان لابد ان يبقى احد افراد مجموعتنا معها ، وكنت آمل أن اكون انا المختار لتلك المهمة ، الا انها كانت من نصيب هلتف ، اذ كان قد اصيب بجرح وكان ذا فائدة محدودة جدا . وهكذا رحنا نحن الاخرون نهبط التلة بتعب ظاهر مابين الشجيرات الضعيفة والاجمات الميتة عبر المنحدر باتجاه معسكر الوندول . كنا نتحرك خلسة ولم نسمع اى انذار بل سرعان ماكنا فى قلب قرية الشياطين .

لم ينطق بيولف بحرف بل كان يعطى كل اوامره وتوجيهاته بيديه ومنه ادركت ان علينا أن نتحرك ضمن مجموعات كل منها من مقاتلين وكل مجموعة تتحرك باتجاه مختلف . كان على انا وهرغر أن نهاجم اقرب الاكواخ الطينية وكان على الاخرين أن يهاجموا الاكواخ الاخرى. وقد انتظر الجميع حتى استقرت المجموعات خارج الاكواخ ثم وبصيحة كانت اشارة رفع بيولف سيفه العظيم رندنغ وقاد الهجوم . اندفعت مع هرغر داخل احد الاكواخ والدم يغلى فى راسى وسيفى خفيف كريشة فى يدى . وكنت والله مستعدا لاعظم معركة فى حياتى . لكنى لم ار شيئا فى الداخل اذ كان الكوخ مهجورا عاريا ايضا باستثناء بعض الفراش القشى الحقير الذى كان قميء المنظر الى حد كان يشبه معه اعشاش بعض الطيور .

فاندفعنا خارجين وهاجمنا الكوخ الطينى التالى . ومرة اخرى وجدناه خاليا . فى الحقيقة كانت جميع الاكواخ خالية وقد اصاب رجال بيولف غضب كان من الشدة بحيث راح الواحد منهم يحدق بالاخر وعلى وجوههم تعابير الدهشة والتعجب .

وبعد ذلك دعانا اكثفو فتجمعنا عند واحد من هذه الاكواخ كان اكبر من الاكواخ الباقية . وقد وجدته ايضا مهجورا ككل الاكواخ الباقية ، ولكن داخله لم يكن عاريا أجرب ، فارض الكوخ كانت مغطاة بعظام هشة راحت تتكسر تحت اقدامنا كعظام الطيور رقيقة هشة متكسرة . اصابتنى من ذلك دهشة عظيمة فانحنيت لاتعرف على طبيعة هذه العظام . ويا للصدمة التى اصبت بها عندما رايت الخطوط المنحنية لمحجر عين هنا وبعض اسنان هناك .

فى الحقيقة كنا نقف على سجادة عظام الوجوه البشرية ، وكبرهان اضافى على هذه الحقيقة الرهيبة كانت قد الصقت فوق احد الجدران اجزاء من جماجم البشر وقد وضعت مقلوبة كما توضع كثير من قدور الفخار ولكنها كانت بيضاء متالقة البياض . شعرت بالغثيان وغادرت الكوخ لافرغ معدتى . هنا اخبرنى هرغر ان الوندول يأكلون ضحاياهم كما يأكل الكائن البشرى البيض او الجبن . هذه هى عادتهم ورغم شناعة هذا الامر عندما نتأمله فانه مع ذلك حقيقة اكيدة .

فى هذه اللحظة نادانا محارب آخر لندخل كوخا آخر . وهنا رايت مايلى : كان الكوخ اجرد عاريا ما عدا كرسى كبير يشبه العرش محفور من قطعة هائلة الحجم من الخشب . وكان لهذا الكرسى ظهر عال يشبه المروحة ومحفور على شكل افاعى وشياطين. وعند اسفل الكرسى كانت بقايا عظام الجماجم وعلى ذراعى الكرسى حيث يريح صاحب الكرسى يديه كان هناك دم وبقايا مادة جبنية بيضاء كانت عادة مخ بشرى . اما رائحة هذه الغرفة فكانت لاتطاق ابدا .

وحول هذا الكرسى وفى كل اتجاه كانت هناك نحوت حجرية صغيرة تمثل امراة حبلى كالتى وصفتها آنفا . وكانت هذه النحوت تشكل محيط دائرة حول الكرسى .

قال هرغر « هذا هو عرشها حيث تحكم » وكان صوته خفيضا مرتعبا .

ولم اكن قادرا على ادراك مغزى ما قال وكنت اشعر بالغثيان فى قلبى وفى معدتى . وسرعان ما وجدت نفسى افرغ معدتى على التراب . وحتى هرغر وبيولف والاخرون جميعا اصيبوا بامتعاض شديد . ولكن لم يفرغ اى منهم معدته ، ولكن بدلا من ذلك تناولوا جمرات متأججة من النار واضرموا النار بالاكواخ التى راحت تحترق ببطء لانها كانت رطبة .

وهكذا صعدنا التلة . وامتطينا جيادنا تاركين أرض الوندول وغادرنا صحراء الرعب . كان الحزن والاسى يرتسم الان على وجوه بيولف ومحاربيه جميعا لان الوندول قد تجاوزهم فى الدهاء

والذكاء بتركهم اوكارهم توقعا لهذا الهجوم . اما حرق اكواخهم فان الوندول لن يعدوه خسارة كبيرة .

الفصل الخامس والعشرون

مؤتمر الاقـــــزام

عدنا كما رايتنا ، الا ان جيادنا كانت تعدو بسرعة اكبر لانها الان كانت اكثر حماسا . واخيرا هبطنا من التلة ورأينا السهل المنبسط يمتد امامنا وعن بعد وراءه رأينا طرف المحيط والمستوطنة وقاعة روث غار الكبرى .

وفجاة استدار بيولف مبتعدا عن وجهتنا وقادنا باتجاه آخر نحو جرف صخرى عال ، تتلاطمه رياح المحيط . عدوت بحصانى حتى وصلت الى هرغر وسألته عن سبب ذلك فأجاب بأن علينا ان نبحث عن اقزام تلك المنطقة .

اصبت بدهشة عظيمة لسماعى هذا الكلام لان اهل الشمال ليس بينهم او فى مجتمعهم اقزام على الاطلاق ، وهم لا يرون ابدا فى الشوارع وما رأيت احدا منهم يجلس عند اقدام الملوك ، ولن تجد ايا منهم يعد النقود او يدون الحـــــسابات او يقوم بأى من تلك الحسابات التى اعتدنا أن نرى الاقزام يفعلونها (١) . ولم يذكر امامى اى من اهل الشمال هؤلاء الاقزام قبلا وكنت افترض دائمـا ان شعبا من المردة كشعب الشمال لايمكن ان ينتج اقزاما(٢) .

وصلنا الان الى منطقة ملأى بالكهوف تعصف فيهـــــا الريح والاصداء . ترجل بيولف عن حصانه وفعل كل محاربه نفس الشىء وراحوا يتقدمون على الاقدام . سمعت صوت صفير ثم رأيت فقاعات

---

(١) فى منطقة البحر الابيض المتوسط ومنذ العصور الفرعونية كان ينظر الى الاقزام على انهم خارقو الذكاء وأهل للثقة . كما أن مهمات مسك دفاتر الحسابات والتعامل المالى كانت توكل اليهم دائما .

(٢) من بين الستين هيكلا عظميا تقريبا التى يمكن أن تنسب وبدقة الى فترة الفايكنج باسكندنافيا فان الطول الوسطى للرجل هناك هو حوالى ١٧٠ سم .

من البخار تتصاعد من هذه الكهوف العديدة . دخلنا احد هـذه الكهوف وهناك التقينا بالاقزام .

كان مظهرهم كالتالى : الواحد منهم فى حجم القزم العادى ولكنه يتميز براس هائل الحجم ، وبملامح يبدو عليها الهرم المفرط . كان هناك اقزام ذكور واناث وكانوا جميعا يبدو عليهم السن المتقدمة . كان الذكور منهم ملتحين وقورين ، والنسـاء ايضـا كان لهن بعض الشعر على وجوههن ولذا كن يحملن مظهر الرجال وكان كل قزم يرتدى معطفا من الفراء أو جلد السمور ، كما كان يرتدى حزاما رقيقا من الجلد مزينا بقطع من الذهب المطروق .

عند وصولنا حيانا الاقزام بأدب ودون اى خوف . قال لى هرغر بأن هذه المخلوقات ذات قوة سحرية وهى لذلك لا تخاف اى انسان على سطح الارض . ولكنهم مع ذلك يخشون الخيول ، ولهذا السبب تركنا خيولنا خلفنا . واضاف هرغر ان قوى القزم الخارقة انمـا تكمن فى هذا الحزام الرقيق ، وأن القزم على استعداد لان يفعل اى شىء لاستعادة حزامه اذا ما فقده .

كما اضاف هرغر قائلا ان مظاهر السن المتقدم على وجوه الاقزام هى امر صحيح ، لان القزم كان يعيش عمرا اطول من عمر اى انسان عادى . وقال لى ايضا ان هؤلاء الاقزام يولدون جنسيا منذ اول سنوات شبابهم ، وأنهم يولدون وقد نبت لهم شعر العانة أو ملتقى الفخذين كما أن الواحد منهم يملك عضوا ذكريا بحجم غير عادى . وفى الحقيقة فان الوالدين انمـا يميزان لاول وهلة فيما اذا كان طفلهما قزما بهذه الميزة كما يميزان بهذه الطريقة ان طفلهما مخلوق سحرى يجب ان يحمل الى التلال ليعيش مع الاخرين من جنسه ، فاذا ما تم هذا يتقدم الابوان شكرهما الى الآلهة وبذبحان القرابين ، لان ولادة قزم تعتبر بنظرهم حظا عظيما عاليا للوالدين .

هذا هو ما يعتقده اهل الشمال كما حدثنى عنه هرغر ، ولكننى لست على علم بحقيقة الامر ، وانما اقص ما قيل لى .

قلت اذن اننى رأيت ان الصفير والبخار كانا يتصاعدان من حلل عظيمة (قدور) هائلة الحجم كانت تغطس فيها شفرات من الفولاذ المصقول لتنقية معدنها ، فهؤلاء الاقزام يصنعون اسلحة عالية الجودة

ومفضلة عند اهل الشمال . ولقـــد رايت محاربي بيولف يجيلون ابصارهم فى اركان الكهوف بشوق واهتمام كما لو كانوا نساء فى سوق تبيع اغلى انواع الحرير .

سال بيولف هذه المخلوقات اسئلة كثيرة ، طلب اليه بعدها ان يتجه الى اعلى قمة الكهوف حيث كان يجلس قزم وحيد اكبر سنا من الاخرين له لحية وشعر شديدا البياض صافياه ، وله وجه مجعد مغضن . هذا القزم كان يدعى « تن غول » ، اى قاضى الخير والشر كما تعنى ايضا العراف .

لابد انه قد كان هذا العـــــراف تلك القوى السحرية التى قال الجميع انه يملكها ، لانه حيا بيولف باسمه فورا ، ورجاه ان يجلس معه . جلس بيولف بينما تجمعنا واقفين على مسافة غير بعيـدة منهما .

لم يقدم بيولف الى الـ « تن غول » اية هدايا ، كما ان رجال الشمال لم يقدموا اى مظهر من مظـــاهر الاحترام والانحناء لهؤلاء البشر الصغار : فهم يعتقدون ان اعطيات الاقزام يجب ان تقدم مجانا ، ومن الخطا ان تستحث عطاءات الاقزام بالهدايا . وهكذا جلس بيولف وراح « التن غول » ينظر اليه بامعان ثم اطبق عينيه وبدا يتكلم وهو يهز جذعه الى الخلف والامام وهو جالس . كان التن غول يتحدث بصوت عال حاد النبرات كصوت طفل وقد فسر لى هرغر معانيه كما يلى :

« يا بيولف انت محارب عظيم ولـكنك التقيت بمعركة حياتك وبندك فى وحوش الضباب ، اكلة الموتى . سيكون هذا صراعا حتى الموت ، وستكون بحاجة الى كل قوتك وحكمتك لتتغلب على هـذا التحدى » . واستمر يتحدث بهذا الشكل لبعض الوقت وهو يهتز الى الامام والى الخلف . وكان فحوى حديثه ان بيولف كان يواجه قدرا صعبا كنت ادركه كما كان يدركه بيولف نفسه بما فيه الكفاية . ومع ذلك حافظ بيولف على صبره وهدوئه .

كما لاحظت ايضا ان بيولف لم يظهر اى انزعاج حين راح القزم يسخر منه ، وهى السخرية التى كررها القزم عدة مرات . قال القزم : « لقد اتيت الى لانك هاجمت الوحوش فى المستنقع الاسن

المالح ، دون ان يجديك ذلك شيئا . ولهذا جئت الى تطلب النصيحة والتحذير ، كما يطلب الطفل ذلك من والده تسالنى ماذا على ان افعل لان كل خططى قد اوقعت بى وفشلت » . ثم ضحك العراف طويلا لهذا الحـديث . عاد وجهه بعدها الى الجـد والوقار مرة اخرى .

« اى بيولف » استانف العــــراف حديثه قائلا : « اننى ارى المستقبل ولكننى لا استطيع ان اخبرك الا بما تعرفه تماما . فانت وكل محاربيك الشجعان قد استنفرتم كل مهارتكم وشجاعتكم لتشنوا هجومكم على الوحوش فى صحراء الرعب . بهذا خدعتم انفسكم لان هذا لم يكن ابدا بطل حقيقى .

سمعت هذه الكلمات بكثير من الدهشة لان ما جرى بدا لى بطوليا حقا وبما فيه الكفاية .

ثم اضاف « التن غول » قائلا « كلا كلا يا بيولف النبيل ! فقد انطلقت لتنجز مهمة كاذبة ، وكنت تدرك فى اعماق قلبك البطل انها لم تكن اهلا لذلك . وكذلك ايضا كانت معركتك مع « تنين الكورغن » المضيء لا تستحق النزال ، تلك المعركة التى كلفتك حياة محاربين كثيرين شجعان . فما القصد وما الهدف من كل خططك هذه ؟ » . ولكن بيولف لم يحر جوابا ، بل جلس الى جانب القزم وانتظر .

استانف القزم حديثه قائلا : « ان تحدى بطل عظيم انما هو فى القلب وليس فى الخصم . ماذا يهم اذا انقضضت على الوندول فى اوكارهم وقتلت العديد منهم وهم نائمون ؟ قد تستطيع قتل الكثيرين الا ان هذا لن ينهى الصراع اكثر مما يمكن لبتر الاصابع ان يقتل انسانا . فلكى تقتل انسانا عليك ان تغرز سـيفك او رمحك فى الراس او فى القلب ، وكذلك الامر مع الوندول . انت تعرف كل هذا جيدا ولست بحاجة لاستشارتى او لنصيحتى لتدركه » . وبهذه الطريقة راح القزم وهو يهتز الى الامام والى الخلف يطهـــر نفس بيولف . ولقد تقبل بيولف توبيخاته وملامته برحابة صدر ، لانه لم يجب ولكنه اطرق براسه فقط .

ثم استانف «التن غول» خطابه قائلا « لقد قمت بعمل رجل ، مجرد رجل ، وليس عمل بطـل حقيقى . فالبطـل ينجز من الاعمـال

ما لا يجرؤ رجل على القيام به . فلكى تقتل الوندول عليك ان تضرب فى الرأس وفى القلب . عليك ان تقهر امهم فى كهوف الرعد » . لم افهم معنى هذه الكلمات ابدا ، فى حين استمر القزم يقول « انت تعرف هذا وتعرف ان هذا كان الصحيح دائما ، خلال كل عصور الانسان . هل سيموت محاربوك الشجعان واحدا تلو الاخر ؟ ام انك ستضرب امهم فى الكهوف ؟ انا لا اقدم لك بهذا نبوءة انما اقدم لك الخيار ما بين البطل والانسان » .

هنا تمتم بيولف باجابة ما ولكنه تحدث بصوت منخفض ضاعت كلماته على مع صفير الريح التى كانت تعصف بمدخل الكهف . الا انه مهما كان فحوى هذه الكلمات فقد استانف القزم حديثه قائلا : « ذلك هو جواب البطل يا بيولف ولم أكن اتوقع اى جواب آخر منك ، ولهذا فسأدعم مسعاك » . ثم دعا القزم بعض بنى جنسه ليقتربوا منه خارجين من زوايا ظلمة الكهف الى النور . وعندما كشفهم الضوء كانوا يحملون بأيديهم اشياء كثيرة .

قال التن غول « هاك هذه الحبال المصنوعة من جلود الفقمة التى اصطدناها فى اول ذوبان الجليد . ستساعدك هذه الحبال على ان تصل مدخل كهوف الرعد من ناحية البحر » . قال بيولف « انا اشكرك على هذا » . بعدها اضاف « التن غول » يقول « وهاك ايضا سبعة خناجر طرقت بالبخار والسحر اقدمهـــا لك ولمحاربيك . السيوف العظيمة لن تكون ذات فائدة او جدوى فى كهوف الرعد . فاحملوا هذه الاسلحة بشجاعة . وستنجزون مهمتكم وامنيتكم » .

اخذ بيولف الخناجر وشكر القزم عليها ، ثم وقف وهو يقول : « ومتى نقوم بهذه المهمة ؟ » .

اجاب « التن غول » قائلا « امس افضل من اليوم ، وغدا افضل من اليوم الذى يليه . لذا اسرع ونفذ نياتك بقلب ثابت وساعد قوى » .

وبعود بيولف للسؤال قائلا : « وما الذى سيحدث ان نحن نجحنا ؟ » . ويجيب القزم على الفور « عندها سيجرح الوندول جرحهم المميت ، وسيقلب الوندول وامهم الرأى فى أكثر من امر وهى فى نزع الموت الاخير وللمرة الاخيرة . وبعد هذا المصاب الاخير

سيحل السلام فى هذه الارض وسيعود نور الشمس خالدا فيهـا ابدا . اما اسمك فسيحل فى اغانى المجد والخلود فى تصور بلاد الشمال الى ابد الابدين » .

هنا يتمتم بيولف قائلا « هكذا تغنى اغانى الرجال الاموات » .

ويجيب القزم وهو يضحك ثانية وبقهقهة تشبه ضحك الاطفال او البنات الصغار « ذلك صحيح . وتغنى كذلك افعال الابطال الذين يعيشون بهذا الشكل ايضا ، لكن افعال الرجال العاديين لا تغنى ابدا ولا تصير اناشيد ابدا . انت تعرف ذلك جيدا » .

ويغادر بيولف الكهف بعد أن يقدم لكل منا خنجرا من خناجر الاقزام . ونهبط خارجين من تلك الشقوق الصخرية التى تعصف بها الريح ونعود الى المملكة والى قاعة روث غار الكبرى بينما الليل يهبط بطيئا .

كل هذه الامور حدثت ورايتها بأم عينى .

الفصل السادس والعشرون

احداث الليلة السابقة للهجوم

لم يأت الضباب تلك الليلة فقد هبط من على التلال ولكنه توقف بين الاشجار ولم يزحف باتجاه السهل . فى قاعة روث غار الكبرى اقيمت وليمة عظيمة شارك فيها بيولف ورجاله باحتفال عظيم . وقد ذبح كبشان عظيما والتهما بالكامل (١) . وقد شرب الجميع كميات هائلة من شراب الميد ، وضاجع بيولف لوحده اكثر من نصف دزينة من الفتيات الجوارى وربما اكثر من ذلك . ولكن رغم كل هذا المرح لم يكن لا هو ولا رجاله مسرورين حقا . فمن وقت لآخر كنت اراهم ينظرون الى حبال جلد الفقمة وخناجر الاقزام التى كانت قد كومت فى احدى زوايا القاعة .

وانضممت انا الى صخب المحتفلين ، فقد صرت اشعر اننى واحد منهم ، او هذا ما بدا لى على الاقل بعد أن قضيت كل هذا الوقت

(١) يقول دالمان (عام ١٩٢٤) « انه فى مناسبات الاحتفالات كان يؤكل لحم الكبش لزيادة الحيوية الجنسية لان الحيوان الذكر ذا القرون كان يعتبر متفوقا على الانثى » ولكن فى الواقع فان كلا الكبش والنعجة كان لهما قرون هذه الفترة .

فى صحبتهم . والحقيقة اننى فى تلك الليلة شعرت اننى قد ولدت شماليا .

اما هرغر وقد اخذت منه نشوة الخمر كل ماخذ فقد حدثنى بصراحة عن ام الوندول فقال : « ام الوندول هذه عجوز مغرقة فى الهرم وتعيش فى كهوف الرعد . وتقع كهوف الرعد هذه فى صخرة من صخور الجرف غير بعيدة من هنا . ولهذه الكهوف فتحتان واحدة عن طريق البر والثانية من البحر ، ولكن المدخل البرى عليه حراسة مشددة يقوم بها الوندول الذين يحمون امهم العجوز ، ولهذا فنحن لانستطيع أن نهاجمهم من ناحية البر لاننا بهذه الطريقة سنقتل جميعا . لهذا سنهاجم من البحر . »

سالته : « وما هى طبيعة أم الوندول هذه ؟ » فاجاب هرغر قائلا انه ما من شمالي يعرف ذلك معرفة صحيحة ، ولكن يحكى انهـــا عجوز هرمة ، اكبر سنا من الحيزبون الشمطاء التى يدعونها ملاك الموت ، وانها ايضا كانت مخيفة المنظر ، وانها كانت ترتدي الافاعي فوق راسها وكأنها اكاليل الغار ، وانها ايضا قوية فوق كل تصور . واضاف اخيرا ان الوندول كانوا يلجأون اليها لترشدهم فى كل مناحى حياتهم(١) . ثم أشاح هرغر بوجهه عنى وغاب فى سبات عميق .

(١) قال جوزيف كانترل ان « هناك نزعة فى الاسطورة الجرمانية والنورسية للنظر الى النساء على أن لهن قوى خاصة ومزايا سحرية ولهذا تجب خشيتهن وعدم الثقة بهن . كل الالهة الرئيسية من الرجال . ولكن الفالكاريز Valkyries والذى يعنى حرفيا « مختارى القتل » . هن نساء ينقلن المحاربين الاموات الى الجنة . وكان يعتقد ان هناك ثلاثة اقدار تخلق مع ولادة كل انسان وتقرر مصير حياته . هذه الاقدار تدعى اوث اى الماضى . فيرتهانذى اى الحاضر وسكلد اى المستقبل . هذه الاقدار « تحيك قدر الانسان » . والحياكة هى عمل النساء . وفى التصويرات الشعبية كانت هذه الاقدار والآلهة تصور على انها صبايا شابات . أما وورد wyrd وهو الاله الانجلو سكسونى الذى كان يتحكم بالقدر فقد كان أيضا الها ويفترض ان الربط ما بين النساء وقدر الرجل كان استمرارية لمفاهيم سابقة عن النساء باعتبارهن رموز الخصب فالهات الخصب كن يتحكمن بنمو وازهار المحاصيل وكل الاشياء الحية على الارض .

ويلاحظ كانترل أيضا ان « فى الواقع العمل تدرك أن العرافة والقاء التعاويذ وطقوسا عرافية أخرى انما كانت توكل للنساء المسنات فى المجتمع النورسى او الشمال . واضافة الى ذلك فان الافكار الشعبية او العامية عن النساء كانت تتضمن عنصرا قويا من الشك . فطبقا Havamal لا يجوز لاحد ان يثق بكلمات فتاة أو امرأة متزوجة . لان قلوبهن قد صنعت على شكل دولاب دوار . اضافة الى انهن غير ثابتات على امر بطبيعتهن » .

يقول بنديكسن « كان يوجد بين اوائل الاسكندنافيين نوع من تقسيم القوة حسب الجنس : فالرجال كانوا يتحكمون بالقضايا الطبيعية والمادية فى حين أن النساء يتحكمن بالقضايا النفسية » .

والان حدثت هذه الحادثة ، فى اعماق الهزيع الاخير من الليل ، وبينما كانت الاحتفالات تقترب من نهايتها والمحاربون على وشك النوم طلب بيولف الى ان اذهب اليه . جلس بجانبى وراح يشرب الميد من قرن تحول الى كأس . لم يكن مخمورا ، كما رايت ، وكان يتحدث ببطء بلغته الشمالية بحيث افهم مقصده . قال لى اولا : « هل ادركت معنى كلمات القزم الشبه غول ؟ » فاجبت بأننى فهمت ماقال بمساعدة هرغر الذى كان يشخر الان قربنا . قال لى بيولف: « اذن فانت تعلم اننى سأموت . » قال هذا بعينين مضيئتين وبنظرة ثابتة . لم ادر بم اجيب او اى استجابة ابديها الا اننى فى اخر الامر قلت له على الطريقة الشمالية « لا تصدقن اى نبوءة حتى تثمر(١) » .

قال لى بيولف ايضا : « لقد رايت وتعرفت على كثير من عاداتنا. قل لى الحقيقة . هل ترسم الاصوات ؟ » فاجبته بأن نعم . « اذن فكن حريصا على سلامتك ، ولا تبالغ فى جرائتك وشجاعتك . انت الان تلبس وتتحدث كشمالى وليس كأجنبى . فاعمل جهدك لان تبقى حيا . »

وضعت يدى على كتفه كما رايت رفاقه المحاربين يفعلون عندما يحيون فابتسم عندها وقال « انى لا اخاف شيئا ولست بحاجة الى الترويح عنى . انى اطلب اليك أن تعمل من اجل سلامتك ولمصلحتك انت . اما الان فأفضل شيء نفعله هو أن ننام » .

قال هذا وأشاح بوجهه عنى مكرسا كل انتباهه الى احـــدى الجوارى التى راح يضاجعها على مسافة لاتزيد عن بضع خطوات منى . فادرت وجهى بعيدا وانا اسمع انات وضحكات تلك المراة ، غير انى سرعان مارحت فى سبات عميق .

(١) هذه صياغة معدلة شائعة بين الشماليين وهى بصيغتها الكاملة على الشكل التالى: « لا تمتدحن النهار حتى ياتى المساء ، ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى يجرب ولا الصبية العذراء حتى تتزوج . ولا الجليـــد حتى يتبدد . ولا تمتدحن شرابا حتى يشرب » . هذه النظرة الحكيمة الواقعية والساخرة الى حد ما الى الطبيعة البشرية والى العالم انما هى امر يشاطر العرب الاسكندنافيين الايمان به . فالاسكندنافيين تماما غالبا ما يعبر العرب عن هذا بالفاظ ساذجة أو ساخرة . وهناك قصة صوفية عن رجل سأل حكيما : « لنفترض انى كنت مسافرا فى الريف وكان على ان اتوضأ فى نهر . فالى اى جهة على ان اولى وجهى وانا اتوضأ ؟ » ويجيب الحكيم قائلا « اتجه باتجاه ثيابك حتى لا تسرق » .

كهوف الرعد

قبل ان تضيء اولى خيوط الفجر السماء ، كان بيولف ورجاله وانا بينهم ننطلق على ظهور الجياد تاركين مملكة روثغار شاقين طريقنا على حافة الجرف المطل على البحر . لم أكن أشعر بأني على مايرام فى ذلك اليوم فقد كان راسى يؤلمنى ، كما كانت معدتى تؤلمنى من آثار احتفالات الليلة السابقة . ومن المؤكد ان كل محاربى بيولف الاخرين كانوا فى حالة مشابهة ، ومع ذلك لم يبد اى من هؤلاء الرجال اى علامة من علامات الضيق . عدت خيولنا بقوة وهى تلتف على اطراف الجروف التى كانت على طول ذلك الساحل عالية مخيفة وسحيقة ، والتى كانت تتهاوى على شكل صفيحة من الحجر الاغبر باتجاه البحر المزبد الهائج تحتها . وفى بعض المناطق على هذا الشريط الساحلى كنت ترى بعض الشطآن الصخرية ؛ الا ان الارض الخضراء والبحر غالبا ماكانا يلتقيان مباشرة والامواج تتحطم كالرعد على الصخور . هكذا كان الوضع فى معظم اجزاء الساحل .

رايت هرغر وهو يحمل فوق حصانه حبال جلد الفقمة التى اخذناها من الاقزام فأسرعت خطى جوادى لالحق به . سالته عن هدفنا فى ذلك اليوم ، ولو انى فى الحقيقة لم اكن مهتما كثيرا بهذا الهدف فقد كان راسى يؤلمنى ومعدتى تحترق احتراقا اليما .

قال هرغر « فى هذا الصباح سنهاجم ام الوندول فى كهوف الرعد . وسنقوم بهذا الهجوم من البحر كما قلت لك بالامس » .

وبينما كنت راكبا نظرت من فوق جوادى الى البحر فى الاسفل الذى كانت امواجه تتحطم فوق الجروف الصخرية ، وسالت « هل سنهاجم بواسطة السفن ؟ » اجاب هرغر وهو يضرب بيده على حبال جلد الفقمة « كلا » . عندها ادركت قصده فى اننا سيكون علينا ان نتدلى من فوق الجروف بواسطة الحبال ثم بطريقة ما او باخرى سندخل تلك الكهوف . كان خوفى لايوصف لمجرد هذا التصور فلم

اكن احب ابدا ان اكون معرضا للسقوط من الاماكن العالية . حتى البنايات العالية فى مدينة السلام كنت اتحاشاها . عندما عبرت عن احساسى هذا لهرغر قال لى « اعترف بالجميل فانك محظوظ » .

سالت عن مصدر حظى فأجاب هرغر قائلا « ان كنت تخاف الاماكن العالية فانك اليوم ستتغلب على هذا الخوف وهكذا ستكون قد تغلبت على تحد عظيم وستعد بين الابطال » . فقلت له « انا لا اريد ان اكون بطلا . » وما ان سمع هذا حتى ضحك وقال انني انما اعبر عن مثل هذه الاراء لانني عربى وحسب . ثم اضاف انني متحجر الراس وهو تعبير كان الشماليون يعنون به حالة مابعد الشرب او السكر . وكان ذلك صحيحا كما سبق وبينت .

وكان صحيحا ايضا انني كنت شديد الحزن والقلق لمجرد التفكير بان على هبوط الجرف بتلك الطريقة ، وفى الحقيقة كان شعورى كما يلى : كنت على استعداد ان اضاجع امراة فى الحيض ، بل كنت على استعداد لان اشرب من كاس ذهبية او آكل روث خنزير ، وان اقتلع عينى حتى وان اموت او ان افعل كل هذه الاشياء مجتمعة على ان انحدر من على ذلك الجرف الملعون . واضافة لذلك كنت اعانى من مزاج متعكر . قلت لهرغر « قد تكون انت وبيولف وكل جماعتكم ابطالا كما قد يروق لمزاجكم ولكن لا علاقة لى انا بكل هذا الامر ولا اريد ان اكون واحدا منكم . » ضحك هرغر لكلماتى ثم نادى بيولف وحدثه بسرعة . اجابه بيولف وهو ينظر من فوق كتفه وكانما يغمز بى . وهنا قال لى هرغر : « بيولف يقول ان عليك ان تفعل كما نفعل . » وفى الحقيقة احسست الان بانني اغرق فى حالة يأس فقلت لهرغر ، « انا لا استطيع ان افعل ذلك . وان انتم اجبرتمونى على ان افعله فساموت حتما . » سال هرغر « كيف ستموت ؟ » اجبت « انني سافلت قبضتي عن الحبال . » هذا الجواب جعل هرغر يضحك من اعماقه مرة اخرى وراح يعيد كلماتى على مسمع من جميع الشماليين فضحكوا جميعا لما قلت . بعد ذلك تحدث بيولف بكلمات قليلة . قال لى هرغر « ان بيولف يقول انك ستحل قبضتك اذا ارخيت الحبال من يديك ، ولن يفعل ذلك الا احمق مجنون . وبيولف يقول انك عربى ولكنك لست مجنونا . » وهاكم وصفا حقيقيا لطبيعة

الرجال : قال بيولف انني كنت استطيع الهبوط على الحبل ، وانه نتيجة كلامه صرت اعتقد به واصدقه قدر مايصدقه هو وشعرت بالسعادة تدخل قلبي ولو بقدر قليل . وقد لاحظ هرغر ذلك فقال : « كل انسان يحمل في طياته نوعا من الخوف خاصا به ومقصورا عليه . وهكذا تجد رجلا يخاف الاماكن المغلقة وآخر يخاف الغرق ، بينما كل منهما يضحك على الاخر ويدعوه غبيا . وهكذا فان الخوف ليس الا مجرد هواية مفضلة يجب ان تعتبر من نوع تفضيل امراة على اخرى او لحم الضان على لحم الخنزير او الملفوف على البصل وما الى ذلك . نحن نقول الخوف هو الخوف »

لم اكن في مزاج يسمح لي بتأمل فلسفاته ، وقد اخبرته بذلك وفي الحقيقة صرت احس بانني اكثر قربا الى الغضب مني الى الخوف . ومرة اخرى ضحك هرغر في وجهي وقال هذه الكلمات : « الحمد لله الذي وضع الموت في نهاية الحياة وليس في بدايتها » .

قلت مجيبا باقتضاب انني لم اكن ارى فائدة في استعجال النهاية، فاجاب هرغر قائلا « في الواقع لا احد يرى ذلك » ، ثم اضاف « انظر الى بيولف . لاحظ كيف يجلس منتصبا وكيف يهمز حصانه متقدما مع انه يعرف بما لايقبل الشك بانه سيموت عما قريب . » اجبته « انا لا اعلم انه سيموت . » ويجيب هرغر قائلا « نعم ولكن بيولف لن يعرف ذلك » ثم امتنع هرغر عن اضافة اي شيء آخر وانطلقنا على ظهر خيولنا لبعض الوقت حتى استقرت الشمس ساطعة مشرقة في كبد السماء . واخيرا اعطى بيولف اشارته آمرا بالتوقف فترجل كل الرجال وبدءوا بالاستعداد لدخول كهوف الرعد .

كنت اعلم حق العلم ان هؤلاء الشماليين كانوا شجعانا الى حد التهور ، ولكني حينما نظرت الى انحدار الجرف تحتنا شعرت بقلب يلتوي وينقلب راسا على عقب داخل صدري ، وظننت لوهلة انني سافرغ معدتي في اية لحظة . وفي الحقيقة كان الجرف سحيقا بلا حدود ليس فيه اي مقبض ليد او قدم ، وكان ينحدر لمسافة ربما تصل الى اربعمائة خطوة . وفي الحقيقة كانت الامواج المتلاطمة بعيدة سحيقة تحتنا الى درجة بدت معها وكأنها صور امواج مصغرة ، دقيقة رقيقة كانعم رسوم فنان . ومع ذلك كنت ادرك انها كبيرة

كبر كل الامواج على الارض وان الانسان سيدرك ذلك حالما يهبط الى مستواها في الاسفل .

كان الانحدار على هذه الجروف بالنسبة لي جنونا مابعده جنون من كلب مزبد . ولكن الشماليين كانوا مازالوا يندفعون قدما بطريقة طبيعية تماما . وامر بيولف بغرز عصي خشبية قوية في الارض ، وحول هذه الاوتاد ربطت حبال جلد الفقمة بينما راحت النهايات الحرة تتطاير على جانب الجروف .

وفي الحقيقة لم تكن الحبال طويلة بما فيه الكفاية لمثل هذه المسافة ، فكان لابد من استعادتها ثانية ووصل حبلين الواحد بالاخر لصنع حبل واحد كاف للوصول الى الامواج عند السفح .

وفي الوقت المحدد كان لدينا حبلان طويلان كانا يتدليان على جانب الجرف . تحدث بيولف للجمع فقال : « ساهبط انا اولا ، وحينما اصل الى القاع ستعلمون جميعا ان الحبال قوية وان الرحلة يمكن انجازها . ساكون بانتظاركم عند نهاية الحبل وعلى الحافة الضيقة التي ترونها في الاسفل » .

ونظرت بدوري الى الحافة الضيقة . ان تسميها ضيقة يعني ان تسمي الجمل لطيفا . كانت في الواقع اضيق شريط من الصخر المسطح تلطمها امواج البحر وتغسلها باستمرار . ثم استمر بيولف قائلا « عندما تكون جميعا قد وصلنا القاع سيكون بامكاننا ان تهاجم ام الوندول في كهوف الرعد . » قال هذا بصوت ذات نبرة طبيعية كتلك التي يأمر بها عبدا بأن يهيىء له اي حساء منزلي او اي عمل عادي . ودونما اضافة راح يهبط جانب الجرف .

والان اليكم وصفا لطريقة الهبوط والتي وجدتها رائعة مثيرة للاعجاب رغم ان الشماليين لم يكونوا يجدون فيها امرا عجبا . فقد قال لي هرغر بانهم يستعملون هذا الاسلوب لجمع بيوض طيور البحر في فترات معينة من السنة ، حين تبني طيور البحر اعشاشها على سطح الجرف . ويتم الامر بالطريقة التالية : توضع انشوطة حول وسط الرجل الهابط بينما يجتهد كل زملائه لانزاله من على الجرف . في هذه الاثناء يقوم هذا الرجل من اجل تدعيم وضعه بالتمسك بحبل ثان يتدلى على سطح الجرف . وبعد ذلك يحمل الرجل

الهابط عصا قوية من خشب البلوط مثبتة من احدى نهايتيها بسير جلدي حول وسطه ، يستعملها كعصا ليدفع نفسه هنا وهناك بينما يهبط السطح الصخري(١) .

الفصل الثامن والعشرون

بينما كان بيولف يهبط ويتضاءل حجمه في عيني لاحظت انه كان يناور بالانشوطة والحبل والعصا بمهارة فائقة ، ولكني لم اخدع نفسي ابدا بالاعتقاد بأن هذه كانت قضية تافهة ، فلقد رايت وادركت انها كانت عملية صعبة وتتطلب مرانا طويلا . وبعد طول عناء وصل بيولف السفح سالما ووقف على الحافة الضيقة بينما الموج يتلاطم ويتحطم فوقه . وفي الحقيقة كان قد بلغ من الضآلة والصغر بحيث صار من الصعوبة بمكان بالنسبة الينا ان نراه يلوح بيده وهي الاشارة التي كانت تعني انه وصل بسلام . والان استعيدت الانشوطة ومعها العصا البلوطية . ثم التفت الي هرغر قائلا « الان جاء دورك » قلت انني اشعر بالوهن وانني اتمنى ان ارى شخصا آخر يهبط قبلي لكي اجيد دراسة طريقة الهبوط . اجاب هرغر « ان الامر يصبح اكثر صعوبة مع كل هبوط لان عدد الذين يبقون هنا في الاعلى يصبح اقل كلما هبط رجل الى الاسفل . والرجل الاخير عليه ان يهبط بدون العقدة بالمرة ، وسيكون ذلك الرجل اكثفو لان ساعديه كالحديد وانت تعبر عن محبتنا لك بالسماح لك بأن تكون الرجل الثاني في الهبوط . هيا واهبط الان » .

ولقد رايت في عينيه انه لم يكن هناك امل في التاخير ، وهكذا ادخل وسطي في العقدة وقبضت على العصا الغليظة بيدي اللتين كانتا لزجتين بسبب العرق ، كما كان كل جسمي ايضا لزجا زلقا بسبب العرق ، وكنت ارتجف في مهب الريح حين انزلقت على جانب الجرف ورايت لاخر مرة الرجال الشماليين الخمسة وهم يجهدون في شد الحبل ثم غابوا عن ناظري ، وبدأت اهبط .

(١) في جزر الفارو في الدانمرك مازالوا يمارسون اسلوبا شبيها في تسلق الجروف لجمع بيوض الطيور ، هذه البيوض التي تشكل مصدر غذاء اساسي لاهالي تلك الجزر .

كنت قد قررت بيني وبين نفسي ان ابتهل الى الله بصلوات كثيرة وان اسجل ايضا في عين فكري وفي ذاكرة روحي ، تلك المغامرات والتجارب العديدة التي يمر بها الانسان وهو يتدلى من حبال فوق هذا الجرف الصخري الذي تمزقه الرياح . ولكن ما ان غبت عن ناظر الاصدقاء الشماليين فوقي حتى نسيت كل نياتي وهمست « حمدا لله » واعدتها مرات ومرات كشخص فقد عقله او كمن توقف عقله عن العمل او كطفل او مجنون .

وفي الحقيقة لم اعد اتذكر الان الا القليل مما جرى . فلا زلت اذكر ان الريح تقذف بالانسان جيئة وذهابا عبر الصخرة بسرعة لاتستطيع معها العين ان تثبت النظر على السطح الذي كان رماديا مزبدا للنظر ، وانني كثيرا ما كنت اصطدم بالصخر فاهشم عظامي واجرح جلدي . وقد ارتطم راسي مرة فتخيل الي انني ارى بقعا بيضاء ناصعة كانها النجوم امام عيني ، وظننت لوهلة انني سافقد الوعي الا ان ذلك لم يحصل . وفي الوقت المحدد والذي بدا لي في الواقع انه كان يعادل طيلة حياتي بل واكثر وصلت السفح وامسك بيولف بي من كتفي وقال انني هبطت هبوطا جيدا .

وعادت العقدة فارتفعت ثانية بينما كانت الامواج تتحطم فوقي وفوق بيولف بجانبي . وكنت احاول جاهدا ان احتفظ بتوازني على هذه الحافة الزلقة ، وقد شغل هذا ذهني وانتباهي الى حد لم اراقب فيه الاخرين وهم يهبطون الجرف . فقد كانت رغبتي الوحيدة هي في ان امنع الامواج من ان تقذف بي في البحر . وفي الحقيقة رايت بعيني ان الامواج كانت اعلى من ثلاثة رجال يقف الواحد منهم فوق الاخر ، وحين كانت تلطم الموجة الصخر كنت احس للحظة بفقدان الوعي وكأني في دوامة من الماء البارد وقوته تقذف بي بحلقة دائرية . وكثيرا ما قذفتني هذه الامواج واخلت توازني وكنت انضح بالماء من كل جوانب جسدي وارتجف الى حد كانت اسناني معه تصطك كما تفعل الخيول العادية . ولم استطع ان انطق بكلمة واحدة بسبب اسناني المصطكة .

هبط جميع محاربي بيولف بسلام ، وكان اكثفو آخر من هبط بقوة عضلات ساعديه وحسب . وعندما لامست قدماه حافة الجرف

اخيرا كانت ساقاه ترتجفان دون ان يستطيع التحكم بهما كما ينتفض الانسان الذى يصارع نزع الموت . وكان علينا ان ننتظر بعض الوقت حتى تمالك نفسه ثانية .

بعد ذلك تحدث بيولف : « سننزل فى الماء ثم نسبح حتى الكهف. وساكون اول السابحين . احملوا خناجركم بين اسنانكم ، بحيث تكون ذراعا كل منكم طليقة فى مصارعة التيارات والامواج » .

نزلت على كلمات الجنون الجديد هذه كالصاعقة فى وقت لم اعد استطيع فيه تحمل اى جهد آخر . فقد بدت خطة بيولف لعينى حماقة مابعدها حماقة . ولقد رايت الامواج تتحطم وتتفجر فوق الصخور المتداخلة ، كما رايت الامواج تنسحب بقوة مارد جبار لكى تستعيد قوتها ثانية وتعود الى اللطم من جديد . وفى الحقيقة اعتقدت وانا اراقب كل هذه انه ما من انسان يستطيع ان يسبح فى تلك المياه وانه لابد وان يتناثر الى شظايا عظام فى رمشة عين .

ولكنى لم احتج ولم اغضب فقد تجاوزت حدود كل خوف . اعتقد اننى كنت قريبا بما فيه الكفاية من الموت الى حد لم يعد يهمنى معه ان انا اقتربت اكثر فاكثر . وهكذا اخذت خنجرى الذى وضعته فى حزامى لان اسنانى كانت ماتزال تصطك ببعضها عاجزة عن ان تمسك بالخنجر فى فمى . اما عن الشماليين الاخرين فلم تبد عليهم اية آثار للبرد او للتعب ، بل كانوا يحيون كل موجة وكأنها منشط جديد . وكما كانوا يبتسمون بسعادة انتظار المعركة القادمة ، وق كرهتهم لهذا الشعور الاخير .

كان بيولف يراقب حركة الامواج ليختار الفرصة المناسبة ، ثم قذف بنفسه فى الموج المتلاطم . إبطات ثم دفعنى احدهم الذى كنت دائما اعتقد انه هرغر . فسقطت فى البحر الهائج الدوار ذى البر المخدر . وفى الحقيقة شعرت براسى يدور وينقلب راسا على عقب واموج الى هذا الجانب او ذاك ، ولم اكن استطيع رؤية اى شىء سوى المياه الخضراء . ثم رايت بيولف وهو يرقس الامواج فى اعماق البحر فتبعته بينما راح يسبح فيما يشبه الممر بين الصخور . و تصرفت فى كل شىء كما كان يفعل وذلك على النحو التالى :

فى لحظة ما كان تلاطم الامواج يندفع خلفه يحاول ان يقتلعه ويد

به الى المحيط الهائل وكذلك الامر معى . وفى تلك اللحظات كان بيولف يتمسك بالصخور بيديه ليقاوم التيار ، وكذلك فعلت . تمسكت بالصخور بقوة بينما رئتاى تكادان تتفجران . وبلحظة اخرى كانت الامواج المتلاطمة تقفز بالاتجاه الاخر فاندفع بسرعة هائلة نحو الامام ، واقفز فوق الصخور والعقبات . ومرة اخرى كانت الامواج تغير اتجاهها وتنحسر الى الخلف كما فعلت فى السابق فاضطر لان احذو حذو بيولف واتعلق بالصخور . وفى الحقيقة كانت رئتاى تحترقان كما لو ان نارا مشتعلة كانت تلتهب فيهما ، وكنت اعرف فى اعمق اعماقى اننى لم اكن استطيع الاستمرار فترة اطول فى هذا البحر الجليدى . ثم عادت الامواج الهادرة تندفع الى الامام فقذفتنى فى ذلك الاتجاه وانا الطم هنا واضرب هناك . وفجاة وجدت نفسى واقفا اتنفس الهواء . وفى الحقيقة حدث هذا كله بسرعة شعرت معها بدهشة لم افكر معها بالشعور بالارتياح والذى كان هو الشعور المنطقى فى تلك اللحظة ، كما لم يخطر على بالى ان احمد الله لحظى الجيد فى البقاء حيا . رحت استنشق الهواء بلهفة بينما رفع كل محاربى بيولف حولى رءوسهم فوق سطح الماء وراحوا يستنشقون الهواء مثلى .

والآن اليكم ما رايت : كنا فيما يشبه البركة او البحيرة داخل كهف له قبة صخرية ناعمة ومدخل من ناحية البحر كنا قد اخترقناه لتونا . وأمامنا مباشرة كان هناك فراغ صخرى مسطح . وقد رايت ثلاثة او اربعة اشكال سمراء تجلس القرفصاء حول نار مشتعلة ، وكانت هذه المخلوقات ترتل باصوات عالية . وفهمت الان سبب تسمية هذا الكهف بكهف الرعد لانه مع كل تحطم للامواج المتلاطمة كان الصوت يتجاوب داخل الكهف بقوة كانت تؤلم الآذان ، حتى ان الهواء نفسه بدا وكانه يهتز وينضغط بقوة :

فى هذا الكهف ، قام بيولف ومحاربوه بهجومهم وقد انضممت انا اليهم . وبخناجرنا القصيرة قتلنا اربعة شياطين فى الكهف . وقد تمكنت من رؤيتهم بوضوح ولاول مرة على ضوء النار المتاججة التى كانت السنة لهيبها تتراقص وتقفز بجنون مع كل لطمة من لطمات الامواج المرعدة . اما منظر هذه الشياطين فكان كالتالى : كانوا يبدون كالبشر فى كل مجال ولكن فى نفس الوقت لم يكونوا كاى انسان على

سطح الارض . كانوا مخلوقات قصيرة ، عراض الاكتاف يجلسون القرفصاء ، وكان الشعر كثيفا على كل جزء من اجزاء جسدهم باستثناء راحة اليد وكعب القدم والوجه . كانت وجوههم كبيرة جدا لها فم وفكان كبيران بارزان وكانت ملامحهم قبيحة . كما ان رءوسهم كانت اكبر من رءوس البشر العاديين ، اما عيونهم فكانت غائرة بعمق فى رءوسهم ، وحواجبهم كثة ضخمة ليس بسبب الحواجب المليئة بالشعر ولكن بسبب العظام البارزة . وكانت اسنانهم ايضا كبيرة حادة مع انه صحيح ايضا ان اسنان الكثيرين منهم كان مبرية مهترئة ومنبسطة .

الفصل التاسع والعشرون

وفى مجالات اخرى من معالم اجسامهم ، وفيما يتعلق بالاعضاء التناسلية والفتحات العديدة فان الوندول يشبهون البشر ايضا فى هذا المجال . كان احد هذه المخلوقات يموت ببطء وكان يحاول ان يرسم بعض الاصوات بلسانه بدت لاذنى وكانها نوع من انواع الكلام ، ولكننى لم استطع ان اتأكد من هذا وانا اعيد قص الحادثة دون التزام بهذا الموضوع .

القى بيولف نظرة فاحصة على هذه المخلوقات الاربع الميتة ، بفرائهم السميك ، ثم سمعنا ترتيلا رهيبا تتردد اصداؤه وكان صوت يرتفع ثم ينخفض على ترانيم رعد تلاطم الامواج ، وكان الصوت ينبعث من اعماق الكهف الحالكة . عندما قادنا بيولف الى تلك الاعماق .

وهناك وقعنا على ثلاثة مخلوقات اخرى كانوا منبطحين على الارض ووجوههم متجهة الى الارض وايديهم مرفوعة تضرعا باتجاه مخلوق عجوز مختبىء فى الظلال . هذه التضرعات كانت تشبه التراتيل وكان المتضرعون غارقين بتراتيلهم الى حد لم يلاحظوا معه وصولنا . لكن المخلوق العجوز رآنا وصرخ صرخة مرعبة حين اقتربنا منه . وقد اخذت ذلك المخلوق على انه ام الوندول ولكنها ان كانت انثى لم ارى اثرا لذلك لانها كانت على درجة من الهرم اصبحت معها لا جنس لها .

انقض بيولف وحيدا على المتضرعين وقتلهم جميعا بينما المخلوقة الام راحت تتراجع فى الظلام وتصرخ صراخا مرعبا . لم استطع

رؤيتها بوضوح ولكن ما ساورويه الان حقيقى رايته بعينى : كانت محاطة بالافاعى التى التفت حول قدميها على يديها وحول عنقها . وكانت هذه الافاعى تفح وتلعق بالسنتها . ولان هذه الافاعى كانت فى كل مكان حولها وعلى جسدها وعلى الارض ايضا فلم يجرؤ اى محاربى بيولف على الاقتراب منها .

ثم هاجمها بيولف فاطلقت صرخة خوف رهيبة عندما غرز خنجره عميقا فى صدرها دون ان يعير الافاعى اى انتباه . طعن ام الوندول عدة طعنات بخنجره ولكنها لم تنهار ولم تسقط بل بقيت واقفة رغم الدم الذى كان ينسكب منها كما لو كان يتدفق من ينبوع ، ومن الجراح العديدة التى اوقعها بها بيولف . وبقيت طيلة تلك الفترة تصرخ بصوت يثير اشد الرعب .

واخيرا تهاوت وسقطت ميتة فاستدار بيولف ليواجه محاربيه . عندها راينا ان هذه المراة ، ام اكلة الموتى ، قد جرحته . كان دبوس فضى شبيه بدبابيس الشعر قد دفن فى امعائه . وكان هذا الدبوس يهتز عند كل نبضة قلب . انتزعه بيولف من مكانه انتزاعا فانسكبت وراءه دفقة من الدم ، لكنه لم يركع على ركبتيه رغم جرحه القاتل ، بل بدلا من ذلك وقف واعطى اوامره بمغادرة الكهف .

نفذنا الامر منطلقين من الباب الثانى المنفتح على اليابسة . هذا المدخل كان محروسا لكن كل الحرس الوندول كانوا قد فروا عند سماعهم صرخات امهم المحتضرة . غادرنا المكان دون اى انزعاج حيث قادنا بيولف خارج الكهف ومن هناك عدنا الى خيولنا . وعند ذلك فقط انهار بيولف وسقط على الارض .

امر اكثغو بوجه حزين غير مألوف ابدا بين الشماليين يطغى عليه امر بصناعة مايشبه النقالة حملنا بيولف عليها عبر الحقول الى مملكة روث غار . وطيلة ذلك الوقت كان بيولف مرحا حبورا ومنطلقا . لم افهم الكثير مما قال ، ولكن سمعته مرة يقول : « لن يكون روث غار سعيد لرؤيتنا ، اذ عليه ان يقيم وليمة اخرى وقد اصبح الان مضيفا مستنزفا الى ابعد الحدود » . ضحك المقاتلون لهذا كما ضحكوا لكلمات اخرى اطلقها بولف ، وقد لاحظت ان ضحكهم كان امينا مخلصا .

وصلنا الى مملكة روث غار حيث استقبلنا بالهتافات والسعادة الغامرة ولم يكن هناك اى اثر للحزن ، رغم ان بيولف كان جريحا يعانى الموت وقد تحول لحمه الى اللون الرمادى وراح جسده يهتز بينما كان يضيء عينيه شعاع من روح مريضة مرتعشة بالحمى . هذه علامات كنت اعرفها جيدا ، وكان يعرفها ايضا اهل الشمال .

احضر لبيولف وعاء من حساء البصل ، ولكنه رفضه قائلا ، « انا مصاب بمرض الحساء ، فلا تزعجوا انفسكم من اجلى » . ثم طلب اقامة احتفال واصر على ان يترأسه هو شخصيا ، جلس خلاله منتصبا على مقعد حجرى الى جانب الملك روث غار وشرب شراب الميد وفرح ومرح كثيرا . كنت بجانبه حين قال للملك روث غار فى وسط الاحتفالات ، « ليس لى عبيد » . اجاب روث غار « كل عبيدى هم عبيدك » . فقال بيولف « ليس عندى خيول » . ويجيب روث غار ثانية « كل خيولى هى خيولك . لا تشغل بالك بهذه الامور » . وكان بيولف وقد ضمدت جراحه سعيدا وراح يبتسم وقد عاد اللون الى خديه ذلك المساء ، وكان يبدو وكانه يزداد قوة مع مرور كل لحظة من ذلك المساء . ومع انى لم اكن لاصدق بان هذا ممكن ، فقد راح يضاجع فتاة جارية ، قال لى بعدها مازحا « الرجل الميت ليس ذا فائدة لاى انسان » .

ثم غاب بيولف فى سبات عميق ، بينما ازداد لونه شحوبا وتنفسه بطئا . وكنت اخشى الا يستيقظ من نومه هذا . ربما فكر هو ايضا بنفس الطريقة ، لانه حين نام امسك بسيفه وقبض عليه بشدة بيده .

الفصل الثلاثون

الوندول ونزع العون الاخير

رحت انا ايضا فى سبات عميق . لكن هرغر ايقظنى بهذه الكلمات : « عليك ان تاتى بسرعة » . وبعدها سمعت صوت رعد بعيد . نظرت

الى النافذة الجلدية(١) فادركت ان الفجر لم يبزغ بعد . لكنى استللت سيفى رغم انى فى الواقع كنت قد غفوت وانا مرتد درعى ، دون ان اهتم بخلعه . ثم اسرعت الخطى خارجا ، حيث كانت الساعة قبيل الفجر والهواء ضبيبا ثقيلا يملؤه هدير حوافر بعيدة .

قال هرغر « انهم الوندول ياتون الينا . انهم على علم بجراح بيولف القاتلة ، وهم يطلبون الثار الاخير لقتل امهم » .

اتخذ كل من محاربى بيولف ، وانا بينهم ، مكانا على امتداد التحصينات التى كنا قد اقمناها لمقاومة الوندول . وقد كانت دفاعات ضعيفة جدا ، ولكن لم يكن هناك بديل عنها . رحنا نحدق فى الضباب محاولين استشفاف رؤية الخيالة العادين على خيولهم باتجاهنا . ولقد كنت اتوقع خوفا عظيما وهلعا ، الا انى لم اشعر بشيء من هذا ، اذ كنت قد رايت ملامح الوندول ، وكنت اعرف انهم مخلوقات ككل المخلوقات ، وان لم يكونوا بشرا كما القردة ايضا تشبه البشر . ولكنى كنت اعرف انهم فانون وانهم يموتون .

ولهذا لم يكن لدى اى خوف ما عدا توقع هذه المعركة الاخيرة . وكنت فى هذه الحال وحيدا ، لانى وجدت ان محاربى بيولف بدا يعتريهم ويظهر عليهم الخوف الشديد رغم محاولاتهم الجاهدة لاخفاء هذا الخوف . وفى الحقيقة بما اننا كنا قد قتلنا ام الوندول التى كانت قائدهم ايضا فاننا فقدنا بيولف ايضا الذى كان قائدنا ، ولم يكن هناك اى مظهر من مظاهر الفرح بينما كنا ننتظر ونصغى الى تقدم الرعد واقترابه منا .

ثم سمعت حركة ورائى وحين التفت رايت ما يلى : كان بيولف وقد شحب لونه حتى اصبح كلون الضباب نفسه وقد تلفع بالبياض حول جراحه ، كان واقفا منتصبا على ارض مملكة روث غار وعلى كتفيه كان يجلس غرابان اسودان واحد على كل كتف . ما ان راى

---

(١) التعبير الحرفى هو نافذة الخنزير . فقد كان الشماليون يستعملون الجلود المطروطة بدلا من الزجاج لينظروا لوافذهم الضيقة . هذه الاغشية او الجلود كانت شفافة لكن لم يكن بامكان المرء ان يرى الكثير من خلالها ، الا ان الضياء كان يخترقها الى داخل البيوت .

الشماليون هذا المنظر حتى صرخوا ذعرا من قدومه ثم رفعوا اسلحتهم في الهواء وصاحوا صيحة الحرب (١) .

لم ينطق بيولف بكلمة واحدة كما لم يلتفت الى اية جهة ابدا ولم تصدر عنه اية اشارة توحي بانه كان يميز أيا منا ، ولكنه صار بخطوات متزنة الى الامام مجتازا خط التحصينات ، وهناك راح ينتظر هجوم الوندول . وفجأة طار الغرابان فقبض على سيفه رندنغ واستعد لمواجهة الهجوم .

ما من كلمات تستطيع ان تصف الهجوم النهائي للوندول في ذلك الفجر الضبابي . وما من كلمات ستكون قادرة على وصف حجم الدماء التي اهرقت ولا الصيحات التي ملأت الجو الثقيل ولا الخيول ولا الفرسان الذين ماتوا في هذه الملحمة المخيفة . وبأم عيني رايت اكثفو بذراعيه الفولاذيتين : رايته والله وقد قطع رأسه دفعة واحدة سيف من سيوف الوندول فسقط الراس على الارض وراح ينط ويقفز كدمية طفل بينما اللسان كان لا يزال يتحرك في فمه . ولقد رايت ويث ايضا يتلقى رمحا في صدره الصقه بالارض وسمره هناك حيث راح يتلوى كسمكة اخرجت لتوها من البحر . ورايت فتاة طفلة داستها حوافر الخيول فتحطم جسدها وسوى بالارض بينما كان الدم يتصبب من اذنها . ولقد رايت امراة كانت احدى جوارى الملك روث غار : كان جسدها قد شطر شطرين بينما كانت تركض هاربة من احد الخيالة : كما رايت اطفالا آخرين كثيرين قتلوا بنفس

(١) هذا المقطع من المخطوطة تم تجميعه من مخطوطة الرازى الذى كان اهتمامه الاول ينصب على التقنية العسكرية . وسواء عرف ابن فضلان أم لم يعرف او سجل أم لم يسجل فان مغزى ظهور بيولف ثانية غير معروف ومن المؤكد أن الرازى لم يخفها من عنده رغم ان المغزى واضح بما فيه الكفاية . ففي الاساطير الشمالية يظهر أودن عادة وهو يحمل غرابا على كل كتف من كتفيه . هذان الطيران يأتيانه بكل أخبار العالم . وأودن هذا كان الاله الرئيسي في هيكل الالهة الشمالية وكان يعتبر الاب الكوني . وكان يحكم خاصة في أمور الحرب ، كما كان يعتقد انه من وقت لاخر يظهر بين الناس ولكن نادرا : بشكله الالهي لانه كان يفضل ان يتخذ مظهر المسافر العادى البسيط ولقد قيل أن العدو كان يفزع ويفر من مجرد حضوره .

ومن المفيد أن نعرف أن هناك قصة تروى عن أودن انه يقتل ثم يبعث بعد تسعة ايام . ويعتقد معظم المطلعين أن هذه الفكرة سابقة لاى تاثير مسيحي . وعلى كل فان أودن المبعوث حيا يبقى فانيا وكان يعتقد انه لا يهم وان يموت أخيرا في يوم الايام .

الطريقة . ولقد رايت خيولا تتراجع ثم تهوى ليهوى عنها فرسانها فيهوى عليهم بدورهم الرجال والنساء ويذبحونهم ذبح النعاج وهم ما زالوا مستلقين على ظهورهم مذهولين . ورايت وغلف ، ابن روث غار يهرب من وسط المعركة ويختبىء طالبا امان الجبان . اما المنادى فلم أره ذلك اليوم .

ولقد قتلت أنا بنفسها ثلاثة من الوندول ، كما اصبت برمح في كتفي الذى كان المه يشبه الم الوقوع في النار . فقد كان دمي يغلي على طول ذراعي وحتى داخل صدرى . وكنت اظن انني سانهار ولكنني استمريت في القتال .

بدات الان الشمس تتراءى شيئا فشيئا من خلال الضباب وسرعان ما بسط الفجر نوره علينا وبدأ الضباب بالانسحاب كما اختفى الخيالة ايضا . وفي ضوء النهار الساطع رايت الجثث منثورة في كل مكان بما فيها الكثير الكثير من جثث الوندول لانهم لم يجمعوا موتاهم هذه المرة . وكانت هذه شارة نهايتهم الابدية ، فقد اصبحوا في فوضى واضطراب عظيمين ولن يستطيعوا ان يهاجموا روث غار ثانية وادرك كل سكان المملكة مغزى ذلك وفرحوا لذلك فرحا عظيما .

غسل هرغر لي جراحي وكان مرحا مسرورا حتى ادخل جسد بيولف الى قاعة روث غار الكبرى . كان بيولف قد مات فوق موته الاول ميتات كثيرة : فقد كانت جثته محفورة بسيوف عشرة خصوم على الاقل ، وكان وجهه وجسده غارقين في دمه الذى كان ما زال دافئا . ما ان راى هرغر هذا المنظر حتى تفجرت الدموع في عينيه وراح يحاول اخفاء وجهه عني ولكنه لم يكن بحاجة الى ذلك فقد احسست بدموعي أنا الاخر تنشر الضباب في عيني .

مدد جسد بيولف امام الملك روث غار الذى كان من واجبه الان ان يلقي خطابا . لكن الملك العجوز لم يكن قادرا ان يفعل شيئا كهذا ولكنه ردد هذه الكلمات فحسب : « هذا محارب وبطل اهل لان يكون الها . ادفنوه كما يدفن عظماء الملوك » . ثم غادر القاعة . واعتقد ان كان يشعر بالخجل والعار لانه لم يشترك شخصيا بالمعركة ، كما ان ابنه وغلف [illegible] هرب كجبان رعديد وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك وسموه [illegible] مرارا . وقد يكون هذا مما زاد عار الاب وخجله ،

او قد يكون هناك سبب آخر لم ادركه . وفى الحقيقة كان رجلا فى غاية الهرم .

وحدث الآن أن همس وغلف بصوت خفيض قائلا للمنادى : « لقد قدم لنا بيولف هذا خدمة عظيمة ، وما يزيده عظمة هو موته فى نهاية هذه الخدمة . قال هذابعد أن غادر ابوه الملك القاعة » .

سمع هرغر هذه الكلمات كما سمعتها انا أيضا ، وكنت اول من استل سيفه . فخاطبنى هرغر قائلا « لا تنازل هذا الرجل فهو ثعلب مكار ، وانت مجروح » . قلت له « ومن يهتم بالجراح ؟ » واندفعت متحديا وغلف الابن وفى القاعة نفسها . استل وغلف سيفه فى اللحظة التى لطمنى بها هرغر لطمة قوية من الخلف جاءتنى على غفلة فسقطت وانا الف وادور ثم التحم هرغر فى معركة رهيبة مع وغلف . واستل المنادى سيفه ايضا وتحرك خلسة بهدف الوقوف خلف هرغر وطعنه فى الخلف . هذا المنادى قتلته بنفسى بغرز سيفى عميقا فى بطنه ، فصرخ المنادى صرخة خرجت معها روحه . سمع وغلف صيحته ، ورغم انه كان يقاتل بشراسة من قبل فانه ابدى الان الكثير من الخوف فى صراعه مع هرغر .

وحدث الان ان الملك روث غار سمع قعقعة السيوف فعاد ثانية الى القاعة الكبرى ورجا ايقاف القتال ولكن عبثا ، فقد كان هرغر مصرا عنيدا فى مطلبه . ولقد رايته يقف منتصبا بجانب جسد بيولف ثم يطلق سيفه صوب وغلف فيطعنه ويسقط وغلف على طاولة روث غار ثم يتناول كاس الملك ويسحبها صوب شفتيه . لكن الحقيقة هى انه مات دون ان يشرب . وهكذا انتهت القضية .

اما رفاق بيولف والذين كان عددهم ثلاثة عشر ، فلم يبق منهم الا اربعة وانا منهم . وضعنا جثة بيولف تحت سقف خشبى وتركنا جسده مع كاس من شراب الميد فى يديه ثم خاطب هرغر الناس المتجمعين قائلا : « من سيموت مع هذا الرجل العظيم ؟ » عندها تقدمت امراة كانت جارية من جوارى الملك روث غار وقالت انها ستموت مع بيولف ، فبدات اقامة الاستعدادات المعتادة عند اهل الشمال لعملية الدفن (هنا رغم ان ابن فضلان لا يحدد مرور فترة

زمنية معينة فلابد ان تكون قد مضت بضعة ايام قبل حفل الدفن الرسمى) .

جهزت سفينة على الشاطىء تحت قاعة روث غار والقيت فيها كنوز الذهب والفضة كما القيت فيها جثتا حصانين ايضا . وبنيت فيها خيمة وضع فيها بيولف الذى كان الموت قد حجر جسده الان . كان جسده قد اتخذ لون الموت الاسود فى ذلك المناخ البارد . ثم اخذت الجارية الى كل من مقاتلى بيولف ثم جىء بها الى مضاجعتها . وهى تقول لى « ان سيدى يشكرك » وكانت تعابير وجهها وتصرفاتها فى أروع حالات المرح والسرور وبحال اكثر تعبيرا من حالات السرور المعتادة والتى يبديها الشماليون فى مثل هذه الظروف . وبينما كانت ترتدى ثيابها ثانية ، تلك الثياب التى كانت تحتوى العديد من قطع الذهب والفضة قلت لها بانها كانت ممتعة غاية الامتاع مسرورة غاية السرور .

وقد كان رايى بها انها كانت صبية جميلة فاتنة فتية غضة ومع ذلك كانت ستموت بعد قليل ، وهو ما كانت تعرفه كما اعرفه انا . قالت لى : « انى مسرورة فرحة لانى سالتقى بسيدى عما قريب » . ولكنها لم تكن قد شربت شيئا من شراب الميد ابدا ، وكانت تحكى عواطفها بصدق . كانت ملامح وجهها تشع مشرقة كملامح طفل سعيد او كملامح بعض النساء حين يحضن طفلا . هكذا كانت طبيعة الاشياء .

قلت لها : « اخبرى سيدك عندما تلتقين به بانى عشت وساعيش لاكتب » . لا ادرى ان كانت قد فهمت هذه الكلمات . قلت لها مضيفا « لقد كانت تلك رغبة سيدك » .

« اذن ساخبره بهذا » . وبهذه الجملة تركتنى بفيض من السرور وانتقلت الى محارب آخر من محاربى بيولف . لا ادرى ان كانت قد فهمت مغزاى وقصدى لان الشكل الوحيد من الكتابة الذى يعرفه هؤلاء الشماليون هو الحفر على الخشب او على الحجر ، والذى لا يفعلونه الا نادرا . ثم ان حديثى بلسان اهل الشمال لم يكن واضحا . لكنها رغم ذلك كانت مرحة سعيدة واستمرت كذلك .

فى المساء وبينما كانت الشمس تغرق نفسها فى مياه البحر ، كانت

سفينة بيولف قد أصبحت جاهزة على الشاطىء فاخذت الصبية الغضة الى داخل السفينة . وهناك قامت الحيزبون العجوز المسماة بملاك الموت بوضع الخنجر بين اضلاعها بينما قمت أنا وهرغر بشد الحبل الذى خنقها واطفأ إنفاسها ، ثم اجلسناها بجانب بيولف وغادرنا السفينة .

لم اتناول طعاما او شرابا طيلة اليوم ، لاننى كنت اعلم اننى ساشارك فى هذه الامور ، ولم اكن ارغب فى معاناة حرج افراغ معدتى فى هذه الظروف . ولكن الغريب اننى لم اشعر باى مقت او غضاضة فى اى من افعال ذلك اليوم ، كما لم يغم على ولم اشعر بدوار فى راسى واحسست بالفخر بينى وبين نفسى . والحقيقة ان تلك الصبية العذبة ابتسمت لحظة موتها وبقيت تلك الابتسامة متحجرة على وجهها بعد خنقها بحيث جلست بجانب سيدها والبسمة عالقة على وجهها الشاحب اما وجه بيولف فكان اسود وعيناه مغمضتين لكن تعابيره كانت هادئة وديعة . هكذا كانت آخر رؤية لى لهذين الشماليين .

واضرمت النار فى سفينة بيولف ثم دفعت الى عرض البحر ، بينما وقف الشماليون على الشاطىء الصخرى ورفعوا ابتهالات كثيرة الى آلهتهم . وبأم عينى رايت السفينة تحملها التيارات كطوافة تحترق ثم غابت عن ابصارنا وهبط ظلام الليل مرة اخرى على ارض الشمال .

الفصل الحادى والثلاثون

العودة من بلاد الشمال

قضيت بضعة أسابيع اخرى برفقة محاربى ونبلاء روث غار . كان ذلك وقتا ممتعا ، لان الجميع كانوا ودودين كرماء ، وقد اعتنوا عناية عظيمة بجراحى التى شفيت تماما والحمد لله . ولكنى اصبحت اشعر بالرغبة فى العودة الى بلادى . ولقد اعلمت الملك روث غار باننى

كنت مندوب خليفة بغداد وانه يجب على ان اتم مهمتى التى ارسلنى لانجزها والا استحقيت غضبه .

لكن هذا لم يكن ليثير اهتمام روث غار الذى قال اننى محارب نبيل وانه كان يرغب فى ان ابقى فى مملكته لاحيا حياة محارب مكرم . وقال اننى كنت صديقه الابدى واننى استطيع ان احصل على اى شىء ارغبه ويستطيع هو ان يقدمه لى . الا انه كان مترددا فى السماح لى بمغادرة مملكته واخترع كل انواع الاعذار واسباب التاخير التى قد تخطر على بال . فى البدء قال روث غار انه على ان اعتنى بجراحى مع انه كان واضحا ان هذه الجراح قد شفيت تماما . ثم عاد وقال انه يجب على ان استعيد قوتى مع انه كان واضحا ان قوتى قد عادت الى . واخيرا قال انه يجب على ان انتظر اعداد سفينة ، وهو امر لم يكن سهلا . وحين سألت عن الوقت الذى يستغرقه اعداد سفينة كهذه اعطانى الملك جوابا غامضا ، كما لو ان هذا الامر لم يكن يهمه كثيرا . وفى اللحظات التى كنت فيها الح بالمطالبة فى الرحيل كان يغضب ويتساءل عما اذا كنت غير مكتف او راض عن كرمه . وجوابا على ذلك كنت مضطرا ان امتدح سماحته وكرمه واردد كل تعابير الرضى والقناعة . وسرعان ما ادركت بان الملك العجوز كان اقل حماقة مما كنت اظن من قبل .

عدت الى هرغر لاحدثه عن مأساتى ، وقلت له : « ان هذا الملك ليس بالاحمق الذى كنت اظن » . قال هرغر مجيبا « انت مخطىء لانه فى الواقع احمق مجنون ولا يتصرف تصرف العاقلين » ثم اضاف بانه سيرتب امر رحيلى مع الملك .

وكان الاسلوب الذى اتبعه كالتالى . طلب هرغر مقابلة الملك فى خلوة ثم قال له انه ملك عظيم حكيم كان شعبه يحبه ويحترمه وما ذلك الا للطريقة التى كان يعتنى بها بقضايا مملكته وشعبه . ويبدو ان هذه اللحظة بالذات قال له هرغر انه من بين ابناء الملك الخمسة لم يبق الا واحد منهم ، وكان ذلك وولف غار الذى كان قد ذهب ليقوم بدور الرسول عند بيولف ، وبقى بعيدا . ثم اضاف هرغر بانه لابد من استدعاء وولف غار للعودة الى الوطن وانه يجب اعداد جماعة

تقوم بهذه المهمة ، لانه لم يعد هناك من وريث آخر للمملكة سوى وولف غار .

حدث الملك بكل هذه الامور ، واعتقد بانه قال شيئا كهذا وعلى انفراد للملكة وليو التى كان لها تأثير كبير على زوجها الملك .

ثم حدث فى احدى الولائم المسائية ان دعا الملك روث غار الى تجهيز سفينة وبحارتها لتذهب فى رحلة لاعادة وولف غار الى المملكة . طلبت ان انضم الى طاقم البحارة ، وهو ما لم يستطع الملك العجوز ان يرفضه . وقد استغرق اعداد السفينة بضعة ايام ، قضيت معظمها برفقة هرغر الذى اختار الان ان يبقى فى المملكة .

فى احد تلك الايام وقفنا معا على الجرف ننظر من عل الى السفينة الراسية على الشاطىء وقد تم اعدادها للرحلة وزودت بكل المؤن الضرورية . قال لى هرغر : « انت على وشك الانطلاق فى رحلة طويلة . وسنصلى جميعا من اجل وصولك بالسلامة » .

وعندما سألته لمن سيصلى من اجلى اجاب قائلا « سنصلى للاله اودن وفريه وثور وورد والعديد من آلهتنا الاخرين الذين قد يكون لهم اثر فى سلامة رحلتك » . كانت هذه طبعا اسماء آلهة الشماليين .

اجبت قائلا : « انى اؤمن باله واحد هو الله الرحمن الرحيم » .
قال هرغر « انى اعلم هذا ربما كان اله واحد فى بلادكم كافيا ، ولكن ليس هنا . فهنا . آلهة كثيرة وكل له اهميته ، وسنصلى لهم جميعا من اجلك ومن اجل سلامتك » . عندها شكرته لان صلاة الكافرين جيدة قدر ما هى مخلصة صادقة ، وما شككت لحظة فى اخلاص هرغر .

كان هرغر يعلم منذ وقت طويل اننى كنت على عقيدة مختلفة عن عقيدته ولكن ما ان اقترب وقت رحيلى حتى راح يسأل مرارا وتكرارا عن معتقداتى ثم ، وفى لحظات مفاجئة يحاول ان يضبطنى متلبسا ليتعلم الحقيقة . وكنت انظر الى اسئلته العديدة على انها شكل من اشكال الامتحان كما امتحن بيولف مرة معرفتى بالكتابة . ولكنى كنت دائما اجيبه بنفس الطريقة مما كان يزيد فى حيرته .

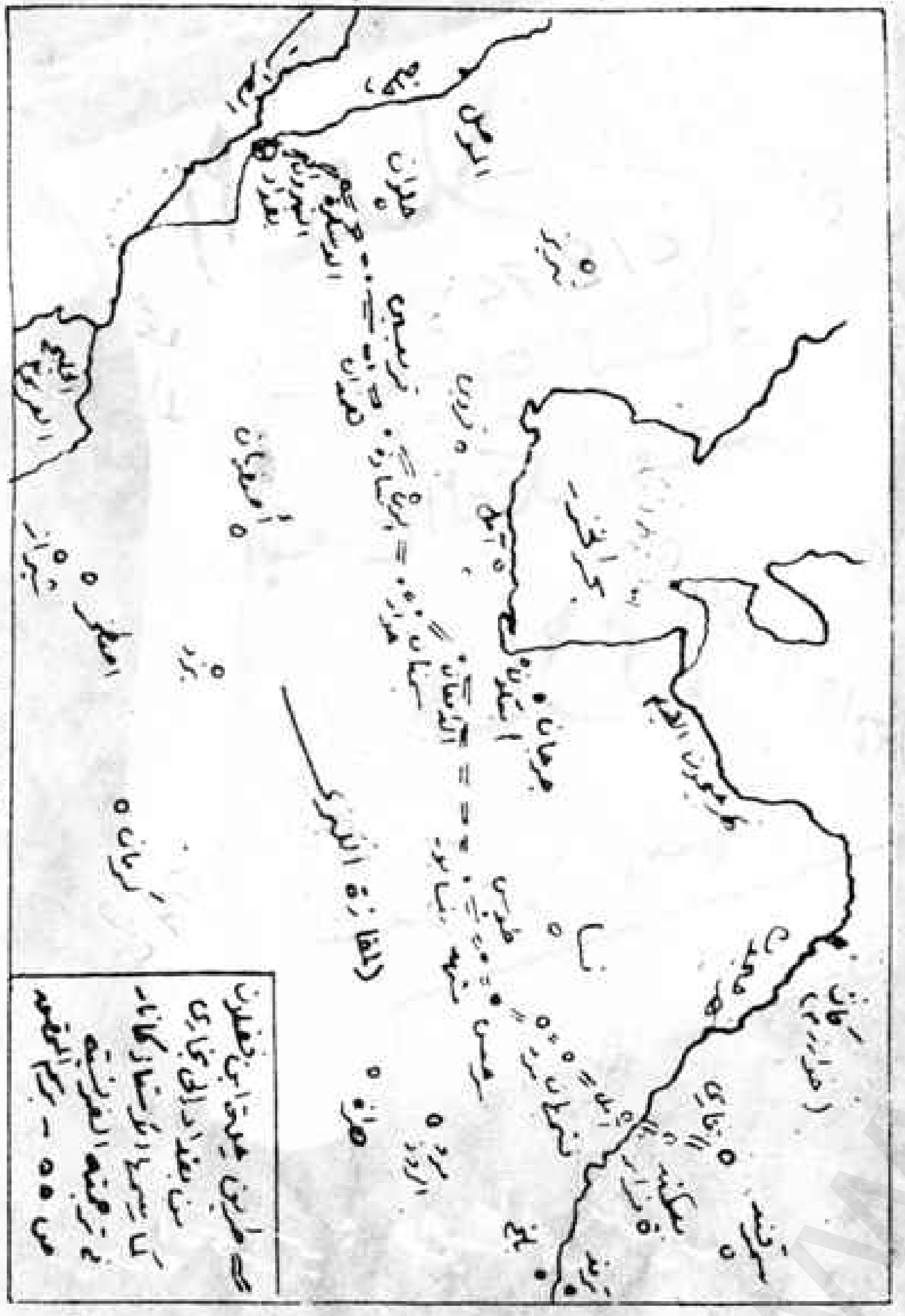
وفى احد الايام قال لى غير محاول الادعاء بانه لم يسألنى سابقا : « وما هى طبيعة الهك الله ؟ » .

قلت له « الله هو الواحد الاحد الذى يحكم كل الاشياء ويرى كل الاشياء ويعلم كل الاشياء ويتصرف بكل الاشياء » . كانت هذه كلمات اعدتها على مسامعه مرات ومرات فى الماضى .

وبعد وقت قصير سألنى هرغر « الا تغضب الهك الله هذا ابدا ؟ » قلت « طبعا انى اغضبه ولكنه غفور رحيم » وسأل هرغر « اهو غفور رحيم عندما يرى ذلك ؟ » اجبت بأن هذا الواقع فراح هرغر يتأمل اجابتى بامعان . واخيرا قال لى وهو يهز رأسه يأسا : « ان المخاطرة كبيرة جدا .. فالانسان لايستطيع ان يحل كل ثقته وايمانه فى شىء واحد ، سواء اكان ذلك الشىء امرأة او حصانا او سلاحا او اى شىء مفرد . » قلت له « ومع ذلك فانا اضع كل ثقتى فى هذا الواحد الاحد » . اجاب هرغر قائلا « ماتراه هو الافضل ، ولكن هناك الكثير الكثير مما لا يدركه الانسان . وان ما لايعلمه الانسان هو عالم الآلهة . »

من هذا ادركت انه لايمكن اقناعه باعتناق معتقداتى ولا انا باعتناق معتقداته ، وهكذا افترقنا . وفى الحقيقة كانت ساعة فراق حزين جدا وكان قلبى يتفطر الما لاننى كنت ابتعد عن هرغر وعن بقية المحاربين . وقد شعر هرغر بنفس الشىء . أمسكت به من كتفيه وامسك هو من كتفى ثم انطلقت الى السفينة السوداء التى حملتنى الى بلاد الوانز . وبينما كانت هذه السفينة بطاقمها القوى تنساب مبتعدة عن شواطىء فندان وقع بصرى على اعلى السطوح المتوهجة المتألقة لقاعة هاروت الكبرى وعندما التفت الى الجانب الاخر وقع بصرى على المحيط المديد أمامنا . والان حدث ان .

(وهنا تنتهى المخطوطة فجاة عند هذه النقطة ، والتى هى نهاية صفحة مخطوطية باليد تنهيها الكلمات الموجزة التالية Mune Fit
ومع انه واضح ان للمخطوطة تتمة فانه لم تكتشف اى مقاطع اخرى. هذه بالطبع هى الحادثة التاريخية بكل صفائها الا ان كل مترجم قد



مخطط الرحلة

علق على هذه المنطقية الشاذة لهذه النهاية المفاجئة ، والتى تثير احتمال بداية مغامرة جديدة ، او منظر جديد غريب قد حرم علينا معرفته لاكثر الاسباب مرضية عرفتها السنوات الالف الماضية .

تمت

رقم الايداع : ١٩٩٩/١٧٣٧٨
I. S. B. N
977-07-0691-4